
كورت ديبوف
القَبْلَنَة
هل الحرب على الأبواب؟
مركز دراسات ثقافات المتوسط
مكتبة
t.me/soramnqraa
ترجمه عن الإنكليزية: عماد الأحمد



Tribalization: Why War is Coming? *by* "Koert Debeuf"
© 2021 Arabic copyright / © 2018 by Koert Debeuf
Was first published in 2018 by Academic and Scientific Publishers nv

المؤلف: كورت ديبوف / المترجم: عماد الأحمد
عنوان الكتاب: القبْلَنَة: هل الحرب على الأبواب؟
الطبعة الأولى: 2021.
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 979-12-80738-08-0



منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
www.misccenter.com / misc@almutawassit.org

كورت ديبوف

القَبْلَنَة

هل الحرب على الأبواب؟

ترجمه عن الإنكليزية: **عماد الأحمد**





فهرس الكتاب

المقدّمة

لماذا الحرب على الأبواب؟

لا شيء أسهل من القول إن "الشتاء قادم"، والأسهل أيضاً أن تقول إن الحرب على الأبواب. يرى كثيرون أن الحرب بحدِّ ذاتها مجرَّد فكرة سخيفة، ويوافق الأوروبيون على هذا بالتأكيد. يصعب تخيُّل عصر جديد من الدمار، بعد أكثر من 70 عاماً من السلام، و60 عاماً من التكامل والاندماج الأوروبيَّيْن. ولكنْ، ألم تسمعوا بمفكِّرين مثل البروفيسور ستيفن بينكر من جامعة هارفارد، والذي يقول إن التاريخ يجري في مسيرة تقدُّميَّة، وإننا كبشر نعيش أزهى عصورنا، وإن الأمور ستتحسَّن في المستقبل؟ صحيح، يبدو أن الإحصاءات تدعم هذا الرأي. أصبح العالَم أكثر ترابطاً اليوم، وتناقصت معدَّلات الفقر والقتل، وصار هناك اهتمام أكبر بحقوق الإنسان والحُرِّيَّات المدنية أكثر من أيِّ حقبة أخرى في التاريخ.

ولكنني من جهتي لا أشارك السَّيِّد بينكر تفاؤله. لن أخوض حرب إحصائيات معه بالطبع، بل يعتمد تحليلي أساساً على تجربتي الشَّخصيَّة في الصراعات والحروب. شاهدتُ بأُمِّ عينَيّ خلال السنوات الخمس التي عشتُها كمسؤول برلماني أوروبي في القاهرة بعد ثورة 2011، كيف يمكن للمجتمعات أن تتغيَّر بسرعة كبيرة، وعلى نحو يتناقض مع جميع الإحصاءات. عرفتُ في ميدان التحرير أن التفاؤل والاتِّحاد يمكن أن يتحوَّلا إلى كراهية واستقطاب بين عشية وضحاها. شهدتُ في طرابلس انهيار المجتمع اللِّيبيِّ وانحداره نحو الحرب الأهلية. تمكَّنتُ من أن أشمَّ رائحة صعود تنظيم القاعدة

والدولة الإسلامية على أنقاض المُدُن البائسة التي يقتلها اليأس، بعد دخولي بواسطة المهرِّبين إلى شمال سوريا في عام 2013.

قبل أن أقضي رَدْحَاً من الزمن في الشرق الأوسط، ومن خلال عملي كمستشار لرئيس الوزراء البلجيكي، وبعد ذلك كسكرتير لرئيس كتلة اللِّيبراليِّيْن والدِّيمقراطيِّيْن في البرلمان الأوروبي، شهدتُ ما يقارب انهيار الاتِّحاد الأوروبي خلال الأزمة المالية والاقتصادية التي بدأت في عام 2007.

للتاريخ دائماً منعطفاته الغريبة والمفاجِئة، ولا حاجة للحفر عميقاً في ثنايا الماضي، لتدرك ذلك.

وفقاً لرواية السيرة الذَّاتيَّة للكاتب النِّمساويِّ ستيفان زفايغ "عالم الأمس" (1941)، فإن العقود التي سبقت الحرب العالَميَّة الأولى كانت من أفضل الفترات التي يمكن أن يعيش فيها المرء. سافر الناس في جميع أنحاء العالَم دون جواز سفر، وطرقت الفنون آفاقاً جديدة في الرسم والأدب والشِّعْر والموسيقى. تُظهِر لوحات مونيه وديغا ورينوار عالماً يعمُّه التَّقدُّم والسلام والرفاهية. يصف زفايغ ببراعة المفاجأة المطلقة لأهالي فيينا عندما انتهى هذا العالَم بسبب اندلاع واحدة من الحروب الأكثر دماراً في التاريخ. تواجهنا المفاجأة نفسها في كتاب "تحدِّي هتلر: مذكّرات"، للكاتب الألماني سيباستيان هافنر (كُتبت المذكّرات في عام 1940)، حيث يصف هافنر حياته في عشرينيات القرن العشرين وثلاثينياته في برلين، ويروي كيف أغلقت ميليشيا هتلر المسلَّحة، كتيبة العاصفة Sturmabteiling (SA))، حفلاً في برلين، تاركة الجمهور غارقاً في حَيْرته وارتباكه. لم يفهموا ما الذي كان يحدث، وبالتأكيد لم يفهموا سبب إلغاء الحفلة.

في كلتا الحالَتَيْن، فُوجئ الناس، وارتبكوا، ولم يدركوا الانهيار القريب لعالَمهم. يمكننا القول اليوم إنه كان عليهم أن يدركوا ذلك، فقد كانت العلامات والنُّذُر شاخصة في كل مكان من حولهم. إذا لم تسمع الخطاب

الحربي المتزايد للقيصر الألماني فيلهلم الثاني، فذلك لأنكَ لم تكن تُلقي بالاً لهذه الأمور وحسب. كانت خطط هتلر أكثر وضوحاً. لم يتوجَّب على المرء سوى أن يقرأ كتابه "كفاحي" ليعلم ماذا عليه أن يتوقَّع. ركَّزت ألمانيا، إضافة إلى لغة هتلر هذه، على الصناعات الحربية وإنتاج الأسلحة، بالإضافة أيضاً إلى التَّحدِّي الألماني للأعراف الدُّوليَّة، ولكن الأفراد والسِّياسيِّيْن أيضاً قد تجاهلوا كل تلك العلامات، واستبشروا خيراً بأن كل شيء سوف يسير على ما يرام.

لا يُركِّز هذا الكتاب على التَّنبُّؤات، بل على وصف العملية التي تنهار من خلالها المجتمعات، تلك العملية التي أُطلق عليها اسم: القَبْلَنَة. تعني كلمة قَبْلَنَة في اللغة العربية، العودة إلى الماضي للوصول إلى القبيلة. عندما تعيش في مدينة مليئة بالتَّحدِّيات، تتناهبكَ القناعات المتضاربة والوجوه غير المألوفة، فتصبح العودة إلى القبيلة مرادفاً للأمان والسلام الذي يوفِّره التعامل مع ما تعرفه. الجميع في القبيلة أسرة واحدة، والقواعد واضحة، والتَّوقُّعات والمآلات معروفة. يمكن التَّعرُّف على العدوِّ بسهولة، فهو كل شيء وكل شخص خارج القبيلة. شهدتُ بنفسي تكشُّف هذه العملية بوضوح تامٍّ في الشرق الأوسط، خطوة بخطوة.

لم يبقَ في عالَمنا الحديث بالطبع سوى القليل من القبائل الحقيقية. لذلك اخترعنا أنواعاً جديدة من القبائل والقبائل المتخيَّلة: الأُمَّة والدِّين والأيديولوجيا. تُعدُّ هذه القبائل، في حَدِّ ذاتها، أمراً مستحسَناً، حيث تمثِّل محرِّكات لبناء المجتمع، وتمنح معنى لوجود الناس وحيواتهم، في عالم فوضوي، يتلاشى فيه اليقين. ولكن هذه القبائل تتنامى على نحو حصري وسلطوي أيضاً، وتُطوِّر رؤية حادَّة بالأبيض والأسود للعالَمْ الذي تتغذَّى وتتنامى فيه القَبْلَنَة. فالقَبْلَنَة أساساً هي المعاكس الموضوعي للعَولَمَة.

أودُّ أن أُلخِّص تعريف العَولَمَة، باعتبارها عمليَّة تواصل مستمرٍّ ومتزايد بين الناس والأفكار والاقتصاديات، وهي لا تُعدُّ ظاهرة جديدة على الإطلاق. الإمبراطورية الأولى هي الإمبراطورية السُّومريَّة، والتي كانت قائمة منذُ عام 4500 قبل الميلاد إلى 1900 قبل الميلاد في جنوب بلاد ما بين النهرَيْن، جنوب العراق اليوم.

لم تكن إمبراطورية سومر إمبراطورية مركزية، بل ربطت المُدُن القديمة لبلاد ما بين النهرَيْن في "كيان كونفدرالي" واحد، في نسخة من الاتِّحاد الأوروبي، تعود إلى العصر الحجري الحديث.

اخترع السُّومريُّون الكتابة المسمارية، اللغة التي استُخدمت لآلاف السنين، باعتبارها "وسيلة التواصل العالَميَّة". عُثر على الفخَّار والأختام السُّومريَّة على طول الطريق بين الأناضول الحالية والبحرَيْن وأفغانستان وفي وادي السند. سوف تغدو هذه الطُّرُق المستخدمة لاستيراد وتصدير السلع والأفكار فيما بعد طُرُق الحرير، التي تربط الصين والهند بالشرق الأوسط وأوروبا. يُثبت هذا، بلا مراء، أن العَولَمَة قديمة قِدَم الحضارة نفسها.

تمُثِّل العَولَمَة المجرى الحقيقيَّ للتاريخ. بدءاً من السُّومريِّيْن، تزايدَ ارتباط البشر على نحو غير مسبوق، كما تزايدت وتيرة الاتِّصال والتواصل أيضاً مع مرور الوقت. كانت النخب الرُّومانيَّة في القرن الأوَّل والثاني قبل الميلاد ترتدي ملابس حريريَّة صينيَّة باهظة الثمن. هناك مسجد يعود تاريخه إلى القرن الثامن في زيان، العاصمة السابقة للصين، ممَّا يجعله مسجداً قديماً للغاية قِدَمَ المسجدَيْن الأمويَّيْن في دمشق وحلب. انتشرت الأفكار بسرعة على طريق الحرير وفي كلا الاتِّجاهَيْن. في عام 1403، اخْتُرِعَتْ المطبعة المعدنية المتحرِّكة في كوريا. بعد خمسين عاماً، طبع يوهانس غوتنبرغ "إنجيل غوتنبرغ" باستخدام نفس التِّقْنِيَّة بالضبط.

قامت الحضارة الإنسانية على التبادل العالَمي للسلع والأديان والأفكار والاختراعات بوتيرة متزايدة باستمرار، ولآلاف السنين.

توقَّفَ هذا الاتِّجاه المعولم، وتعطَّل مسارُه في عدَّة لحظات في التاريخ. فَصَلَ سقوطُ الإمبراطورية الرُّومانيَّة أوروبا عن طُرُق الحرير. أعلنت سلالة مينغ في 1434 فرض حظر إمبراطوري على التجارة الخارجية، وفصلت الصين عن طُرُق التجارة الشهيرة.

عطَّل غزو المغول لقلب العالَم الإسلامي في القرن الثالث عشر التجارة الدُّوليَّة لعدَّة عقود. ثمَّ أحيا المغول، فيما بعد، طريق الحرير حتَّى وصل إلى مستوى أعلى، من خلال وجود مُدُن خلَّابة مثل سمرقند وطشقند في قلبه.

تُعدُّ الحربان العالَميَّتان المثالَيْن الأكثر حداثة، واللَّتَيْن قد سبَّبتا، بلا شكٍّ، اضطرابات كبيرة للعَولَمَة. تُمثِّل هذه الاضطرابات في العَولَمَة بالنسبة إليَّ تلك اللحظات التي أتحدَّث عنها من القَبْلَنَة. نعيش اليوم مجدَّداً في عصر القَبْلَنَة، فالعَولَمَة تعيش حاليَّاً حالة اضطراب. يظهر في الفصل الثالث الركود العالَمي في التجارة. تُبيِّن أرقامُ مؤشِّر معهد KOF السُّويسريِّ لقياس العَولَمَة (مركز أبحاث الظرف الاقتصادي) منذُ 1975 بوضوح أنه كان هناك فترة من الركود منذُ 2007. أحدثُ مؤشِّر للعَولَمَة، والذي نُشر في كانون الثاني/ يناير 2018، على أساس البيانات من عام 2015، هو المؤشِّر الأكثر إثارة للقلق: في عام 2015، وللمرَّة الأولى منذُ عام 1975 (أزمة النفط)، بدأت العَولَمَة بالتراجع. كان هذا قبل انتخاب دونالد ترامب للرئاسة وشروعه في حرب تجارية مع بقية العالَم. وكما قال الاقتصادي والكاتب الفرنسي فريديريك باستيا في القرن الثامن عشر: "إذا لم نسمح للسلع بعبور الحدود، فستعبرها الجيوش".

سيكون من الخطأ مع ذلك النظر في القَبْلَنَة وتراجع العَولَمَة، باعتبارها

مجرَّد ظاهرة اقتصادية. فنظراً لحقيقة أن بداية الأزمة المالية والاقتصادية كانت في عام 2007، بالكاد يمكن تفسير ما أُطلق عليه الركود العظيم على أنه سبب ركود العَولَمَة. لذلك فإن زعمي الثاني هو أن القبيلة في المقام الأوَّل، عبارة عن اتِّجاه نفسيٍّ، يمكن أن يتبعه ويسارع فيه أزمات اقتصادية لاحقة. يتمثَّل أساس عملية القَبْلَنَة المستمرَّة في أزمة الهوية الجماعية الناجمة عن صدمة شديدة. توصَّلتُ إلى هذا الاستنتاج بعد مناقشات ثريَّة مع الأطباء النَّفسيِّيْن وعلماء الأنثروبولوجيا في مركز حلِّ النزاعات المستعصية في كُلِّيَّة هاريس مانشستر الساحرة في جامعة أكسفورد. لربَّما كان تبادل الأفكار مع العلماء من مختلف التَّخصُّصات، إلى جانب تجربتي الخاصَّة على الأرض في هذه الصراعات والحروب، الطريقة الأفضل لفَهْم الصورة الشاملة، والتي تتمثَّل في هذه الحالة بالحلقة المفرَغة للقَبْلَنَة.

وقعت الفترة السابقة من القَبْلَنَة الحقيقية للمجتمع في الثَّلاثينيَّات. وخلافاً للاعتقاد الشائع، فإن السبب الرئيس لانهيار النظام اللِّيبراليِّ والعَولَمَة في هذه الفترة لم يكن انهيار وول ستريت عام 1929. كان العالَم قد بدأ القَبْلَنَة قبل هذه الأزمة المالية. جاء صعود الفاشية وبينيتو موسوليني في إيطاليا، وصعود الأحزاب الشُّيوعيَّة، والنزعة الكاثوليكية، قبل عام 1929. وقد ضخَّم حدث انهيار وول ستريت هذه الأزمة العالَميَّة في الهوية. كانت الصدمة التي تسبَّبت في أزمة هوية أوروبا هي الحرب العالَميَّة الأولى، وكل النتائج والقرارات الظالمة الناتجة عن تلك الحرب. نميل دوماً إلى نسيان أن الحرب العالَميَّة الأولى قد أدَّت إلى نهاية الإمبراطورية الرُّوسيَّة، والإمبراطورية النّمساويَّة المجرية، والإمبراطورية الألمانية، والدولة العثمانية. تبع كل هذا الكثير من الأسئلة المتعلِّقة بالهوية، والتي بقيت معلَّقة دون إجابة. في إيطاليا، شهد الجنود الذين كانوا مع الطرف الفائز في الحرب بلادهم تسقط في قبضة اليسار. لذلك كانت الفاشية جوابهم

على هذا السقوط. أدَّتْ مثل هذه الصدمات الجماعية إلى عملية القَبْلَنَة في أوروبا والولايات المتَّحدة وروسيا والشرق الأوسط.

نشأتْ الموجة الحالية من القَبْلَنَة بسبب هجمات 11 أيلول/ سبتمبر، والهجمات اللَّاحقة للقاعدة في أوروبا والهند وأفريقيا والشرق الأوسط. الرَّدُّ الأوَّل على هذه الهجمات كان عبارة عن ردٍّ فعل تضامنيٍّ. واستغرق الأمر بعض الوقت، لتأتيَ مرحلة الصدمة، ثمَّ جاء ما أُطلق عليه اسم "عملية القَبْلَنَة". بدأت هذه العملية بصدمة جماعية (خسارة الحرب العالَميَّة الأولى، أو هجمات 11 أيلول/ سبتمبر في هذه الحالة) ممَّا يؤدِّي إلى أزمة الهوية (مَنْ نحن؟). يرتكز الناس على الماضي القَبَلِيِّ الأسطوري (الهوية القومية أو الإيديولوجية أو الدِّينيَّة)، ويُركِّزون على هذه الهوية الفردية، باحثين عن قيادة قوية قادرة على استعادة عَظَمة بلادهم مرَّة أخرى. لا يمكن تحقيق هذا الشيء الذي يطلقون عليه اسم العَظَمَة، إلَّا إذا تمكَّنت القبيلة من التَّخلُّص من الأعداء، المختَلَقِين أو المتخيَّلِين- الخارجيِّيْن (العالَم الإسلامي)، والأعداء الدَّاخليِّيْن (المسلمين الغربيِّيْن) والخَوَنَة (اللِّيبراليِّيْن اليساريِّيْن والمثقَّفين). يصعب عندها إيقاف عجلة عملية القَبْلَنَة هذه، حيث ستؤدِّي إلى العنف (القمع والاغتيالات)، ثمَّ في النهاية إلى الحرب.

من أهمِّ الطُّرُق الشائعة لحماية القبيلة بناء الجدران لإبقاء الآخرين في الخارج. وجدتْ عالِمة الجغرافيا الكندية إليزابيث فاليت أنه في لحظة سقوط جدار برلين في عام 1989، كان في العالَم 15 جداراً وسوراً مصمَّمة لحماية الحدود. اليوم، في عام 2018، هناك ما لا يقلُّ عن 70 جداراً أو سوراً، أي ما يعادل خمسة أضعاف العدد السابق. قامت الحكومات ببناء الجدران والأسوار بين بلغاريا، وتركيا، وإستونيا، وروسيا، والنمسا

وسلوفينيا، هنغاريا وهنغاريا وصربيا، وهنغاريا وكرواتيا، وسلوفينيا وكرواتيا، وبين مقدونيا واليونان.

منذُ أوائل القرن الحادي والعشرين، ظهر ارتفاع حادٌّ في الخطاب القَبَلِيِّ والأحزاب القَبَلِيَّة في جميع أنحاء العالَم. تحيل كل هذه الخطابات والأحزاب إلى الماضي المجيد، مع وعود بجعل بلادهم أو أديانهم عظيمة مجدَّداً. يتحدَّث جميعهم عن فسطاطَيْن للعالَم، أبيض وأسود، ويصرُّون على أن تلك الأصوات الناقدة أو المعارضة لهم عبارة عن أعداء للدولة. الآتون من الخارج أعداء أيضاً، كالمهاجرين، لأنهم يعرِّضون الثقافة "النَّقيَّة" للقبيلة الأسطورية للخطر. في روسيا، يمجِّد الرئيس فلاديمير بوتين ماضي البلاد السِّتالينيّ، عندما كانت روسيا لا تزال قوية ومرهوبة الجانب. الغرب اللِّيبراليُّ هو عدوُّه الرئيس، بينما يتمُّ تصوير المعارضة الرُّوسيَّة على أنهم مجموعة من العملاء للأجانب. في تركيا، الرئيس رجب طيِّب أردوغان يريد إعادة بناء الماضي العثماني العظيم، عندما قاد الأتراكُ العالَمَ العربي. أعداؤه هم اللِّيبراليُّون الأتراك وأتباع فتح الله غولن، زعيم حركة إسلامية سرِّيَّة، تحمل اسمه، والذي زُعم أنه كان مسؤولاً عن الانقلاب المُخفِق في تمُّوز/ يوليو 2016. في إسرائيل، يصبح خطاب بنيامين نتنياهو أكثر قَبَلِيَّة عاماً بعد آخر، وقد أصبحت فكرة الدولة اليهودية النَّقيَّة فكرة سائدة ومقبولة على نطاق واسع.

انتخبت الولايات المتَّحدة الأمريكية في عام 2017، الرئيس الأكثر استقطاباً من بين جميع الرؤساء الذين مرُّوا على البلاد منذُ الحرب العالَميَّة الثانية. لم يَعِد دونالد ترامب ببناء جدار جديد وحسب، بل تعهَّد أيضاً بزيادة الحواجز التِّجاريَّة، بل وحتَّى الشروع في الحرب التجارية. لم تصل الهوَّة بين الدِّيمقراطيِّيْن والجمهوريِّيْن أبداً إلى هذا المدى من الاتِّساع. وصلت القَبْلَنَة

إلى حدود مرتفعة للغاية ومرعِبة في أرض الحُرِّيَّة. أمَّا المملكة المتَّحدة، فقد اتَّخذَتْ أهمَّ القرارات القَبَلِيَّة من بين كل هؤلاء، حيث وضعت مساراً لمغادرة الاتِّحاد الأوروبي. فقد قرَّرت الأغلبية مغادرة أكبر سوق في العالَم، على الرغم من احتمال زيادة الفقر والعزلة. هناك بلدان أوروبية أخرى وقعت في حبائل القَبْلَنَة المغرية أيضاً: أخذت اللِّيبراليَّة تتراجع شيئاً فشيئاً في كلٍّ من بولندا وهنغاريا. حقَّقت الأحزاب اليمينية المتطرِّفة مكاسب ضخمة في هولندا وبلجيكا وألمانيا وإيطاليا، وفي فرنسا والنمسا.

لا تنشر هذه الأحزاب اليمينية المتطرِّفة شكلاً جديداً من الوطنية الشُّموليَّة الاستبدادية فحسب، بل تعتقد حقَّاً أن العالَم يعيش حقبة صراع الحضارات، وترى في انتشار الإسلام والإرهاب الإسلامي أعظم التهديدات "للحضارة اليهودية المسيحية". منذُ 11أيلول/ سبتمبر والهجمات الأخرى التي نفَّذتْها القاعدة وداعش، أصبح يُنظَر إلى كل مسلم على أنه إرهابي محتمل، أو إسلامي محتمل، يحاول تدمير المجتمع المسيحي. تهيمن النقاشات حول الحجاب والأطعمة الحلال والمآذن على النقاش العامِّ. يبدو أن الخوف التَّاريخيَّ من سيطرة الإسلام على هذا النقاش العامِّ قد عاد مجدَّداً. ويستند هذا الخوف على الأشياء القليلة التي يتعلَّمها الناس حول الإسلام في الغرب في المدرسة: كيف أوقف تشارلز مارتيل الفتحَ الإسلامي في 732م، وكيف حرَّر الصَّليبيُّون الأراضي المقدَّسة، وكيف هزمت إمبراطورية هابسبورغ العثمانيِّيْن على أبواب فيينا في 1529 و1684م.

يستند اليمين المتطرِّف في أوروبا على موضوعَيْن رئيسَيْن: الولايات المتَّحدة الأوروبية والأسلمة. ويدور كلا الموضوعَيْن حول الهوية. انفجر هذا الخوف التَّاريخيُّ مرَّة أخرى مثل جرح متقيِّح منذُ 11أيلول/ سبتمبر والهجمات التي تلتْها. صدمت هذه الهجمات أقساماً كبيرة من المجتمع، وأغرقتْها في

أزمة هوية. كما جعل اتِّصال العالَم وترابطه أزمة الهوية هذه مُعدِية للغاية. اكتسبت رموز معيَّنة مثل الأعلام معنى مجدَّداً فجأة. يمثِّل الدُّستُور الأوروبي أحد الأمثلة على ذلك، حيث كتب بعد 11 أيلول/ سبتمبر، والذي كان من المفترض أن يكون خطوة جديدة أساسية في التكامل السِّياسيِّ في أوروبا. رُفض هذا الدُّستُور في عام 2005 في استفتاءات في فرنسا وهولندا، لأن الناس يخشون أن يصبح الاتِّحاد الأوروبي متجاوزاً للدولة، ويؤدِّي إلى محو الهويات الوطنية. ملأتْنا الدهشة في مكتب رئيس الوزراء البلجيكي لرؤية الخوف الذي يظهر على الناس. ظهر اعتراف الدُّستُور بالعَلَم الأوروبي والنشيد الأوروبي كحجر عثرة أساسي، لا يمكن تجاوزه. كانت مواضيع الولايات المتَّحدة الأوروبية والأسلمة محرِّكات أساسية للقَبْلَنَة الأوروبية، غذَّتْها الأزمة المالية والاقتصادية لعام 2008/2007 وأزمة الهجرة في عام 2015. خلال أزمة اللاَّجئين هذه، عبر أكثر من مليون لاجئ البحر الأبيض المتوسِّط والبوسفور من أجل دخول أوروبا.

من الواضح أن أحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر قد أطلقت العنان لعملية القَبْلَنَة على النحو نفسه في الولايات المتَّحدة. وكان القرار الأكثر أهمِّيَّة وتدميراً في هذه العملية، عندما قرَّرت إدارة بوش الذهاب إلى الحرب في العراق في عام 2003. اتَّسم كل شيء بهذه الحرب بالخطأ: حاولت الولايات المتَّحدة إقناع العالَم بالانضمام إلى الحرب على أساس أكذوبة، روَّجتْ لها.

استند الانتصار في الحرب الباردة إلى مبادئ حقوق الإنسان والدِّيمقراطيَّة وسيادة القانون. أمَّا اليوم، فقد شهد العالَم ممارسات التعذيب الأمريكية في سجن أبو غريب، وإجراءات اعتقال غير قانونية في جوانتانامو. وصَدَمَ الرئيسُ بوش العالَمَ الإسلامي باستخدام كلمات مثل "الحملة الصَّليبيَّة" و"محور الشَّرِّ".

تسبَّبت هذه الحرب أيضاً بتشكيل تنظيمات جهادية جديدة مثل القاعدة في العراق، والتي تمُثِّل النسخة المبكِّرة للدولة الإسلامية في العراق والشام، أو داعش. وقد أقنع إخفاق الولايات المتَّحدة في العراق قوى أخرى، مثل روسيا والصين، أن القوَّة الأمريكية العظمى وصلت إلى مرحلة الانحدار، وأنه قد حان الوقت للمطالبة بمكانهم في النظام العالَمي الجديد. انتُخب أوَّل رئيس أسود في الولايات المتَّحدة. لم يكن باراك أوباما قادراً على إيقاف هذا الانهيار، وبدا أنه من المستحيل إغلاق سجن جوانتانامو، وسحب الجيش الأمريكي من العراق وأفغانستان. وقد أثارت الأزمة المالية والاقتصادية عام 2008/2007 أسئلة حول نموذج الرَّأسماليَّة، لكنها جعلت العديد من الأميركيِّيْن العاديِّيْن أكثر فقراً. مهَّدت الأزمة في النهاية الطريق للخطاب القَبَلِيِّ لدونالد ترامب وأنصاره من الذكور البيض الذين في منتصف أعمارهم. لقد فقدت الولايات المتَّحدة اليوم مكانتها كمثال أعلى، يُحتذى به، ممَّا أدَّى إلى الإضرار بجاذبية ما يُسمَّى "القِيَم الغربية" المتعلِّقة بالدِّيمقراطيَّة والسوق الحُرَّة وحقوق الإنسان. أمَّا الأكثر إثارة للخوف، فهو حقيقة أن الولايات المتَّحدة تحوَّلت إلى وضع، لم تكن عليه من قبل أبداً: أصبحت أمريكا بلداً، لا يمكن التَّنبُّؤ بتصرُّفاته على الإطلاق.

كان لحرب العراق عواقب وخيمة في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا أيضاً. لقد دمَّرت الجيش العربي الأقوى، من الناحية العسكرية أوَّلاً، ثمَّ من الناحية الإدارية، فقد ألغى الحاكم الأمريكي في العراق بول بريمر، بجرَّة قلم، وبمجرَّد توقيع، الجيشَ العراقي. عندما تعهَّدت الولايات المتَّحدة بعملية إعادة بناء الجيش، أزاحت الضُّبَّاط السُّنَّة التابعين للديكتاتور المخلوع صدَّام حسين، وسجنت العديد من الجنرالات مع الجهاديِّيْن من تنظيم القاعدة في العراق، والذين كانوا مسؤولين عن الهجمات المستمرَّة ضدَّ القوَّات الأمريكية والمساجد الشِّيعيَّة. شكَّل هؤلاء الجنرالات والجهاديون،

وبمجرَّد إطلاق سراحهم من السجن، الدولة الإسلامية في العراق، والتي ستصبح داعش فيما بعد. كان الربيع العربي 2011 عبارة عن ثورة طالبت بالدِّيمقراطيَّة والحُرِّيَّة والعدالة الاجتماعية، ولكن المنطقة غرقت، في نهاية الأمر، في بحر من الفوضى، كما هو الحال عادة في الثورات. ظهر على السطح صراعان وجوديان: الصراع بين الإسلاميِّيْن والعلمانيِّيْن والصراع بين الشيعة والسُّنَّة، أو على نحو أكثر دقَّة بين إيران والسعودية. يُعدُّ كل بلد من بلدان الشرق الأوسط وشمال إفريقيا منخرطاً على نحو أو آخر في إحدى هذه المعارك على الأقلِّ، أمَّا سوريا، فقد غدت الصراع الأكثر وضوحاً. توتَّرت العلاقات بين إيران وإسرائيل وتركيا والمملكة العربية السُّعوديَّة ومصر، لدرجة جعلت المنطقة على وشك الانفجار في أيِّ لحظة. ربمَّا تتحوَّل جميع تلك الحروب بالوكالة في سوريا، والتي تقف وراءها روسيا والولايات المتَّحدة والعديد من الدول الأوروبية المعنية، إلى انهيار جليدي، لا يمكن إيقافه من المواجهات العسكرية، وربمَّا حتَّى إلى نوع جديد من الحرب العالَميَّة.

أقنعت الحرب غير الشَّرعيَّة في العراق عام 2003، وثورة الزهور في جورجيا في نهاية ذلك العام، والثورة البرتقالية اللِّيبراليَّة في أوكرانيا في عام 2004 لاحقاً، الرئيس الرُّوسيَّ فلاديمير بوتين بفكرة أن الهدف الرئيس للولايات المتَّحدة (وأوروبا) كان ولا يزال هو تحقيق تغيير النظام. ينظر بوتين إلى الغرب أيضاً على أنه أخطر عدوٍّ يواجهه بنفسه، ومن خلال نظامه، بل وبواسطة روسيا عموماً. يرى بوتين أن جميع "الثورات الملوَّنة" جاءت بأيادٍ غربية. جعل الربيعُ العربيُّ بوتينَ، وبالذات بعد الإطاحة بالقذَّافي في ليبيا، حيث تخطَّى الغرب تفويض الأمم المتَّحدة لوقف المجزرة في بنغازي، يقرِّر وقفَ هذه الثورات الملوَّنة، مهما كانت الطريقة، ومهما كان الثمن. منع بوتين سقوط بشَّار الأسد من خلال دعم الديكتاتور السُّوريِّ جوّاً، وعلى

الأرض حتَّى. كان تحذير بوتين للغرب واضحاً: لم تعد روسيا خائفة من المواجهة العسكرية، في أيِّ وقت، وفي أيِّ مكان.

ماذا عن الصين؟ الصين ليست متورِّطة في سوريا. لا تنخرط الصين كثيراً في البلدان التي تمزِّقها الحرب. لكنها تُركِّز بدلاً من ذلك على الأعمال واستيراد الموادِّ الخام. لكننا نميل إلى نسيان أن هناك العديد من المناطق المتنازَع عليها بين الصين واليابان وبين الصين والهند. وكلَّما تزايد نُمُوُّ الصين قوَّة، تزايدت ثقة قيادتها بنفسها.

الرئيس الحالي شي جين بينغ في طريقه إلى أن يصبح أكثر الزعماء الصِّينيِّيْن قوَّة منذُ عهد الرئيس ماو تسي تونغ. تحوَّلت الصين في عهد جين بينغ الحادي عشر إلى القَبْلَنَة بكل بوضوح، واضعة نصب عينَيْها ما تدعوه أيَّام ماو العظيمة، مع القيادة الاستبدادية وانعدام التسامح على الإطلاق مع أيِّ نقد داخلي. كان ينبغي لأسلوب عبادة الشَّخصيَّة في الحكم، والذي اعتمده منذُ تولِّيه السلطة في عام 2012، أن يكون بمثابة تحذير أوَّليٍّ للعالَم بأن جين بينغ سوف يُحوِّل الصين إلى ديكتاتورية، حيث سيتمُّ القضاء على أيِّ نوعٍ من أنواع المعارضة. قام منذُ ذلك الحين بتطهير الحزب الشُّيوعيِّ، واستخدم الخطاب الرَّسميَّ المتصلِّب، وغيَّر الدُّستُور، وفتح الطريق للبقاء في السلطة إلى أجل غير مُسمًّى. ويبقى السؤال: كم تحتاج الصين من الوقت، كي تتحوَّل السياسة الخارجية الحالية الحازمة للصين إلى سياسة عدوانية؟

إذا سافرتَ حول العالَم اليوم، سترى بوضوح ذلك الاتِّجاه المتزايد نحو القَبْلَنَة. تحوَّلت السياسة الدَّاخليَّة والدُّوليَّة إلى سياسات أكثر استقطاباً، وأكثر شعبوية وأكثر شخصانية، ممَّا كانت عليه منذُ الحرب العالَميَّة الثانية. ويروِّج قادة استبداديون جدد، كاستجابة للتجارب المؤلمة، لفكرة العَظَمَة

الجديدة في إشارة إلى الماضي المجيد الأسطوري. يطهِّر هؤلاء القادة بلدانهم من "الخَوَنَة"، ويعلنون أن نُقَّادهم الخارجِيِّيْن بمثابة أعداء. عملية القَبْلَنَة عملية مُعدِيَة. إن هذا العالَم هو عالم دونالد ترامب، وفلاديمير بوتين، ورجب طيِّب أردوغان، ومحمَّد بن سلمان، وعبد الفتَّاح السيسي، وبنيامين نتنياهو، وشي جين بينغ، وفيكتور أوربان، وياروسلافكاسينسكي، وناريندرا مودي، وعلي خامنئي. يتشارك كل هؤلاء سمة خطيرة، بصرف النظر عن الاستبداد الشائع والقَبْلَنَة المضادَّة للحُرِّيَّة: عدم القدرة على التَّنبُّؤ بتصرُّفاتهم. تماماً كما كان الحال في الحربَيْن العالَميَّتَيْن الأولى والثانية، فقد نستيقظ في يوم من الأيَّام، ونُصدم لإدراكنا ما لم نكن نتوقَّعه، أنه قد تمَّ جرُّنا إلى واقع جديد، واقع الحرب.



الفصل الأوَّل
روما أم موسكو أم الخلافة؟

كان عمِّي جيرمان مقاتلاً أجنبياً، حيث كان عضواً في الفيلق الفلمنديّ. تجنَّد عمِّي كمتطوِّع في الجزء الشَّماليِّ من بلجيكا للانضمام إلى جيش هتلر في الحرب ضدَّ الاتِّحاد السُّوفيتيّ. وانضمَّ عمِّي، وعلى عكس رغبة والدَيْه، إلى القوَّات النَّازيَّة في عام 1943 لأنه صدَّق أن الحرب الحقيقية كانت بين روما وموسكو، أي بين أوروبا المسيحية وروسيا الشُّيوعيَّة الملحدة. وكان جزءاً ممَّا يمكننا أن نُسمِّيهم "المجاهدين المسيحيِّيْن" أو "الجهاد الكاثوليكي".

لم يكن عمِّي جيرمان وحده. انضمَّ إلى هذا الفيلق اثنا عشر ألف مقاتل فلمنكي، وكلهم من المتطوِّعين. سرعان ما أصبح هذا الفيلق المتحمِّس للغاية جزءاً من قوَّات النخبة الألمانية Waffen-SS تحت قيادة هاينريش هيملر، الذي كان واحداً من أهمِّ قادة ألمانيا النَّازيَّة. كان هذا الفيلق الفلمنديّ في الحقيقة من بين الوحدات الأكثر تعصُّباً في وحدات النخبة الألمانية، والذي بقي جنوده حتَّى آخر لحظة للدفاع عن هتلر وبرلين في عام 1945 عندما دخل الجيش الأحمر المدينة.

لم تكن العائلات الفلمنديّة تتحدَّث علناً عن هذا الفيلق حتَّى وقت قريب، فلا تزال هذه المسألة تُشعِرهم بالعار. عندما غادر الشباب بلجيكا في أربعينيات القرن الماضي، كان الناس يهتفون لهم، ويُحيُّونهم كأبطال وهم يسيرون في الشوارع. لا بدَّ أن عمِّي الأكبر جيرمان كان فخوراً أيضاً. لقد ترك محلَّ جزارة والده في مدينة منين البلجيكية الصغيرة المُملَّة للدفاع عن القارَّة بأكملها ضدَّ الخطر الأحمر.

ولكن أحداً لم يهتف لهم على الإطلاق عندما عادوا بعد الحرب. كان جنود الفيلق الفلمنديّ يُعتبرون خَوَنَة، قد قاتلوا إلى جانب العدوِّ النَّازيِّ. حُكم على كل منهم بالسجن لفترات طويلة أو بالموت. لم يخاطر البعض منهم بالعودة إلى الوطن حتَّى، بل بقوا في ألمانيا، حيث بدؤوا حياة جديدة. لم ترَ عائلتي العمَّ جيرمان مرَّة أخرى، فقد مات وهو يقاتل في معركة شرسة في محاولة يائسة لوقف الهجوم الرُّوسيِّ في عام 1944، في مدينة بيريزني الأوكرانية، التي لا تبعد كثيراً عن الحدود البيلاروسية.

أُصيب عمِّي جيرمان هناك، وكان سينجو لو نقله رفاقه إلى مستشفى قريب. لكن أصدقاءه كانوا مرعوبين للغاية من القصف الرُّوسيِّ، لذلك هربوا، وتركوه وراءهم. لا يزال قبره هناك في مقبرة ألمانية، مَنسيَّة أو مُحتَقَرَة من قبَل الأشخاص الذين لا زالوا يتذكَّرون ويلات الحرب.

لطالما حيَّرني السبب وراء انضمام عمِّي جيرمان إلى وحدات النخبة الألمانية، التي تُعدُّ واحدة من القوَّات الأكثر دموية وبربرية في التاريخ. كيف أصبح "متطرِّفاً"، إذا استخدمنا مصطلحاً معاصراً، إلى درجة ترك عائلته لمحاربة عدوٍّ مجهول على بُعْد آلاف الأميال؟ لسوء الحظِّ، لم يكن عمِّي قادراً على التفسير وتوضيح أسبابه، لكن قلَّة من رفاقه أعطوا بعض المبرِّرات. يقول البعض إنهم انضمُّوا إلى الفيلق من أجل قضية دينية، دَفع باتِّجاهها وروَّج لها الكَهَنَة والمعلِّمون الكاثوليك، للدفاع عن أوروبا المسيحية ضدَّ الخطر الشُّيوعيِّ. أقنعهم هؤلاء المعلِّمون أن عليهم الاختيار بين روما وموسكو، أي بين المسيحية والإلحاد. قاتل آخرون في سبيل هدف وطني، فلاندرز المستقلَّة. وَعَدَت ألمانيا النَّازيَّة بمنح القوى الوطنية الفلمنديّة الاستقلال، بشرط إرسالهم القوَّات إلى الجبهة الرُّوسيَّة. لا يزال البعض الآخر مقتنعاً بأن هتلر كان الرجل الذي كانت أوروبا تحتاج إليه في أزمنة انهيار الدِّيمقراطيَّات. وكانت مجموعة رابعة من الشباب عبارة عن مجرَّد مغامرين يبحثون عن الإثارة.

تشبه هذه التفسيرات الأسباب التي يقدِّمها الشباب المسلمون اليوم، والذين تحوَّلوا إلى مقاتلين أجانب في سوريا أو العراق أو ليبيا. تحدَّث البروفيسور بيتر نيومان، مدير مركز دراسات التَّطرُّف في كُلِّيَّة كينغ في لندن، والخبير في المقاتلين الأجانب في سوريا، إلى الكثيرين منهم، لفهم سبب استعداد هؤلاء الشباب لترك أسرهم. استنتج نيومان أن هناك ثلاثة أسباب تجعل الناس يتحوَّلون إلى مقاتلين أجانب في سوريا: المجموعة الأولى، وإن كانت مجموعة صغيرة، هم المؤمنون الحقيقيون بإيديولوجية الدولة الإسلامية. هؤلاء عبارة عن جهاديِّيْن حقيقيِّيْن، على استعداد للقتال والموت في سبيل الخلافة الجديدة. ذهبت المجموعة الثانية إلى سوريا في المراحل الأولى من الحرب لأسباب إنسانية. شاهد هؤلاء الناس الصور المروِّعة على التلفاز، وأرادوا أن يفعلوا شيئاً ما، من العمل في المشافي إلى توزيع المساعدات الإنسانية، أو القتال في إحدى جماعات المتمرِّدين المعتدلة. أمَّا الجزء الثالث، والذي يمثِّل ربمَّا الجزء الأكبر، فهو يتكوَّن من المغامرين. معظم هؤلاء الناس لا يهتمُّون حقَّاً بالإسلام. حتَّى إن بعضهم اشترى كتاب "الإسلام للمبتدئين" عن طريق منصَّة أمازون قبل أن يتوجَّهوا إلى سوريا. يبحث هؤلاء الشباب عن الإثارة والصداقة، وغالباً ما يتمُّ تجنيدهم من قبَل أصدقائهم الموجودين أصلاً في سوريا، والذين يطلبون منهم الانضمام إليهم.

تستهدف الدعايةُ الخاصَّة بداعش، باستخدام رسائل مختلفة في أشرطة فيديو التجنيد الخاصَّة بها، كلاً من هذه المجموعات الثلاث. تجذب داعش الشبابَ العرب السُّنَّة من خلال رسالة أيديولوجية دينية، تقوم على انبعاث السُّنَّة ضدَّ جميع القوى الدُّوليَّة التي أذلَّت العرب السُّنَّة. يتلقَّى المغامرون رسائل مختلفة للغاية.

لا تكون أشرطة الفيديو باللغة العربية، بل باللغة الإنجليزية، وتستهدف في المقام الأوَّل المراهقين الذين لا يعيشون في العالَم العربي، وتُوظِّف لقطات

من الأفلام المعروفة وألعاب الفيديو. يتحوَّل الأبطال الهوليوديون إلى أبطال داعش، وتكون الرسالة بسيطة: اِنْضَمّ إلى داعش، وقد تصبح هذا البطل. تتناقض مقابلات المقاتلين التي يتحدَّثون فيها عن الصداقة الحقيقية التي يوفِّرها داعش، مع تلك العبارات حول الوحدة والصداقة المزيَّفة في الغرب. ويقول المجنَّدون المحتملون إن أيَّ شيء يحتاجون إلى تعلُّمه حول الدِّين أو تِقْنِيَّات القتال سيتمُّ بمجرَّد وصولهم إلى معسكرات التدريب.

ما زلتُ أجد هذه الرغبة في المخاطرة بحياتكَ في سبيل المغامرة رغبة مُحيِّرة للغاية. كان هذا اللغز في ذهني في المقام الأوَّل عندما ذهبتُ إلى سوريا في كانون الثاني/ يناير2013، كأوَّل مسؤول أوروبي يقدِّم تقريراً عن هذا البلد الذي مزَّقتْهُ الحرب للبرلمان الأوروبي. قابلتُ هناك أحد الشباب، بعد أن هبطتْ طائرتي في مطار غازي عنتاب، تلك المدينة التُّركيَّة بالقرب من الحدود السُّوريَّة. كان قد استقلَّ نفس الطائرة من القاهرة إلى إسطنبول بمفرده، بلحيته الطويلة دون أيِّ أمتعة تقريباً. ولأن الحدود بين تركيا وسوريا كانت مغلقة، كان علينا الدخول بطريقة غير شرعية إلى الداخل السُّوريِّ. انفصلْنا بعد ذلك، ليذهب كلٌّ منَّا في طريقه.

في كل مرَّة ذهبتُ فيها إلى سوريا خلال الحرب الحالية، كنتُ ألاحظ دائماً مثل هؤلاء الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين 18 و25 عاماً. لا يمكنكَ بالتأكيد معرفة ما إذا كانوا جهاديِّيْن أو مغامرين فقط. وبصراحة لم أسأل. كل ما جال في ذهني أن هؤلاء الرجال يمكن أن يكونوا مثل عمِّي، أو مثلي حتَّى بطريقة ما. هل كنتُ منجذباً لمشاهدة الحرب على الطرف الآخر من العالَم؟

كانت الحرب الأهلية الإسبانية (1936-1939) بين اليسار واليمين أشبه بمغناطيس للمقاتلين الأجانب من جميع الأطراف. وكانت الجماعات الشُّيوعيَّة والأناركية التي حاربت ضدَّ الجنرال فرانشيسكو فرانكو (1892-

1975) المجموعات الأكثر شعبية. أحببتُ فكرة البطولة عندما شاهدتُ فيلم "Land and Freedom - الأرض والحُرِّيَّة(1995)"، من إخراج كين لوش. كنتُ في العشرين من عمري أدرس التاريخ. لا يعني هذا أنني لربَّما كنتُ قد ذهبتُ للقتال في إسبانيامع الأناركيِّيْن ضدَّ الفاشيِّيْن التابعين لفرانكو بالتأكيد، ولكنْ، لمَ لا؟ حتَّى جورج أورويل، صاحب كُتُب "1984" و"مزرعة الحيوان"، ذهب هناك للقتال معهم. ذهب أورويل إلى إسبانيا كصحفي، وبهدف كتابة كتاب عمَّا يحصل. لكنه آمن أيضاً بما كان يفعله. يصف أورويل في كتابه "الحنين إلى كاتالونيا" (1938) وصوله إلى برشلونة، عاصمة الجماعات المناهضة لفرانكو، وفرحة المقاتلين الإسبان والأجانب الذين يتقدَّمون إلى الجبهة.

كان أورويل قد ترك الشرطة الاستعمارية البريطانية في بورما، ليصبح كاتباً. لم يكن ناجحاً جدَّاً، ولم يكن وضعه المالي مستقرَّاً. عاش أورويل في واحدة من أفقر المناطق الصِّناعيَّة في إنجلترا للكتابة عن الظروف المعيشية القاسية للعمَّال، لإنجاز الكتاب الذي كتبه مباشرة قبل رحيله إلى إسبانيا.

لقد حوَّلتْهُ هذه التجربة إلى يساري. هل كان ذاهباً للقتال في إسبانيا بسبب أفكاره، أم بهدف المغامرة، أم ليجد الفرصة لكتابة كتاب مميَّز، ليصبح مشهوراً؟ عاش عمِّي حياة مليئة بظروف مماثلة، فقد كان كاثوليكياً، ويعيش حياة مريحة. كان والده - جَدّ أبي - جزاراً ثريَّاً، حيث سكنت العائلة في واحد من أجمل المنازل في المدينة. ولكنهم فقدوا كل أموالهم بسبب انهيار وول ستريت في 1929، والذي تسبَّب في إفلاس مصرفه. وعلى الرغم من سوء حظِّه، فقد حاول كل ما بوسعه لمنع ابنه من التَّطرُّف والذهاب إلى القتال.

عندما سألتْ صحيفة الواشنطن بوست صديقاً لعبد الحميد عبُّود، الزعيم البلجيكي للإرهابيِّيْن الذين ارتكبوا هجمات باريس في أيَّار/ مايو

2015، عن سبب تطرُّفهم، فأجاب: "إننا نثور ضدَّ هذه الدولة وهذا المجتمع الذي لم يقبلنا كبلجيكيِّيْن أبداً. نثور ضدَّ آبائنا وبلدانهم الأصلية. أنا لا أشعر أنني بلجيكي، ولا أشعر أنني مغربي. أتعامل مع نفسي على أنني مسلم، وهكذا نظر عبد الحميد إلى نفسه".

تشرح هذه الإجابة الرائعة بإيجاز مشكلة الهوية الفرديّة. يشير أمارتيا سين الحائز على جائزة نوبل، في كتابه "الهوية والعنف"إلى الصلة بين الهوية المفردة والسلوك العنيف. تُعدُّ نظريته نظرية بسيطة وحقيقية: لكل إنسان فرد هويات متعدِّدة. يمكن للرجل أن يكون ابناً وأباً وزوجاً ومشجِّعاً لكرة القَدَم، وقارئاً للأدب، ومحافظاً وكاثوليكياً وعاشقاً للنبيذ في الوقت نفسه. لدينا جميعاً هويات متعدِّدة، وتتنامى أهمِّيَّة إحدى هذه الهويات وفقاً للظرف. عندما يكون هذا الرجل على سبيل المثال في بار للنبيذ، تكون هويته كمُحبِّ النبيذ أكثر أهمِّيَّة من هويته المرتبطة بإيمانه الكاثوليكي. وعندما يلعب هذا الرجل نفسه كرة القَدَم مع ابنه، سوف ينسى على الأرجح، ولو للحظات، هويته كقارئ للأدب.

يعني التَّطرُّفُ التركيزَ على هوية واحدة، واستبعاد الهويات المتعدِّدة الأخرى. تتركَّز الهوية الفرديّة على الأفكار الكبرى: الدِّين والقومية والأيديولوجية. ولأكون واضحاً لا بدَّ أن أقول إن كونكَ مسلماً أو وطنياً لا يمثِّل مشكلة بحدِّ ذاته، بل أن تكون لا شيء سوى عبارة عن مسلم أو وطني حصرياً هو المشكلة.

هذا هو التَّعصُّب، والذي يتحوَّل بدوره إلى مصدر العنف. هذا بالضبط ما يصفه صديق عبد الحميد. فنتيجة شعوره بالرفض، رفض بدوره كلاً من المجتمع والأسرة، وعرَّف نفسه حصرياً من خلال معتقداته الدِّينيَّة.

قابل الانثروبولوجي سكوت أتران، زميلي في مركز حلِّ النزاعات المستعصية في جامعة أكسفورد، العديد من مقاتلي الدولة الإسلامية

التي أعلنت عن نفسها في سوريا والعراق. ألقت القوّات الكردية القبض على هؤلاء المقاتلين. عرض عليهم سكوت دائرَتَيْن على ورقة. كُتِبَ في الدائرة الأولى "الإسلام" بينما كُتِبَ في الأخرى، الدائرة الأصغر، "أنا". لم تكن الدائرتان "الإسلام" و"أنا" متماسَّتَيْن في إحدى الأوراق، أمَّا في الثانية، فقد كانتا متداخلَتَيْن، وفي الورقة الثالثة، كانت الدائرة الأصغر "أنا" داخل دائرة "الإسلام". طلب سكوت من المقاتلين أن يحدِّدوا أيَّ ورقة من هذه الأوراق ترمز إلى علاقتهم بالإسلام. أشار جميع الذين قابلهم تقريباً إلى الورقة الثالثة. حتَّى قال أحدهم: "الإسلام هو أنا".

وهذا مثال واضح للهوية الفردية.

لكن التَّعصُّب ليس مشكلة إسلامية، بل عبارة عن ظاهرة لا تتعلَّق بالزمن أو بالجنسية. لطالما تردَّدت عائلتي منذُ الأربعينيات حتَّى اليوم في الحديث عن عمِّي. وعندما سألتُ أحد أكبر أعمامي في العائلة لماذا ذهب جيرمان برأيه للقتال في سبيل ألمانيا النازية؟ همس في أذني:

"إنها المثالية. لقد أراد عمِّي جيرمان الدفاع عن المسيحية ضدَّ الشُّيوعيِّيْن. حاولتْ جَدَّتكَ منعه، ولكنها أخفقت بذلك".

إن إطلاق صفة متعصِّب أو مثالي على شخص ما تعتمد تماماً على وجهة نظركَ. فبرأي عمِّي جيرمان، لم يكن الشُّيوعيُّون مثاليِّيْن، بل عبارة عن متعصِّبين خطيرين. لم تكن قصَّة عمِّي عبارة عن حادث معزول بحدِّ ذاته. يجري التَّعصُّب الكاثوليكي، أو المثالية إذا أردتُم، في عروق عائلتي منذُ الأزل، إنها جزء من حمضي النَّوويِّ أيضاً. فمنذُ العاشرة من عمري أردتُ أن أصبح شخصاً مهمَّاً في تاريخ الكنيسة: مصلح أو أسقف أو مبشِّر في بلد خطير. قرأتُ كل الكُتُب التي وقعت بين يَدَيَّ عن حياة الكَهَنَة المشهورين. كرَّس الأب داميان حياته لمساعدة مرضى الجذام في جزيرة مولوكاي في هاواي، لذلك كان بطلاً في نظري. القدِّيس فرنسيس الذي

تخلّى عن كل شيء نتيجة اعتقاده أن الفقر والزهد يجعل الشخص أقرب إلى الله، كان بطلاً آخر من أبطالي. القدِّيسون أشخاص متطرِّفون، ولهذا أُعجبتُ بهم. كنتُ أكنُّ أيضاً احتراماً كبيراً لعمِّي الأكبر، الذي كان كاهن قريتنا. عندما كنتُ في الخامسة عشرة من عمري، غادر الرعية لبدء جماعته الخاصَّة مع بعض أتباعه، في منطقة قريبة من بروج.

تنظِّم مدينة بروج، مسقط رأسي في الجزء الغربي من بلجيكا، في كل عام ما يُسمَّى بمسيرة الدم المقدَّس. حوالي 3000 شخص يؤدُّون الأحداث التَّاريخيَّة والمستوحاة من الكتاب المقدَّس للاحتفال بحقيقة أن المدينة تمتلك قارورة، يُزعَم أنها تحتوي على الدم المقدَّس للمسيح. كان الكونت تييري الألزاس هو الذي جلب هذه القارورة إلى المدينة بعد الحملة الصَّليبيَّة الثانية في القرن الثاني عشر. منذُ القرن الثالث عشر، كانت بلدتي تحتفل بذكرى الحروب الصَّليبيَّة كل عام. من الواضح أن الصَّليبيِّيْن لا يزالون يُعتبرون أبطالاً. في سنِّ المراهقة، كانت فكرة القتال في سبيل المسيحية ضدَّ الكفار فكرة مثيرة بالنسبة إليَّ. لو كان البابا يوحنَّا بولس الثاني قد أعلن حرباً صليبية، لنقل مثلاً لاستعادة اسطنبول من الأتراك المسلمين، فربَّما كان هناك فرصة كبيرة في أن أنضمَّ لهذه الحملة.

لقد حلَّ الإسلام في الحقيقة في الوقت الحاضر محلَّ الشُّيوعيَّة، بوصفه خطراً متخيَّلاً على أوروبا المسيحية. يتوالد مجدَّداً ذلك الخوف القديم من جحافل المسلمين التي ستَقهر وتُدمِّر الحضارة الأوروبية في العديد من القلوب والعقول. ولا غرابة في هذا أبداً إذا نظرنا إلى دروس التاريخ التي تُدرَّس للطَّلَبَة في معظم أنحاء أوروبا. يتعلَّم الأطفال الأوروبيون في دروس التاريخ للتعليم الأساسي والثانوي، كيف أوقفت تلك الجيوشُ الشجاعةُ الفتحَ الإسلاميَّ لأوروبا المسيحية.

أوقفَهم في البداية تشارلز مارتل، الحاكم الفعلي للفرنجة في فرنسا في

بواتييه، في عام 732م. الإمبراطورية الرُّومانيَّة المقدَّسة أوقفت العثمانيِّيْن مرَّتَيْن في فيينا، مرَّة في 1529م ومرَّة أخرى في 1683م. أمَّا في عام 1492م، دفع الملك الإسباني فرديناند أخيراً جميع المسلمين خارج شبه الجزيرة الإيبيرية بعد 800 عام من الاحتلال.

ذهب النبيل الإنجليزي والشاعر الرُّومانسيُّ اللورد بايرون إلى اليونان في عام 1823م للقتال ضدَّ العثمانيِّيْن. مات بسبب الحمَّى في اليونان في عام 1824م. وحتَّى يومنا هذا لا تزال ساحة معركة اللورد بايرون مَعْلَماً سياحياً، حيث نُحت اسمه في معبد بوسيدون في سونيون بالقرب من أثينا.

أعادت هجمات الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر إحياء هذا الخوف الغربي التَّاريخيِّ من الإسلام. قبل ذلك لم يكن يُحرِّض على الإسلاموفوبيا سوى الأحزاب اليمينية المتطرِّفة. أمَّا بعد الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، فقد أصبحت الإسلاموفوبيا تيَّاراً شائعاً. بعد أن أدركتُ أنني لم أكن أعرف شيئاً عن الإسلام، أخذتُ أقرأ المزيد مركِّزاً على صاحب الإيديولوجية الأساسية للقاعدة، الكاتب المصري سيِّد قطب (1906-1966)، في برنامج مشترك بين جامعات أكسفورد وستانفورد وييل. تقوم نظرية قطب على أن الإسلام يجب أن يعود إلى أيَّام المجد الغابرة، من خلال اتِّباع الشريعة، وتدمير عدوِّه الرئيس: الغرب المتحلِّل والفاسد أخلاقياً.

يمثِّل سيِّد قطب حالة مثيرة للاهتمام فيما يتعلَّق بالتَّطرُّف، وفيما يتعلَّق بشخصيته. وُلد قطب في عام 1906 في قرية في شمال مصر، وأصبح ناقداً أدبياً محترماً في القاهرة. كان هو الشخص الذي اكتشف الكاتب نجيب محفوظ، وروَّج لأعماله، والذي سيفوز بجائزة نوبل للآداب في عام 1988. ذهب للدراسة في الولايات المتَّحدة في عام 1950، في ما يُعرَف اليوم بجامعة شمال كولورادو. بدأ يكره الولايات المتَّحدة، أو ما سمَّاه العالَم الجديد، بسبب "الاختلاط والغباء وقلَّة الحياء". ربَّما وقع

قطب ضحية للعنصرية، بل يقول البعض إن علاقة حُبّ مُخفقة قد أثَّرت عليه أيضاً. مهما كان السبب الحقيقي، فقد توصَّل قطب لقناعة تقول إن كل الشرور جاءت من "الصَّليبيِّيْن" الغربيِّيْن الذين دمَّروا العالَم العربي المتحضِّر للغاية. وكان الحلُّ الذي اقترحه حلاً قاسياً: لا بدَّ أن يعود العالَم العربي إلى صدر الإسلام، قبل أن يُفسدَه الغرب. لا يمكن لهذا المجتمع المثالي أن يتحقَّق إلَّا من خلال الجهاد في جميع أنحاء العالَم، وتدمير الغرب وأتباعه في العالَم العربي، مثل الرئيس المصري جمال عبد الناصر. عندما عاد قطب إلى مصر في عام 1951، وُضِع في السجن، حيث كتب أهمَّ كُتُبه. وشُنق على يَدَي عبد الناصر في عام 1966.

اكتسبت أفكاره، وبسرعة، أرضية واسعة الانتشار. ألهم قطب أيمنَ الظواهري، القائد الحالي لتنظيم القاعدة. وقد كان أخوه محمَّد قطب مدرِّس أسامة بن لادن في المملكة العربية السُّعوديَّة. يمثِّل كتابه "معالم في الطريق" النسخة الإسلامية من كتاب "كفاحي" لأدولف هتلر. يمتلئ كتاب "معالم في الطريق" بالبغض والكراهية، والتحريض على التَّطرُّف والعنف. أكَّدت قراءتي لهذا الكتاب سابقاً تلك الصورة السَّلبيَّة للإسلام. استَلهَمَتِ الهجماتُ الإرهابية هذا الكتابَ، ولم تترك الصور اليومية للعرب الغاضبين على شاشة التلفاز لديَّ أيَّ شكٍّ في أن الإسلام عبارة عن دين خطير وعدواني ومليء بالغضب حقَّاً.

تلاشت هذه الرؤية من ذهني تماماً عندما زرتُ لبنان وسوريا في عام 2009. وكانت التجربة الأكثر حسماً لقناعاتي زيارتي للجامع الأموي الخلَّاب في دمشق، والذي يعود إلى القرن الثامن. الجامع الأموي، الذي كان أصلاً كنيسة مَبنية على بقايا معبد روماني، عبارة عن مكان تاريخي مُهمٍّ للمسلمين السُّنَّة، ويمثِّل، في الوقت نفسه، وجهة للحُجَّاج الشيعة.

يوجد في وسط المسجد ضريح يُزعَم أن فيه رأس يوحنَّا المعمدان.

وفي إحدى الغرف الأصغر هناك مزار أيضاً فيه رأس الحسين بن علي. كان الحسين أوّل الشيعة أو "الأتباع" الذين يعتقدون بأن الخليفة ينبغي أن يكون من سلالة النَّبيِّ محمَّد. هزمَ جيشُ الخليفة السُّنِّيُّ، الذي لا ينتمي إلى عائلة النَّبيِّ، الحسينَ، وقطع رأسه، وجيء بالرأس إلى الخليفة في دمشق عام 692 م. كانت هذه بداية الانقسام بين السُّنَّة والشيعة.

أمَّا أكثر الأشياء إثارة بالنسبة إليَّ، فكانت غياب المسلمين الغاضبين من المشهد. لم يرفع أحد هناك قبضته في وجهي، ولم يصرخ عليَّ أحد بصوت مرتفع. بل على العكس تماماً، كان الناس هناك يأخذون قيلولة في الجامع، وكانت العائلات تتنزَّه في صحن المسجد، والأطفال يتراكضون هنا وهناك. كان هذا المسجد عبارة عن واحة من الهدوء، وبيئة أكثر استرخاء بكثير من أيِّ كنيسة زُرتُها في حياتي. هل كان هناك متعصِّب ما بين المتنزِّهين، أم أنني كنتُ الشخص الوحيد المتحامل حقَّاً؟ لقد صُدمتُ لإدراكي أن قلَّة معرفتي دفعتْني إلى التعميم على جميع أتباع دين ما. في حقيقة الأمر، لم أرَ طيلة رحلاتي إلى لبنان وسوريا، ثمَّ إلى الأردن، أي "عرب غاضبين". إذا كان هناك أيُّ سبب يدعو للغضب، فهو الدِّيكتاتوريَّات التي تركتْهم وبلادهم في حالة من الفقر والظلم والتَّخلُّف.

تسألني إحدى خالاتي في كل عام في عيد رأس السنة عندما تجتمع الأسرة: "لماذا تعيش في بلد إسلامي؟". لا يمكنها أن تستوعب لماذا ذهبتُ للعيش في القاهرة في عام 2011، وبقيتُ هناك. وخالتي مجرَّد شخص من ملايين الأوروبيِّينْ والأميركيِّينْ الذين يظنُّون أن الإسلام ليس مجرَّد دين، بل عبارة عن عدوٍّ فظيع. بعد سبعين عاماً من انضمام عمِّي للنازيِّينْ، عاد التَّعصُّب الدِّينيُّ للظهور في جميع أنحاء العالَم، في أوروبا والولايات المتَّحدة وروسيا والهند، وفي العالَم العربي أيضاً كما هو واضح. تقاتل تلك الجماعات المتعصِّبة بعضها بعضاً، ممَّا يزيد من جاذبية كل منها. أعطت هجمات باريس في تشرين الثاني/ نوفمبر 2015 حزب الجبهة

الوطنية اليميني المتطرِّف وقائدته مارين لوبان دفعة كبيرة في الانتخابات المناطقية بعد شهر واحد.

كان داعش يأمل في أن تنتصر لوبان، ممَّا سيعزِّز دعايته التي تقول بأن أوروبا لا تزال العدوَّ الرئيس المناهض للمسلمين، لذلك لا بدَّ من مهاجمتها. توسَّعت هذه الحلقة المفرغة الخطيرة، لأنها مدفوعة بظاهرة أخرى: النزعة القومية الاستبدادية.

الفصل الثاني
عودة العَلَم

في أيلول/ سبتمبر 2015، بدأت زوجتي التدريس في مدرسة المعهد الكندي الدَّوليَّة في القاهرة في مصر. زار المدرسة في كانون الأوَّل/ ديسمبر من ذلك العام مفتِّش من وزارة التعليم المصرية. قرَّر المفتِّش أن المدرسة سوف تخسر ترخيصها إذا لم يقم الطُّلَّاب بتحية العَلَم وغناء النشيد الوطني المصري كل صباح. وهكذا لم يكن أمام المدرسة، على الرغم من كونها مدرسة كندية، سوى أن تُنظِّم هذه الطقوس اليومية، رغم أنه لا أحد من الطَّلَبَة يحفظ النشيد الوطني المصري. من الواضح أن المفتِّش كان يأمل أن تؤدِّي هذه الطقوس على الأرجح إلى تنامي الكبرياء والفخر المصري.

يمكن لقطعة القماش تلك أن تثير الكثير من المشاعر بالفعل. عندما زرتُ المتحف الوطني للتاريخ الأمريكي في واشنطن العاصمة، وجدتُ نفسي في غرفة، فيها ذلك العَلَم الأمريكي الضخم الذي رُفع في بالتيمور فورت ماكهنري في 14 أيلول/ سبتمبر، عام 1814، احتفالاً بالنصر على الجيش البريطاني خلال حرب عام 1812. ألهم مشهد العَلَم فرانسيس سكوت كي، المحامي الأمريكي الذي يهوى الشِّعْر كتابة أُغنيَّة، أصبحت في نهاية المطاف النشيد الوطني الأمريكي (الراية الموشَّحة بالنجوم The Star-Spangled Banner). لقد فوجئتُ إلى حدٍّ ما لرؤية بعض الناس تتملَّكهم الكثير من العواطف، بمجرَّد التواجد في الغرفة نفسها مع هذا العَلَم، فقد أخذ الكثيرون يغنُّون النشيد الوطني.

لطالما كانت الرايات والشارات الميدانية، والتي تُعدُّ تاريخياً أصل فكرة

العَلَم، تُستعمل كعلامات على ملابس المقاتلين للتمييز بين الصديق والعدوِّ. كان لكل كتيبة شارة وراية ميدانية محدَّدة. وأقدم مثال لهذا النوع من الرايات تمَّ العثور عليه فيما أصبح اليوم إيران. كانت هذه الراية مصنوعة من البرونز، ويعود تاريخها إلى الألفية الثالثة قبل الميلاد. استخدم الرومان البرونز والقماش لتحديد أسماء كتائبهم في الميدان. يعني العَلَم بالعربية "اللواء" والتي تعني أيضاً اللواء كقطعة عسكرية. سَمَّت العديد من الجماعات المتمرِّدة في سوريا نفسها باسم لواء، مثل لواء التوحيد في حلب على سبيل المثال.

ظلَّت الأعلام رمزاً عسكرياً أو بحرياً حتَّى ظهور الدولة الأُمَّة خلال القرنَيْن الثامن عشر والتاسع عشر. أمَّا الأعلام التي سبقت هذه الفترة، مثل أعلام الدنمارك وهولندا، تُعدُّ بمثابة استثناءات وحسب. صُمِّم العَلَمُ الفرنسي المكوَّن من ثلاثة ألوان في عام 1794، بعد عدَّة سنوات من الثورة الفرنسية. اعتُمد عَلَم الولايات المتَّحدة الأمريكية في عام 1777. واعتُمد علم الاتِّحاد البريطاني في عام 1801، باعتباره مزيجاً من أعلام كلٍّ من إنجلترا واسكتلندا وإيرلندا. وقبل هذه الفترة كانت الأعلام تُستخدَم للأغراض البحرية فقط. كانت الأعلام للسفن، ولم تكن تُوضَع على المباني، ولا تُرفَع في المسيرات.

كنتُ معجباً بالأعلام في مراهقتي. علَّقتُ علم مدينتي بروج، ومنطقتي التي تُدعى فلاندرز، على جدران غرفتي. للعَلَم الفلمنديّ نسختان، إحداهما الأسد الأسود بمخالب حمراء على خلفية صفراء. أمَّا الثانية، فأسد أسود بمخالب سوداء على خلفية صفراء. العَلَم بالمخالب الحمراء له ثلاثة ألوان: الأسود والأصفر والأحمر، وهي نفس ألوان العَلَم البلجيكي.

يعني هذا العَلَم الاعتراف بمنطقة فلاندرز كمنطقة داخل مملكة بلجيكا. أمَّا العَلَم بالمخالب السوداء، فيعني العكس تماماً، حيث يمثِّل الطموح في حصول فلاندرز على الاستقلال. يشبه تعليق هذا العَلَم الثاني وضع

أيِّ أمريكي العَلَم الكونفدرالي على باب منزله كرفض للولايات المتَّحدة الأمريكية. أمَّا سبب اختياري تعليق العَلَمَيْن باللَّونَيْن على جدار غرفة نومَي، فهو حكاية جَدِّي الحبيب.

ما زلتُ أذكر صورة جَدِّي الذي يضرب بقبضته على الطاولة، ويعضُّ شفته السُّفلى. كان رجلاً لطيفاً عموماً إلَّا عندما يتحدَّث عن "القضية الفلمنديّة". في نهاية الحرب العالَميَّة الأولى في عام 1918، كان في العشرين من عمره، وقد شهد بأُمِّ عينَيْه الإذلال الذي عانى منه الجنود الذين يتحدَّثون الفلمنديّة على أيدي الضُّبَّاط الذين يتحدَّثون الفرنسية.

منذُ تأسيس الدولة البلجيكية الوطنية في عام 1830 حتَّى الحرب العالَميَّة الأولى، كانت الفرنسية هي اللغة الرَّسميَّة الوحيدة للبلاد. اللغة الفرنسية كانت لغة الحكومة والمحاكم والتعليم العالي والجيش. أمَّا الطبقات الدنيا من فلاندرز، الجزء الشَّماليِّ من بلجيكا، لم يكونوا يتحدَّثون الفرنسية. مثَّلت هذه المسألة مشكلة في الاتِّصالات الرَّسميَّة مع المؤسَّسات الرَّسميَّة. وفي أثناء الحرب في الخنادق، مثَّلت هذه المشكلة معضلة حقيقية قاتلة، لأن الجنود لم يفهموا في كثير من الأحيان أوامر الضُّبَّاط الناطقين بالفرنسية. من الواضح أن هذا قد سبَّب الكثير من مشاعر الغضب، وأدَّى بدوره إلى أوَّل حركة جماهيرية بعد الحرب مناهضة لبلجيكا. لم يكن جَدِّي يقاتل في الخنادق، ولكنه شارك هؤلاء الجنود غضبهم وتجاربهم المؤلمة. ومنذ ذلك الحين، أصبح هدف حياته الأوحد التَّخلُّص من هذه السيطرة الفرنكوفونية على بلجيكا، وتأسيس دولة فلاندرز المستقلَّة.

كان جَدِّي الأكبر بمثابة البطل بالنسبة إليَّ، وكنتُ فخوراً بأن اسمي الأوسط هو اسمه. جَدِّي كان كاتباً ومثقّفاً، لديه مكتبة مليئة بالكُتُب بأربع لغات. وأفضل الكُتَّاب في البلاد كانوا أصدقاءه. تضمَّنت بعض الكُتُب

التي كتبها مقدّمات، كتبها أحد هؤلاء الكُتَّاب الكبار. حُكم عليه وعلى أصدقائه بالسجن لسنوات عديدة بعد الحرب العالَميَّة الثانية، وذلك لأسباب صدمتْني حقَّاً. أمضى جَدِّي الأكبر أربع سنوات في السجن، وفَقَدَ حقوقه المدنية.

أعطاني جَدِّي في أحد الأيَّام سواراً صنعه لنفسه في أثناء وجوده في السجن. وضع على هذا السوار جميع التواريخ التي غيَّر فيها سجنه. كنتُ في الثانية عشرة من عمري، وشعرتُ بفخر كبير. ورث والدي المكتبة عندما توفيِّ جَدِّي بعد أربع سنوات، وأخذتُ أقرأ بعدها معظم كُتُبه. ولكن الأهمَّ أنني قد قرأتُ مذكّراته في السجن. كانت عبارة عن كتاب في 600 صفحة، يصف فيها اعتقاله، وكيف كان عليه أن يخلِّف عائلته الحبيبة وراءه. كتب عن الوقت الذي قضاه في السجن في بروج، وكيف أسَّس هناك في السجن مسرحاً مضادَّاً للبلجيكيِّيْن، وكتب عن نقله إلى سجن بروكسل، وكيف سمع بعض أصدقائه ورفاقه يُعدَمون على أيدي فِرَق الإعدام بالرصاص من زنزانته. فتنتْني هذه المذكّرات، وكانت نتيجتها ولادة فلمنكي قومي جديد.

وبينما كنتُ لا أزال في السادسة عشرة من عمري، وجدتُ نسخة من كتاب "كفاحي" في مكتبته مخبَّأ وراء كُتُب أخرى. وبفضل فضولي الشديد، لم أكن لأُفوِّت فرصة قراءة هذا الكتاب. قرَّرتُ التَّوقُّف عن القراءة بعد النصف الأوَّل من الكتاب، فقد كان كتاباً مليئاً بالأكاذيب والكراهية. لم أرغب في إكماله، إذ لم أكن أرغب بالمزيد من الكراهية. قرأتُ ما يكفي من كُتُب التاريخ، لذلك اقتصرتُ على تعليق الأعلام الفلمنديّة في غرفتي، وحفظ الأغاني القومية، والتفكير في الانضمام إلى الحزب القومي الفلمنديّ.

وفي يوم صيفي ماطر من عام 1994، انهارت صورة البطل في ذهني عندما وجدتُ علبة فيها صور قديمة للعائلة، صور عطلة حميمية لجَدِّي

في أثناء قضائهم عطلة في النمسا وإيطاليا. أمَّا آخر صورة في العلبة، فقد شكَّلت صدمة شديدة لي. كان جَدِّي يرتدي الزِّيَّ العسكري النَّازيَّ، ويؤدِّي التحية لهتلر. هل كان بطلي نازياً؟ غمرتْني الدهشة. لم يكن مجرَّد شابٍّ غرير وساذج مثل عمِّي. لقد التُقطت هذه الصورة عندما كان في الأربعين من عمره. لقد كان مثقّفاً لامعاً ومدرِكاً تماماً لما يفعله. لم يكن الوحيد بالطبع، فقد اعتقد الكثير من الفلمنديِّيْن أنهم عبارة عن إخوة للشعب الألماني، وأن ألمانيا النَّازيَّة ستُحقِّق حلمهم: فلاندرز مستقلَّة عن بلجيكا. كان عليهم الانتظار، ليكتشفوا لاحقاً أن هذا لم يكن في بال الألمان على الإطلاق. قفزتْ إلى ذهني على الفور الكثير من الأسئلة الأخرى. هل عرف جَدِّي بشأن المحرقة؟ هل كان يدرك أن اليهود يُوضَعون في قطار إلى أوشفيتز في مدينة ميكلين؟ لا أعلم، وربَّما لن أعلم أبداً. لم أسمعْهُ يوماً يقول أيَّ كلام عنصري على الإطلاق، ولم يكتب أيَّ شيء معاد للسَّاميَّة. لكنه كان ذكياً بما فيه الكفاية لفَهْم آثار خطاب هتلر. وكان من الواضح أنه قرأ كتاب "كفاحي"، لأنه كان في مكتبته. لا أعرف ما لديه ليقوله حول معتقداته السِّياسيَّة، ولكنه، بلا أيِّ شكٍّ، كان غير ديمقراطي، بل وقومي استبدادي.

في ذلك المساء عندما اكتشفتُ كل هذا، أنزلتُ العَلَمَ الفلمنديّ ذا اللَّونَيْن عن حائطي. وتوقَّفتُ عن عادة غناء الأغاني القومية في الحمَّام. أخذتُ في تفكيك السَّرديَّة القومية التي كنتُ مؤمناً بها. كانت هذه عملية بطيئة، استغرقت الكثير من الوقت، لأن القناعة القومية كانت تمثِّل جزءاً كبيراً للغاية منِّي. لقد عشقتُ حقَّاً تلك الأعلام والأغاني والقصص، ولكنْ، كان لزاماً عليَّ التَّخلِّي عن كل هذا، ليس بسبب تلك الصورة النَّازيَّة وحسب، بل لأنني أدركتُ أن القومية هي عبارة عن بناء شاهق قائم على الأساطير. إضافة إلى أن هذه القومية يمكن أن تتحوَّل بسهولة إلى قومية استبدادية. القومية عبارة عن طريقة تفكير، تستثني الآخرين، وتستبعدهم بناء على هويتهم، وعلى المكان الذي جاؤوا منه.

يُمثِّل كلٌّ من التَّعصُّب الدِّينيِّ والقومية الاستبدادية دعائم ما أسماه العالِم والفيلسوف كارل بوبر باسم المجتمع القَبَلِيِّ المغلق. كان المجتمع المفتوح هو ردَّ بوبر على الشُّيوعيَّة والفاشية، الإيديولوجيتان اللتان سادتا في عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضي، وأدَّتا إلى أشدِّ الحروب تدميراً في التاريخ. لم يكن تفكيري القَبَلِيُّ ضارَّاً إلى حدٍّ كبير، حيث حدث في وقت كان يتعارض فيه مع ورح العصر السائدة. في نهاية الثَّمانينيَّات من القرن الماضي كانت العَولَمَة في أبهى مراحل انتصارها: سقط جدار برلين، وانهار الاتِّحاد السُّوفيتيُّ، وأُعلنت نهاية التاريخ.

الشيء الجيِّد والإيجابي في تاريخي الشَّخصيِّ مع التَّعصُّب الدِّينيِّ والقومية الاستبدادية هو حساسيَّتي تجاهها. لقد تخلَّيتُ تماماً عن كل الأيديولوجيات القَبَلِيَّة، وقد استغرق الأمر منِّي وقتاً طويلاً. لكنني ألاحظ اليوم عودة قوية وخطيرة لهذه الأيديولوجيات. إن عودة ظهور الأيديولوجيات القَبَلِيَّة للمجتمع المغلَق هي ما أُسمِّيه القَبْلَنَة.

ليس هناك أيُّ حرج على الإطلاق في حُبِّ بلدكَ أو مدينتكَ، فحُبُّ الوطن غالباً ما يُعدُّ شيئاً جيِّداً. أحاول دائماً بفضل تعليمي، الذي يستند على اللغة اللَّاتينيَّة واليونانية، فَهْمَ أصل الكلمات. قد لا نصل إلى شيء غالباً من هذا، ولكنه قد يساعدنا في استيعاب الفرق بين الوطنية والقومية. جاءت كلمة الوطنية من الكلمة اليونانية "patriotes" أو "أبناء البلد" وهم الأشخاص الذين لديهم نفس الـ "patris" أو الوطن الأب، أو "pater". لم يَستخدم اليونانيون القدماء كلمة "patris" للدلالة على أنفسهم، حيث كان لديهم "polis" يعيشون فيها كمواطنين أحراراً، بل استخدموها للإشارة إلى غير اليونانيِّيْن، أو ما يُطلقون عليهم البرابرة، لأنهم يعتقدون أن الـ "patriotes" يتشاركون البلد الذي جاء منه آباؤهم وحسب. وحتَّى يومنا هذا، لا تزال كلمة الوطنية تُعدُّ كلمة محايدة نسبياً، وتعني "علاقة عاطفية مع بلد المرء".

للقومية جذور مختلفة. جاءت كلمة أُمَّة من الكلمة اللَّاتينيَّة natio التي يعود جذرها إلى الجذر "nat-" أو الولادة. الكلمة "Natal" لها نفس الأصل. لذلك فإن الكلمة اللَّاتينيَّة "natio" لا تعني الأرض، بل الناس والطبقة والقبيلة. المكافِئ اليوناني لها هو "العِرْق ethnos" الذي تُشتَقُّ منه كلمات المجموعة العِرْقِيَّة والعِرْق. لا تدور كلمة العِرْق حول الأرض. فلا يمكنكَ الانضمام مثلاً إلى مجموعة عِرْقِيَّة، بل تُولَد منتمياً إليها. لهذا السبب تبقى الوطنية عبارة عن مفهوم مفتوح، في الوقت الذي تبقى فيه القومية مفهوماً مغلَقاً. يعتمد المجتمع الأمريكي على مفهوم الأرض والوطنية، بينما تعتمد معظم المجتمعات الأوروبية على مفهوم الولادة والقومية. إذا وُلدتَ على أراضي الولايات المتَّحدة، فستُولَد مواطناً أمريكياً. في أوروبا القارِّيَّة، يحتفظ المولود الجديد بجنسيّة والدَيْه. ولهذا السبب يُعدُّ دمج المهاجرين في أوروبا القارِّيَّة عملية أكثر تعقيداً ممَّا هي عليه في العالَم الأنجلو - سكسوني.

صديقي العزيز جياني إيطالي، ولكنه وُلد في بلجيكا، وعاش حياته هناك، ودرس في إحدى الجامعات البلجيكية، ويعزف اليوم الغيتار في ثلاث فِرَق بلجيكية. ولكنه لا يتمتَّع بالجنسية البلجيكية. لا يُسمَح له بالتصويت في انتخابات المجلس الوطني. قرَّر في عيد ميلاده الأربعين التَّقدُّم بطلب للحصول على الجنسية البلجيكية. سألتُهُ عن السبب وراء ذلك، سيَّما وأنه ليس هناك أيُّ أهمِّيَّة للجنسية مع سياسة حُرِّيَّة الحركة والحدود المفتوحة الأوروبية. فاجأني جوابه: إن صعود القومية الذي يهدِّد الاتِّحاد الأوروبي قد يؤدِّي إلى نهاية هذا الاتِّحاد، ممَّا سيؤدِّي بالتالي إلى نهاية سياسة حُرِّيَّة الحركة تلك. وإذا حدث هذا، فإن العيش في بلجيكا كمواطن إيطالي سيصبح أكثر صعوبة. لذلك تقدَّم جياني بطلب للحصول على الجنسية البلجيكية، لأنه لا يريد أن يتمَّ ترحيله قسرياً في المستقبل.

لطالما تمتَّع الفنَّانون بقدرة كبيرة على استشراف المستقبل، ولكن

أغلبهم لم يكونوا دقيقين في توقُّعاتهم، كما فعل أورويل في كتابه "1984". يعرف صديقي الإيطالي أنه لن يكون جزءاً من القبيلة، ولكنه يريد الاقتراب قدر الإمكان منها، لتجنُّب احتمال أن تنقلب القبيلة نفسها ضدَّه، وليست هذه مجرَّد فكرة خيالية بالطبع. أجرى البرلمان الهولندي مناقشات بشأن استبعاد أعضاء البرلمان الذين يحملون جنسية مزدوجة، مستندين على الحُجَّة القائلة إن هؤلاء الأعضاء ربَّما لا يدينون بالولاء للأُمَّة الهولندية. يمثِّل هذا علامة واضحة على أن المجتمع أصبح أكثر انغلاقاً.

وبعد خمسة أشهر من مخاوف صديقي هذه، حدث ما لم نكن نتخيَّله. صوَّتت أغلبية الشعب البريطاني في "استفتاء خروج بريطانيا من الاتِّحاد الأوروبي" في حزيران/ يونيو 2016 لمغادرة الاتِّحاد الأوروبي. كان الموضوع الأساسي الذي استندت عليه حملة الخروج من الاتِّحاد الأوروبي هو موضوع الهجرة، حيث قال بعض النشطاء إنه لا بدَّ أن تستعيد بريطانيا السيطرة على حدودها. حصلت بعد التصويت العديد من الحوادث التي صرخ فيها بريطانيون بيض على أشخاص ملوَّنين في الشوارع أو الباصات أو في مترو الأنفاق قائلين: "عودوا إلى بلادكم".

كتب لي صديق بريطاني بمرارة: "إن خروج بريطانيا من الاتِّحاد الأوروبي يمثِّل كارثة حقيقية بالنسبة إليَّ. زوجتي البولندية، داغمارا، لديها طفل من زواج سابق، يعيش في بولندا مع والده. عاجلاً أم آجلاً سيأتي إلى المملكة المتَّحدة، ولكنه اليوم سيصبح مجرَّد سائح!".

تزايدت الأعلام الرَّمزيَّة في عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضي، وقد كان العَلَمَان الأكثر شهرة هما العَلَمَ الشُّيوعيَّ الأحمرَ، وعليه مطرقة ومنجل باللون الأصفر، والعَلَمَ النَّازيَّ الأحمر، وعليه الصليب الأسود المعقوف داخل دائرة بيضاء. لم يكن العَلَمُ الشُّيوعيُّ العَلَمَ الوطني للاتِّحاد السُّوفيتيِّ وحسب، بل كان ولا يزال رمزاً للإيديولوجية.

رُفع هـذا العَلَم في الكثير من الغرف التي تعجُّ بدخان سجائر أولئك الأشخاص الذين آمنوا بأفكار كارل ماركس في جميع أنحاء العالَم، من فلاديفوستوك إلى سانتياغو. ولا يزال هناك حتَّى اليوم، بعد أكثر من ربع قرن على انهيار الاتِّحاد السُّوفيتيّ، مَنْ يحنُّ إلى هـذا العَلَم الشُّيوعيِّ. لا يزال هناك في روسيا مَنْ يُلوِّح بالعَلَم الأحمر، ويحمل صور لينين وستالين في المسيرات. لا يزال العَلَمُ الأحمر هـو العَلَمَ الوطنيَّ للصين، ولو كان يحمل نجمة بدلاً من المطرقة والمنجل.

حمل العَلَمُ النَّازيُّ مضامين أعمق من مجرَّد كونه عَلَماً وطنياً مؤقَّتاً لألمانيا. كان هـذا العَلَمُ ولا يزال أكثر من مجرَّد شعار "أُمَّة ألمانية واحـدة، ذات قيادة واحـدة". لا يزال هـذا العَلَمُ حتَّى اليوم يرمز للتَّفوُّق العنصري للعِرْق الأبيض.

لا تزال هناك تجمُّعات للنَّازيِّيْن الجدد في جميع أنحاء أوروبا والولايات المتَّحدة. نشأ جزء من حركة حليقي الرؤوس أولئك في لندن في السِّتِّينيَّات، ثمَّ انتشرت بسرعة في جميع أنحاء أوروبا وأمريكا الشَّماليَّة، ولاحقاً روسيا، لتتحوَّل في ثمانينيات القرن الماضي إلى الحركة النَّازيَّة الجديدة. كان من السهل التَّعرُّف على هؤلاء البيض حليقي الرؤوس مَن مظهرهم، وأحذيتهم العسكرية ووشوم الصلبان المعقوفة على أجسادهم، حيث كان كل هذا يدلُّ على ارتباط واضح بمجموعات تَفوُّق العِرْق الأبيض العنصرية مثل الدم والشرف أو Ku Klux Klan. لطالما شكَّل هؤلاء النواة الصلبة للقائمين بأعمال الشغب في الملاعب، ولطالما مارس هؤلاء على العنف وتشكيل عصابات لقتل الملوَّنين. انتشر أحد أساليبهم في القتل، والذي يقوم على تهشيم رأس الضحية بأحذيتهم على الرصيف. وأحـدث ضحايا حليقي الرؤوس هؤلاء كان كليمنت ميريك، الشَّابَّ اليساري الذي كان في الثامنة عشرة من عمره، والـذي تعرَّض للضرب حتَّى الموت في وسط باريس في حزيران/ يونيو 2013.

نشأ نزاع آخر على العَلَم في الولايات المتَّحدة. في 10 تمّوز/ يوليو 2015، قرَّرت حكومة ولاية ساوث كارولينا إنزال العَلَم الكونفدرالي من على سطح مكتب الولاية، بعد تعرُّض تسعة أشخاص سود للقتل رمياً بالرصاص في إحدى كنائسها. كان هذا العَلَم واحداً من الأعلام الثلاثة للولايات الكونفدرالية الأمريكية، المعروفة أكثر باسم الكونفدرالية، خلال الحرب الأهلية الأمريكية (1861-1865). عندما انتُخب أبراهام لينكولن في عام 1860 بناء على برنامج سياسي معارض لتوسُّع العبودية، أعلنت إحدى عشرة ولاية انفصالها عن الولايات المتَّحدة. وعلى الرغم من هزيمة الكونفدرالية عام 1865، لم يختفِ العَلَم الكونفدرالي بعد. لاحظ العديد من الأمريكيِّيْن لاحقاً، بعد الحوادث التي وقعت في ساوث كارولينا في عام 2015، أن عَلَمَ الكونفدرالية لا يرفرف على بوَّابات أو أسطح الأبنية الرَّسميَّة والنُّصُب التَّذكاريَّة والجامعات والمدارس.

ربَّما يُمثِّل عَلَم الكونفدرالية لبعض مواطني الولايات الجنوبية رمزاً للمقاومة ضدَّ الحكومة المركزية في العاصمة واشنطن، ولكنه لا يعني كما هو واضح بالنسبة إلى معظم المواطنين الأمريكيِّيْن غير البيض سوى العنصرية وتفوُّق العِرْق الأبيض. لم تكن مجرَّد مصادفة أن تضع فرقة Lynyrd Skynyrd في إحدى حفلاتها في الولايات المتَّحدة الأمريكية وهي تؤدِّي أُغنيَّة Sweet Home Alabama عَلَم الكونفدرالية في خلفية المسرح، حيث كانت أغلبية الجمهور تقريباً من البيض. ما يثير القلق أنه ومنذ أن قرَّرت ولاية ساوث كارولينا إنزال عَلَم الكونفدرالية بسبب طبيعته العدائية، أخذت المزيد من المجموعات مثل Virginia Falggers أو Carolina Flaggers ومؤسَّسات مثل ستانفورد كونتي في ولاية فرجينيا الشَّماليَّة برفع هذا العَلَم عمداً.

لا يستغرب أحد ربمَّا رؤية عَلَم الكونفدرالية هذا هنا وهناك خلال المسيرات الانتخابية لمرشَّح الرئاسة آنذاك دونالد ترمب. رغم أن ترامب

قال إنه يوافق على قرار حاكم ولاية كارولينا الجنوبية بإزالة العَلَم، ولكن العديد من أنصاره واصلوا ربط العَلَم بترشيح ترامب. قال أحد المؤيِّدين لصحيفة بوليتيكو الإلكترونية: "سوف أُصوِّت لصالحه رغم ذلك [رغم تصريحه حول العَلَم]. [...] أمَّا السبب في تصويتي لترامب، فهو على الأرجح نفس السبب الذي يدفع الكثيرين في البلاد للتصويت لصالحه: لقد سئم الجميع مِن الصواب السِّياسيِّ. إننا نهتمُّ كثيراً بشأن تأذِّي مشاعر الأقلِّيَّات، سواء من مسألة العَلَم، أو بشأن الحمَّامات الخاصَّة بالمتحوِّلين جنسياً وكل هذه الأمور. ربمَّا ينبغي على الأقلِّيَّة أحياناً أن تفهم أن مشاعرها قد تتأذَّى، وأن الغلبة دائماً للأكثرية".

عادت الأعلام عودة ملحوظة في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا أيضاً. كان العَلَم الأكثر شعبية حتَّى الماضي القريب هو عَلَم فلسطين، كونه يرمز لنضال العرب ضدَّ الاحتلال الإسرائيلي للأرض الفلسطينية. فوجئتُ رغم ذلك برؤية البعض في المظاهرات والاحتفالات في القاهرة وفي مُدُن أخرى في العالَم العربي يحملون عَلَم المملكة العربية السُّعوديَّة. وعندما سألتُ عن سبب حملهم لعَلَم بلد أجنبي، قيل لي إنه يمثِّل بالنسبة إليهم رمزاً للدِّين الإسلامي. العَلَم أخضر، وهو اللون المفضَّل في الإسلام، إذ كان اللون المفضَّل للنَّبيِّ، وتلخِّص الكلمات العربية المكتوبة عليه العقيدة الإسلامية: "لا إله إلَّا الله، محمَّد رسول الله".

أمَّا العَلَم الأكثر تطرُّفاً، فهو العَلَم الأسود للدولة الإسلامية، إذ ينشر هذا العَلَمُ الخوفَ والذعر في جميع أنحاء العالَم.

الكلام المكتوب على العَلَمَيْن هو نفسه، ولكن اللون الأسود هو الذي يمثِّل الفارق. ورد في الحديث أن الرسول قال إنه قبل ظهور خليفته المهدي، ستظهر الرايات السود للجيش الذي يحارب المسيح الدَّجَّال. يأتي هذا الجيش من خراسان، وهي منطقة تاريخية في شَمال

إيران وأفغانستان. ربَّما قد يبدو هذا بالنسبة إلى غير المسلمين أشبه بمزحة، ولكنْ، هذه هي النسخة الإسلامية لنهاية العالَم. الإيديولوجيون الذين ينظِّرون للدولة الإسلامية في العراق والشام التي أعلنت عن نفسها مقتنعون بأنهم يسرِّعون الخطى باتِّجاه آخر الزمان، حيث سيعود المهدي، بمساعدة السَّيِّد المسيح، وبعدما سوف يأتي يوم القيامة.

ولتحقيق هذا السيناريو، فإنهم يرغبون بملء العالَم بالحروب، حيث ينبغي لجميع المسلمين السُّنَّة في جميع أنحاء العالَم اختيار الطرف الذي سيقفون بجانبه. تحوَّلَ ما بدأ كحملة انتحارية لإنهاء الاحتلال الأمريكي في العراق اليوم، إلى مهمَّة قائمة على الجهاد العالَمي ضدَّ الشيعة، وضدَّ الغرب (ما يُطلق عليه الروم) وضدَّ كل "السُّنَّة الخَوَنَة". يرى داعش أن إنشاء الخلافة الجديدة بمثابة الخطوة الأولى وحسب، أمَّا الخطوة الثانية، فهي الاستيلاء على بغداد ودمشق ومكة المكرَّمة والمدينة المنوَّرة. حالما يحدث هذا سوف يعود المهدي، ويقود معركتهم ضدَّ إيران (بلاد فارس). وعند هزيمة الشيعة، سيتوجَّهون إلى إسطنبول، ثمَّ الأندلس (إسبانيا)، وأخيراً إلى روما. سوف يؤدِّي كل هذا، في النهاية، إلى الملحمة الكبرى، أو هرمجدون، من خلال المعركة الأخيرة في دابق (شَمال سوريا). بمجرَّد أن يُهزَم "الروم"، ستأتي نهاية الزمان، ويأخذ اللهُ جميع المسلمين السُّنَّة الطَّيِّبين إلى الجنَّة، ويُدمِّر الآخرين جميعهم. لذلك فإن اللون الأسود يحمل رمزية كبيرة لدى داعش. عادت الأعلام الوطنية أيضاً في أجزاء أخرى من العالَم العربي. خلال ثورات 2011 كان الناس يتظاهرون في تونس، وكذلك في كل من مصر والبحرَيْن وليبيا والأردن وسوريا حاملين أعلامهم الوطنية. وكما حصل مع العَلَم الفرنسي بعد 1794، أصبحت الأعلام رمز الحُرِّيَّة والدِّيمقراطيَّة والعدالة الاجتماعية. كان الباعة المتجوِّلون في مصر يبيعون الأعلام في الطُّرُقات، كما علَّق الناس أعلاماً على منازلهم كدليل على دعمهم للثورة، وأيضاً كوسيلة لحماية منازلهم من التَّعرُّض للهجوم من قبَل

"الثُّوَّار" العنيفين، الذين ينتقمون ممَّنْ كانوا جزءاً من نظام حسني مبارك، الديكتاتور المصري الذي أُطيح به في عام 2011. عندما رأى صاحب منزلي العَلَم المصري في حديقتي، نظر إليَّ نظرة يشوبها الحذر، وسألني إذا ما كنتُ أعتقد حقّاً أن الثورة شيء جيِّد.

عندما أطاح الجنرال عبد الفتَّاح السيسي بالرئيس محمَّد مرسي في تمُّوز/ يوليو 2013، فَقَدَ العَلَم الوطني المصري شيئاً فشيئاً رمزيّته الثَّوريَّة، وأصبح علامة على الوطنية، بل وحتَّى الدِّيكتاتوريَّة. أخذت تظهر أعلام ضخمة على أعمدة عالية جدَّاً في الدوارات في جميع أنحاء القاهرة. حدث الشيء نفسه في تركيا. وقد رأيتُ هذا بأُمِّ عيني من قبلُ في سوريا والأردن. رفرفَ عَلَمٌ أردنيٌ ضخم فوق البحر الأحمر في مدينة العقبة الأردنية السَّاحليَّة. لم يكن هناك شيء في الأعلى سوى الكاميرات المطلَّة على الحدود مع إسرائيل وشبه جزيرة سيناء على الجانب الآخر من الخليج. أشار هذا العَلَم الوطني إلى معنى مختلف تماماً: دولة قوية، يقودها زعيم قوي، يعتني بشعبها، ويراقب أعداءها المحتملين.

منذُ الحرب العالَميَّة الثانية، أصبحت ألمانيا حسَّاسة للغاية حول الرموز الوطنية. بعد سبعين سنة فقط من انتهاء الحرب، شجَّعت المستشارة الألمانية أنجيلا ميركل الشعب الألماني على تعليق الأعلام الألمانية خارج منازلهم خلال كأس العالَم لكرة القَدَم في عام 2006. كانت هذه لحظة مؤثِّرة لكثير من الألمان، بل حتَّى بالنسبة إلى العديد من الأوروبيِّيْن، تشير هذه اللحظة إلى أنه يمكن اليوم إغلاق ذلك الفصل من الشعور بالذنب، وإلى أنه لم يعد هناك خطر ألماني. بعد بضع سنوات فقط، في عام 2014، استُخدم العَلَم الألماني مجدَّداً باعتباره رمزاً ضدَّ الأجانب. تأسَّست حركة جديدة في مدينة دريسدن الألمانية، حركة PEGIDA أو (الأوروبيِّيْن الوطنيِّيْن ضدَّ أسلمة الغرب). تغصُّ مظاهرات PEGIDA بالأعلام الألمانية.

وسرعان ما سارت مُدُن ألمانية أخرى على خطى حركة PEGIDA. واكتسبت تلك الحركة بُعداً دولياً أيضاً. كانت الأحزاب اليمينية المتطرِّفة سعيدة باستعمال علامة PEGIDA لتنظيم مظاهرات معادية للإسلام في النرويج والدنمارك والسويد وبلجيكا والمملكة المتَّحدة وإسبانيا والولايات المتَّحدة، بل وحتَّى في كندا. لم تكن جميع هذه المظاهرات ناجحة. في مونتريال ظهر في المظاهرة 15 شخصاً فقط. ولكنْ، مع ذلك لا ينبغي للمرء التقليل من أثر هذه الحركة. كلَّما زاد عدد اللاَّجئين الآتين إلى أوروبا وأمريكا الشَّماليَّة، شعر الناس بالمزيد من التهديد تجاه عقليتهم القَبَلِيَّة. كلَّما أخطأ لاجئ ما، ادَّعى أعضاء PEGIDA أنهم على حقٍّ، واجتذبوا المزيد من الناس إلى الحركة.

يتكوَّن بيان حركة PEGIDA الذي كتبه مؤسِّسوها، من عشرة مطالب. أوَّلاً، الدعوة إلى "الإيقاف الفوري لتدفُّق طالبي اللجوء". ثانياً، السيطرة الصارمة على الحدود والتعليق الفوري لاتِّفاقية شنغن، الاتِّفاقية الأوروبية التي تنصُّ على حُرِّيَّة حركة الناس والبضائع ورأس المال. النقطة العاشرة والأخيرة تتخطَّى كل الحدود قائلة: "علينا جميعاً أن نتخلَّى عن هذا النوع من البلطجة، الاتِّحاد الأوروبي عديم الفائدة". حتَّى إنهم اقتبسوا كلام "الرئيسة الفرنسية المستقبلية" مارين لوبان، والتي تطمح إلى "تدمير هذا الاتِّحاد الأوروبي". تختتم حركة PEGIDA نقاطها العشرة قائلة: "نرحِّب باللاَّجئين المسيحيِّيْن، وخاصَّة أولئك الذين تعرَّضوا للقمع من قبَل الإسلاميِّيْن القَتَلَة، ونقدِّم لهم المأوى والغذاء والدعم الذي يحتاجونه، لأن هذه هي السمة الألمانية الطَّبيعيَّة" في حين أن" جميع اللاَّجئين الآخرين ينبغي أن يبقوا في الخارج".

تُطلق حركة PEGIDA على نفسها اسم الحركة "الوطنية"، ولكن برنامجها قومي بحت. تتعلَّق هذه الحركة بـ "وطنهم"، حيث يقتحم قبيلتهم اللاَّجئون الذين يدينون بدين مختلف. يمثِّل هذا الخطاب القَبَلِيُّ العنصري

موضوعاً متجدَداً في أوروبا. أمَّا الجديد في هذا الخطاب، هو معارضته للاتِّحاد الأوروبي. ألغت اتِّفاقية شنغن جميع الضوابط الحدودية بين الدول الأعضاء في عام 1995. وتمثِّل هذه الاتِّفاقية مع اليورو، الإنجاز الملموس والأكثر وضوحاً عن التكامل الأوروبي.

أصبحت الطوابير الطويلة لعبور الحدود الوطنية داخل الاتِّحاد الأوروبي من الماضي. لم ينفِّذ الاتِّحاد الأوروبي اتِّفاقية شنغن ببساطة لجعل حياة السّيّاح أسهل، بل لأن الشنغن قبل كل شيء عبارة عن اتِّفاقية اقتصادية، تُشكِّل سوقاً أوروبية واحدة بدلاً من 26 سوق فردي، تماماً مثل الولايات المتَّحدة، فالولايات فيها لا تمثِّل 50 سوقاً مختلفة، بل سوقاً واحدة.

يشكِّل السوق الموحَّد بلا أيِّ حدود أداة أساسية في ظلِّ الاقتصاد المعولم. سوف يمثِّل تعليق الشنغن خطوة إلى الوراء لأوروبا ولجميع شركائها التِّجاريِّيْن. وسوف يجعل هذا العَولَمَة تتقهقر في الاتِّجاه المعاكس.

لم يكن أحد يعتقد حتَّى بضع سنوات مضت أن هذا ممكن أن يحدث يوماً. تتعرَّض العَولَمَةُ اليوم للهجوم، ولم تعد أمراً يقينياً مفروغاً منه على الإطلاق.

الفصل الثالث
نهاية العَولَمَة

في كل مرَّة أعود إلى أوروبا لقضاء العطلة الصَّيفيَّة، يُخبرني الأصدقاء أنهم يعانون من الاكتئاب والإرهاق وأزمة منتصف العمر أو يعانون أزمات وجودية حتَّى. يا له من أمر محبط حقَّاً رؤية اضطرار هؤلاء الأصدقاء للتَّوقُّف عن العمل، والجلوس في المنزل دون الاستمتاع بوقتهم! قضى بعضهم عدَّة أيَّام متتالية في السرير، يعانون الاكتئاب الشديد الذي يمنعهم من ارتداء ملابسهم حتَّى. عندما يجدون الشجاعة لمغادرة غرفة النوم، نادراً ما كانوا يتجاوزون المطبخ أو غرفة المعيشة، كما لو أن العالَم خارج المنزل عبارة عن عبء ثقيل للغاية لا يمكن تحمُّله. يكون في بعض الأيَّام لساعات دون معرفة السبب. يستغرق بعضهم شهوراً، إن لم يكن سنوات، للتعافي من أزمتهم واستعادة حيواتهم وهممهم التي اعتادوا عليها.

من الطَّبيعيِّ أن يكون لديكَ صديق يعاني أزمة ما، ولكن الغريب أن يكون عدد هؤلاء الأصدقاء كبيراً. اعتقدتُ في البداية أن الأمر يتعلَّق بالعمر، على فرض أن بلوغ سنِّ الأربعين يعني مواجهة أزمة منتصف العمر التي تجعل الناس يعيدون النظر فيما ينبغي عليهم القيام به في حيواتهم. لكنني أدركتُ أن أصدقائي المصابين بالاكتئاب من جميع الأعمار. أصبح الاكتئاب بالنسبة إلى البعض حالة مزمنة، أمَّا البعض الآخر، فقد كان يصيبهم فجأة. أخبرتْني مراسلة تلفزيونية ناجحة للغاية كيف صمَّ أُذنَيْها فجأة صوتٌ مرتفعٌ للغاية. كانت تقوم بعملٍ مُهمٍّ، تغطِّي واحدة من أبرز الأحداث السِّياسيَّة في ذلك العام. كان الصوت عالياً لدرجة أفقدتْها قدرتها على التركيز.

شعرتْ بالدّوار، وطلبت من رؤسائها السماح لها بالعودة إلى المنزل. بعد وصولها إلى المنزل، شعرتْ بالتعب الشديد، وذهبتْ إلى الفراش. ولكنها لم تتمكَّن من النوم، لأن ذلك الصفير الذي أصمَّ أُذنَيْها أبقاها مستيقظة. غمرها الاكتئاب، لدرجة أنها لم تغادر المنزل لعدَّة أشهر، لأنها لم تكن قادرة على رؤية الناس أو قراءة كتاب أو الاستماع إلى الموسيقى حتَّى.

لا يوجد شخص أعرفه، ليس لديه شخص، على الأقلِّ في حياته، من دائرة أصدقائه يعاني حاليَّاً من الاكتئاب أو الإجهاد. صرَّحت منظَّمة الصِّحَّة العالَميَّة في آذار/ مارس 2018 أن هناك 300 مليون شخص مصابون بالاكتئاب. ليست هذه مجرَّد ظاهرة غربية. وفقاً لمجلَّة "نيتشر Nature" العلمية، فإن البلدان العشر الأوائل في عدد الأشخاص الذين يعانون من الاكتئاب هي أفغانستان، ليبيا، هندوراس، فلسطين، البحرين، الولايات المتَّحدة، الإمارات العربية المتَّحدة، وهولندا، وقطر، والأردن، والكويت. يا لها من قائمة غريبة من البلدان!

وفقاً لبي بي سي، زاد عدد الأشخاص الذين يعانون من الاكتئاب في المملكة المتَّحدة بمقدار نصف مليون شخص في السنة 2010/2011 وحدها. بلغ العدد الإجمالي للذين يعانون من الاكتئاب في تلك السنة 4.7 مليون شخص. قال المدير التَّنفيذيُّ لتحالف الاكتئاب في المملكة المتَّحدة، أمير أونيل، إننا ما زلنا على قمَّة الجبل الجليدي لما يمكن أن يكون عليه هذا الرَّقْم حقَّاً، لأن المزيد من الناس يتأثَّرون بفقدان وظائفهم وانهيار العلاقات العاطفية، بسبب المناخ الاقتصادي الحالي. وفقا لمنظَّمة الصِّحَّة العالَميَّة، "*الاكتئاب هو السبب الرئيس للإعاقة في جميع أنحاء العالَم، وهو مساهم رئيس في إجمالي عبء علاج الأمراض. وفي أسوأ الأحوال، يمكن أن يؤدِّي إلى الانتحار*".

من الواضح أن الأزمات العقلية قد أصبحت ظاهرة متنامية، إضافة

إلى أنها لم تعد تقتصر على الناس وحسب. تعاني الكثير من الأحزاب السِّياسيَّة نوعاً من الأزمة، ويمكن لحزب العمَّال في المملكة المتَّحدة أن يشكِّل مثالاً بارزاً على هذا أو حزب الاتِّحاد من أجل حركة شعبية UMP الفرنسي. وحتَّى إذا ما توسَّعنا أكثر، لنصل إلى الاتِّحاد الأوروبي مثلاً، فسنجد أن "الأزمة" هي الكلمة الوحيدة التي تتكرَّر، من "أزمة اليورو" (الأزمة المالية في 2007-2009 التي جعلت اليورو ينهار تقريباً إلى Grexit (خروج اليونان من منطقة اليورو) إلى Brexit (خروج بريطانيا من الاتِّحاد الأوروبي" وحتَّى أزمة اللَّاجئين. وقد عانى العالَم بأكمله بالطبع أزمة مالية واقتصادية كبيرة في 08/2007. أتساءل إن كان هناك أيُّ صلة بين كل هذه الأزمات المختلفة؟

هل يمكن أن يكون العالَم بأكمله يواجه نوعاً من الأزمة؟

منذُ التِّسعينيَّات، أصبح معظم الناس يفترضون أن العالَم يغدو أكثر ديمقراطية وأكثر انفتاحاً وأكثر عَولَمَة. لذلك تأثَّرتُ للغاية عندما أخبرني رجل أعمال أوروبي في عام 2015 كيف قام مع العديد من زملائه بتقليص استثماراتهم في الصين. لقد عاد إلى أوروبا بعد أن عاش لمدَّة أربع سنوات في الصين، لأنه شعر بخيبة أمل، بسبب عدم جدوى الاستثمار هناك. قال أيضاً إن الصين تُصعِّب الأمور على الشركات الأجنبية، وتمنعها من الازدهار. تحاول البلاد إظهار المزيد من الاهتمام بدعم شركاتها الخاصَّة، بدلاً من دعم أفكاره المبتكرة في مجال الطاقة المتجدِّدة. لم يكن الوضع هكذا منذُ عشرة سنين. لقد أُغلقت اليوم تلك النوافذ التي فُتحَت يومها. لا يمكن بالطبع البناء على قرار رجل أعمال واحد، ولكنْ، إذا كانت الصين تُغلِق اقتصادها بالفعل، فهذا أيضاً لا يجعل من النزعة الحمائية ظاهرة عالمية. ولكن الصين أيضاً هي البلد الأكثر كثافة سُكَّانيَّة في العالَم، والتي تتمتَّع بثاني أكبر اقتصاد في العالَم، بعد الولايات المتَّحدة.

كانت الصين مُهمَّة لكثير من دول العالَم الثالث بفضل استثماراتها في الطُّرُق والسكك الحديدية والموانئ والمصانع. إذا أوقفت الصين هذه الاستثمارات، فسيكون هناك عواقب عالمية واضحة. وقد يؤثِّر هذا على ما ندعوه اليوم بالعَولَمَة. لذا لا بدَّ من طرح السؤال حول ما إذا كانت الصين هي الوحيدة التي تنسحب من العَولَمَة، أو إذا كانت الدول الأخرى تقوم بالأمر نفسه؟ وإذا كانت هذه الحقيقة، فهل يمكن أن يصبح العالَمُ أقلَّ انخراطاً في العَولَمَة بدلاً من التَّوجُّه إليها؟

في كانون الثاني/ يناير 2014، طرح الصَّحفيُّ والكاتب الأمريكي فريد زكريا في برنامجه " What in the World" على شبكة سي إن إن السؤال التالي: "هل وصلْنا إلى نهاية العَولَمَة؟" وكانت حُجَّته الأساسية لطرح هذا السؤال هي العلاقة بين التجارة والنُّمُوِّ الاقتصادي. ما بين 1988 و2007 نمت التجارة العالَميَّة بمعدَّل 6.2 ٪، في حين شهد الاقتصاد العالَمي (الناتج المحلِّيّ الإجمالي) نمُوَّاً بمعدَّل 3.7 ٪، ففي عصر العَولَمَة، تنمو التجارة أسرع من الاقتصاد. منذُ عام 2007، فيما يتعلَّق بالاقتصاد (الناتج المحلِّيّ الإجمالي)، نمت التجارة العالَميَّة بوتيرة أبطأ أو مساوية على الأقلّ.

يقول زكريا إن آخر مرَّة حدث فيها هذا كانت في العشرينيات من القرن الماضي حتَّى الأربعينيات. كان السبب الرئيس لانهيار التجارة في تلك الفترة هو النزعة الحمائية كردٍّ فعل على الكساد الكبير. بعد انهيار وول ستريت في عام 1929، أرادت جميع البلدان تقريباً حماية عمَّالها ومزارعيها المحلِّيِّيْن. فرضت الولايات المتَّحدة على سبيل المثال رسوماً على الاستيراد، لا تقلُّ عن 60 ٪. وكما نعرف اليوم، فقد أخفقت هذه التدابير الوقائية إخفاقاً ذريعاً. ما بين 1929و 1934 انخفضت التجارة العالَميَّة بنسبة 66 ٪. وانخفضت الصادرات الأمريكية من 5.2 إلى 1.7 مليار دولار. وكان الضحايا الأساسيون لكل هذا هم المزارعون، أي تلك

المجموعة من الناس بالتحديد التي تريد الحكومة الأمريكية حمايتها من خلال فرض تعريفات جديدة.

لقد تعلَّم العالَمُ الدرسَ من الكساد العظيم، لذلك كان ردُّ فعله مختلفاً تجاه الأزمة المالية والاقتصادية في 08/2007.

ولكنْ، هل تعلَّم العالَمُ الدرسَ حقَّاً؟ في خطابها السَّنويِّ لعام 2015، حذَّرت كوني تيبتون، الرئيس والرئيس التَّنفيذيّ للجمعية الدُّوليَّة للأغذية ومنتجات الألبان قائلة: "لقد شهدْنا ارتفاعاً مثيراً للقلق في النزعة الحمائية في بعض البلدان التي وضعت المزيد من الضوابط للحَدِّ من الوصول إلى السوق والمزيد من الاهتمام بالاكتفاء الذَّاتيِّ والاستقلال". نشر بنك كندا ورقة في ربيع عام 2015 بعنوان "تباطؤ التجارة العالَميَّة". تقول هذه الورقة: "هناك مجموعة متنوِّعة من العوامل التي تقف وراء النُّمُوِّ الاقتصادي البطيء الذي يُفسِّر حالة التباطؤ ما بعد الأزمة في التجارة العالَميَّة. وتشمل أبرزها الحوافز المتناقصة لتوسيع التبادل التِّجاريِّ، والتركيب المتغيِّر للطلب العالَمي وزيادة النزعة الحمائية".

في عام 2015، نشر مركز أبحاث السياسات الاقتصادية، ومقرُّه لندن، تقريره الثامن عشر حول التنبيه بشأن التجارة العالَميَّة. وكانت نتائج التقرير مثيرة للقلق إلى حدٍّ ما. يقول التقرير: "بعد التعافي في عام 2010 والنصف الأوَّل من عام 2011، توقَّفت القيمة الإجمالية للتجارة العالَميَّة عن النُّمُوِّ، وهبطت، ثمَّ تابعت الانخفاض (بالقيمة الاسمية) بعد تشرين الأوَّل/ أكتوبر 2014". وقد وجد الباحثون في هذا التقرير ما لا يقلُّ عن 539 اختلال تجاري، فرضتْهُ الحكومات في جميع أنحاء العالَم في الأشهر العشر الأُول من 2015. ارتفعت هذه الاختلالات بنسبة 40٪ عن الفترة نفسها من عام 2014. منذُ اندلاع الأزمة في عام 2007، فرضت الدول العشرون الأغنى في العالَم 3581 إجراءً أضرَّ بالمصالح التِّجاريَّة الأجنبية. وما يزال 81 ٪

من جميع الاختلالات التِّجاريَّة التي تفرضها مجموعة العشرين سارية، ممَّا يقلِّل من الادِّعاءات بأن الحمائية في فترة الأزمة عبارة عن وسيلة مؤقَّتة. أخذت هذه الإحصاءاتَ من التقرير المذكور.

التقرير العالَمي التاسع عشر حول التنبيه بشأن التجارة العالَميَّة، والذي نُشر في عام 2016، يزيد من معدَّلات القلق. يقول التقرير إن: "المعيار المطبَّق على التجارة العالَميَّة لا يتباطأ - بل لا ينمو على الإطلاق. لقد تراجعت أحجام التجارة في كلٍّ من البلدان الصِّناعيَّة والأسواق الناشئة".

ويزعم التقرير أيضاً أن: "المبادرات المتعلِّقة بالسياسات التي تؤذي المصالح التِّجاريَّة الأجنبية فاقت نسبة تحرير التجارة بثلاثة أضعاف في عام 2015. منذُ عام 2010، ما بين 50 و100 تدبير من التدابير الحمائية نُفِّذت في الأشهر الأربعة الأولى من كل عام. وفي عام 2016 كان المجموع قد تجاوز 150 تدبيراً".

قد تكون الأرقام مجرَّدة، ولكنْ، خلف هذه الأرقام تكمن حقيقة ملموسة. ومن الأمثلة على ذلك الوعد الذي قدَّمه رئيس وزراء المملكة المتَّحدة السابق ديفيد كاميرون لعمَّال الحديد الصلب في بريطانيا في مؤتمر صحفي مع الرئيس الصِّينيّ شي جين بينغ في عام 2015 في لندن. عقد المؤتمر الصّحفيّ خلال مؤتمر حول التجارة بين الصين والمملكة المتَّحدة. لم تكن صناعة الحديد الصلب البريطانية في أفضل حالاتها على الإطلاق. خلال المؤتمر الصّحفيّ، أجاب كاميرون على سؤال الصّحفيّ على النحو التالي:

"*وما أودُّ قوله لعمَّال الصلب في بريطانيا هو: سنتَّخذ إجراء هنا في بريطانيا (...) للمساعدة في التَّأكُّد من قيامنا بشراء الفولاذ البريطاني للمشاريع البريطانية (...)، وسنبني محطَّة طاقة نووية في بريطانيا، حيث يعتمد إنشاء المشروع على الحديد البريطاني. كما أننا نبني حاليَّاً مشروع*

كروسريل Crossrail في شوارع لندن، وهو أكبر مشروع بناء في جميع أنحاء أوروبا، والذي يستخدم الفولاذ البريطاني حصرياً".

لم تكن هذه كلمات رئيس الصين، بل كلمات قائد البلاد التي اخترعت التجارة الحُرَّة الحديثة. انجرفت أفكاري عند سماعي كلمات كاميرون بعيداً إلى زيارتي للمقاطعة المثالية شروبشاير في ويستميدلاندز في إنجلترا. تمتلك شروبشاير أوَّل جسر حديدي في التاريخ الغربي. افتُتح الجسر في 1781، وأصبح رمزاً للثورة الصِّناعيَّة الأولى. قادت بريطانيا العظمى الثورَتَيْن الصِّناعيَّتَيْن الأولى والثانية. بعد قرن من بناء جسر آيرونبريدج، كانت بريطانيا تُنتج ما يقارب نصف إنتاج الحديد العالَمي، و40 ٪ من إنتاج الحديد الصلب الذي كان يصدر على نطاق واسع إلى قارَّة أوروبا والولايات المتَّحدة، لبناء السكك الحديدية والمجمَّعات الصِّناعيَّة.

عندما واجه قطاع إنتاج الحديد الصلب البريطاني منافسة شديدة من بقية العالَم، انهارت أسواقه. أصبح موضوع الحديد الصلب موضوعاً أساسياً في ساحات القتال الأيديولوجية الساخنة بين العمَّال والمحافظين. أمَّمت حكومة العمَّال في عام 1949 صناعة الحديد الصلب. عندما عاد ونستون تشرشل إلى السلطة، خصخص هذا القطاع مجدَّداً. أعاد رئيس حكومة العمَّال في السِّتِّينيَّات هارولد ويلسون تأميم قطاع الصلب. وكانت مارغريت تاتشر هي التي أعادت هذا القطاع إلى أيدي القطاع الخاصِّ مجدَّداً. ديفيد كاميرون ليس رئيس حكومة العمَّال بالطبع، لذلك فإن موضوع تأميم قطاع الحديد الصلب من المحرَّمات. ولكنه يستعمل خطاب النزعة الحمائية من خلال وعده بتقديم الحديد البريطاني للمشاريع البريطانية.

قفز الرئيس ترامب قفزة عملاقة في أيَّار/ مايو 2018، ليمضي قُدُماً في هذا، وشنَّ حرباً تجارية على بقية العالَم. فرض ترامب تعريفة 25٪ على استيراد الصلب و10٪ على الألمنيوم. جاء ردُّ فعل الاتِّحاد الأوروبي

من خلال زيادة الرسوم الجمركية على زبدة الفول السُّودانيِّ والتوت البرِّيِّ وعصير البرتقال. حذَّرت الصين بأنهاستردُّ على هذا. وفي أثناء كتابة هذا الكتاب لم يكن من الواضح إلى أيِّ مدى سوف تتصاعد هذه الحرب العالَميَّة.

لا تؤثِّر النزعة الحمائية على التجارة وحسب. تتَّخذ الاتِّجاهات العالَميَّة مساراً مُقلِقاً على العديد من المستويات. نشر معهد ماكينزي العالَمي في آذار/ مارس 2013 تقريراً يُنذر بالخطر على العَولَمَة المالية.

وجد المعهد أن "تدفُّقات رأس المال عبر الحدود قد انهارت، وانخفضت من 11.8 تريليون دولار في عام 2007 إلى ما يُقدَّر بنحو 4.6 دولار في عام 2012، انخفض الإقراض عبر الحدود (من البنوك) من 5.6 تريليون دولار في عام 2007 إلى ما يُقدَّر بنحو 1.7 تريليون دولار في عام 2012". وتوصَّل المعهد الذي فُوجِئ بهذه النتائج إلى سيناريوهَيْن محتمَلَيْن:

الأوَّل هو إنشاء إطار تنظيمي أكثر استدامة من قبَل صانعي السياسات في سبيل تجنُّب الأزمة المصرفية الجديدة، وإزالة القيود المفروضة على الاستثمار عبر الحدود. يؤدِّي هذا السيناريو إلى نمُوٍّ أبطأ، ولكنه بالطبع نمُوٌّ أكثر استدامة. ولكنْ، وفقاً لتقرير التنبيه للتجارة العالَميَّة الذي ناقشناه سابقاً، فإن ما يحدث هو العكس تماماً. يقودنا هذا إلى السيناريو الثاني لمعهد ماكينزي، أو ما يُدعى بِبَلْقَنَةِ أسواق رأس المال، ممَّا يعني حقبة جديدة من النزعة الانعزالية. سوف تتراجع البنوك والمستثمرون من أسواق رأس المال الدُّوليَّة، ويركِّزون على النُّمُوِّ المحليِّ. وعندما تصبح القروض والاستثمارات موجَّهة محلِّيَّاً، تتوقَّف عن كونها أسواقاً عالمية. تعني البَلْقَنَة بالتعريف كل ما هو عكس العَولَمَة.

أطلق جوشوا كوبر رامو، نائب رئيس "كيسنجر أسوشييتز"، شركة

الاستشارات الجيوسياسية الدُّوليَّة، وعضو مجلس إدارة كل من شركَتَي ستاريكس وفيديكس، على هذا الاتِّجاه اسم صعود النزعة المحلِّيَّة. كتب كوبر مقالاً في مجلَّة فورتشن في عام 2012، يقول فيه: "لقد نسوا إخبارنا أن للعَولَمَة تأثيراً عكسياً. أصبحت الشركات والبلدان اليوم بحاجة لتُحضِّر نفسها "للاقتصاد الدَّاخليِّ"". يرى كوبر أن الناس والشركات ينتقلون من العَولَمَة باتِّجاه النزعة المحلِّيَّة. أصبحت البنوك أكثر محلِّيَّة، ويرغبون أيضاً في معرفة عملائهم وجهاً لوجه، وليس من خلال الميزانية العمومية وحسب. يولي الناس المزيد من الاهتمام لما يأكلون، ولديهم المزيد من الثقة بما هو "محلِّيِّ الصنع" أكثر من ثقتهم بما صُنع في بعض البلاد البعيدة. يبدو هذا الاتِّجاه واضحاً حتَّى في أفخم المطاعم. يمثِّل لحم البقر الياباني اللذيذ (الواغيو Wagyu) مثالاً واضحاً على هذا. يمكنكَ حاليَّاً طلب لحم بقر الواغيو السُّويديِّ في مطعم في ستوكهولم. وقد بقي مطعم "نوما" في كوبنهاغن لسنوات طويلة المطعم الأوَّل في العالَم، والذي يَستخدم المكوِّنات المحلِّيَّة وحسب. وما أدهش الكثيرين أيضاً أن هذه السياسة تمتدُّ حتَّى إلى علامتهم التِّجاريَّة الخاصَّة من النبيذ الأبيض الدّنماركيّ.

يزداد بالتدريج وعي المستهلكين بالبصمة البيئية للسلع الاستهلاكية أيضاً. لماذا نشتري تفَّاح "بينك ليدي" الأسترالي، إذا كان في متناولنا أنواع تفَّاح محلِّيَّة أخرى؟

غالباً ما يتمُّ الترويجُ المحليُّ بواسطة مجتمع الأعمال المحليِّ .بعد ثورة 2011 في مصر، بدأ رجال الأعمال المحلِّيِّيْن حملة "اشترِ البضاعة المصرية". بدأ هذه الحملةَ المصمِّمُ المصريُّ عمرو حلمي، بهدف تحفيز الاقتصاد المصري المحلِّيِّ، والذي انهار بعد الفوضى التي سادت بعد الثورة. زادت شكوكي بالنوايا النبيلة وراء حملة "اشترِ البضاعة المصرية" عندما طوَّر حلمي ورشة تصميم منخفضة التكلفة للتنافس مع فرع شركة إيكيا الذي افتُتح بعد بضعة أشهر. في قانون الانتعاش وإعادة الاستثمار

الأمريكي لعام 2009، هناك بند يتحدَّث عن "شراء البضائع الأمريكية"، والذي ينصُّ على أن جميع المباني العامَّة أو الأشغال العامَّة المموَّلة من البرنامج ينبغي أن تشتريَ البضائع الأمريكية فقط. وإذا عدْنا للتاريخ نجد أن أوَّل "قانون ينصُّ على شراء البضائع الأمريكية" قد صدر عام 1933. وغالباً ما كانت النكهة المحلِّيَّة متبَّلة بالنزعة الحمائية والقومية. وكما هو الحال مع البَلْقَنَة، فإن هذه النزعة تسير عكس اتِّجاه العَولَمَة تماماً.

في أيلول/ سبتمبر 2015، بعد عامَيْن من تقرير ماكينزي، نشر معهد كريدي سويس للأبحاث دراسته الخاصَّة بعنوان: نهاية العَولَمَة أم الذهاب باتِّجاه عالم متعدِّد الأقطاب؟

شرح معهد كريدي سويس ثلاثة سيناريوهات محتملة للعالَم في السنوات العشرة القادمة:

السيناريو الأوَّل أن تستمرَّ العَولَمَة، وفي السيناريو الثاني يصبح العالَم أكثر إقليمية، بينما تنتهي العَولَمَة تماماً في السيناريو الثالث. لم تكن المعايير التي اعتمد عليها معهد كريدي سويس اقتصادية فحسب، بل معايير اجتماعية وسياسية أيضاً. إليكم لمحة عامَّة عن السيناريوهات الثلاثة والعناصر المكوِّنة لها:

الشكل 1: مستقبل العَولَمَة- ثلاثة سيناريوهات(*)

	استمرار العَولَمَة	العالَم متعدد الأقطاب	نهاية العَولَمَة
التدفُّقات التِّجاريَّة والمالية	اتِّجاه تصاعدي قوي، زيادة الترابط. القليل من الموانع بسبب النزعة الحمائية	ارتفاع بوتيرة أقلّ، تدفُّقات ذات طبيعة إقليمية، اتِّفاقيَّات تجارة إقليمية	حواجز أمام التجارة وتزايد النزعة الحمائية
الأسواق	انخفاض تكاليف رأس المال	صعود المراكز المالية الإقليمية	الانقسام، وصعود في تكاليف رأس المال
العملة	هيمنة الدولار	صعود عملات ارتكاز جديدة	حروب العملات
النمو الاقتصادي	مدفوع بنُمُوِّ التجارة.انخفاض تقلب الاقتصاد الكُلِّيِّ، وهوما يحدث في أوقات الأزمات عندما يكون خطر العدوى أعلى	انخفاض في النُّمُوِّ، حيث تزدهر بعض المناطق بينما تنهار مناطق أخرى، انتكاسات إقليمية استجابة للأزمات الاقتصادية. تنامي الاستهلاك في الاقتصاديات الناشئة.	التركيز على المجال الدَّاخليِّ، ونُمُوّ أبطأ. صدمات من الدّين، وانعدام المساواة. أزمة المناخ والأزمات الجيوسياسية.

*) المصدر: معهد كريدي سويس، "نهاية العَولَمَة أو نحو المزيد من عالَم متعدِّد الأقطاب؟"، أيلول/ سبتمبر 2018.

المؤسَّسات الكبرى	أصبحت المؤسَّسات متعدِّدة الجنسيات أكثر قوَّة	تزايد مناصري النزعة الإقليمية. ازدهار الاتِّحاد الأوروبي	تزايد النزعة الوطنية والنزعة المضادَّة للشركات متعدِّدة الجنسيات.
الحوكمة العالَميَّة	هيمنة المؤسَّسات التعاونية العابرة للوطنية، وهيمنة قوَّة الولايات المتَّحدة. المنظّمون العالَميون.	هيمنة إقليمية تنافسية، وتحويل الصراعات، ومجالات النفوذ. مؤسَّسات جديدة بعضوية حصرية.	صراعات مفتوحة. نزاعات عسكرية جيوسياسية. حوادث مناخية.
أشكال الحكومات	انتشار الدِّيمقراطيَّة	ديمقراطيات موجَّهة، مع المزيد من ترسُّخ هذه الأنظمة.	انتكاسات في الانتقال نحو الدِّيمقراطيَّة
تدفقات الأشخاص	سياسة الباب المفتوح للمهاجرين.	قيود متزايدة على المهاجرين. حركة قوَّة العمل القائمة على مهارات معيَّنة. الهجرة بين المناطق الحضرية والرِّيفيَّة للسيطرة على الحركة عبرا لبلاد	انهيار سياسات الهجرة. الإقصاء الاجتماعي للسُّكَّان المهاجرين.

التنمية الاجتماعية والإنسانية	تقارب أكبر في مستويات المعيشة مع تراجع المناطق الأقلّ تأثُّراً بالعَولَمَة. تحسُّن التنمية البشرية	تزايد انعدام المساواة في معايير المعيشة. أصبحت الاقتصادات المحلِّيَّة أكثر ثراء في المجمل. تزايد الاستهلاك في الاقتصاديات الناشئة (الدخل، والاستهلاك والثروة)	تزايد الفقر والحروب الأهلية. تصاعد الحركات الاجتماعية الاقتصادية المعادية للعَولَمَة

خلصت دراسة معهد كريدي سويس إلى أن العالَم أصبح اليوم متعدِّد الأقطاب أكثر فأكثر، من حيث أنماط التجارة والنشاط الاقتصادي. وتقول الدراسة أيضاً إن التجارة أصبحت أكثر إقليمية مع الأمريكَتَيْن، وأوروبا والصين كمراكز رئيسة، على الرغم من ازدياد الحواجز التِّجاريَّة. وترى الدراسة أن السيناريو الأكثر قتامة للعَولَمَة أن تنتهيَ من خلال حدث يمثِّل "صدمة كبيرة"، سواء كان ذلك الحدث عبارة عن ديون هائلة، أو تدفُّق الهجرة المفاجِئة، أو تزايد نسب انعدام المساواة. سوف يؤدِّي هذا إلى صعود النزعة الحمائية، وعكس اتِّجاه التَّحوُّلات الدِّيمقراطيَّة.

عندما ظهر التقرير في آذار/ مارس 2015، لم يكن هناك بالكاد سوى بعض العلامات على "صدمة كبيرة" في المستقبل، يمكنها أن تحوِّل التَّنبُّؤ من السيناريو متعدِّد الأقطاب إلى السيناريو الذي يتنبَّأ بنهاية العَولَمَة. بعد شهر واحد فقط، غرقت خمسة قوارب مليئة باللاَّجئين في البحر الأبيض المتوسِّط، ممَّا أسفر عن مقتل ما لا يقلُّ عن 1200 شخص. وهنا بدأت أزمة اللاَّجئين الأوروبية.

بعد عامَيْن من نشر الدراسة من قبَل معهد كريدي سويس، يبدو أن الكثير من خصائص السيناريو الثالث المحتمَل أصبحت حقيقة واقعة. انهارت البورصة الصِّينيَّة، وعاش اقتصاد البرازيل أوقاتاً عصيبة. أصبحت الحرب الأهلية في سوريا صراعاً مفتوحاً مع قرار روسيا بدَعْم الرئيس بشَّار الأسد بالغارات الجوِّيَّة. وقعت انتكاسات حقيقية في التَّحوُّلات الدِّيمقراطيَّة في جورجيا، وفي العالَم العربي، وحتَّى في بولندا والمجر، الدَّولتَيْن العضوَيْن في الاتِّحاد الأوروبي، حتَّى إن المجر قد شيَّدت جداراً عازلاً لمنع اللَّاجئين من المرور عبر أراضيها. وأخيراً ظهرت حركات مناهضة للعَولَمَة في كل مكان في أوروبا والولايات المتَّحدة. وهذا ما سنتحدَّث عنه لاحقاً.

ما هو نوع العَولَمَة التي أتحدَّث عنها؟

بعد أن قدَّمتُ نظريَّتي حول القَبْلَنَة في مؤتمر في أكسفورد، سألني أحد الأساتذة قائلاً: أليست العَولَمَة مجرَّد أيديولوجيا سادت في العقود الأخيرة؟ لا شكَّ أنه كان يشير إلى مفهوم ما يُسمَّى حركة مناهضة العَولَمَة التي كانت تحتجُّ دائماً وبنشاط في مطلع القرن الحادي والعشرين. حظيت مظاهرات الحركة في اجتماعات منظَّمة التجارة العالَميَّة، وصندوق النقد الدَّوليّ والبنك الدُّوليِّ والمنتدى الاقتصادي العالَمي لمجموعة الدُّول الثمانية (G8) باهتمام شديد في جميع أنحاء العالَم. لطالما احتجَّت هذه الحركة ضدَّ النظام الرَّأسماليّ للشركات، حيث تُراكِمُ الشركات متعدِّدة الجنسيات الثروة على حساب الناس الفقراء، من خلال تجاهلها لحقوق الإنسان وحقوق العمَّال والقضايا البيئية والمجتمعات المحلِّيَّة. قدَّمت هذه المجموعة الصغيرة من الناشطين إلى حَدٍّ ما فكرة، انتشرت انتشاراً واسعاً اليوم، وهي العَولَمَة، بوصفها أيديولوجية.

ليست هذه العَولَمَة التي أتحدَّث عنها، على الرغم من أن هذه

الإيديولوجية في الواقع (جزء إشكالي في بعض الأحيان) من العَولَمَة، لأنه يقلِّص هذا المصطلح إلى نوع من الأيديولوجية. فالعَولَمَة عبارة عن مفهوم أوسع بكثير من هذا. أرى العَولَمَة من وجهة نظري على أنها تشمل أساساً التفاعل المتزايد، والربط البيني والتكامل العالَمي. لا تحدث العَولَمَة على مستوى الاقتصاد أو التجارة وحسب، بل على مستوى الثقافة والسياسة والتعليم والاتِّصال والمعرفة أيضاً. لم يكن هذا التفاعل والترابط والتكامل المتنامي في العالَم اختراعاً من اختراعات القرن العشرين، بل على العكس تماماً، حيث تعود العَولَمَة إلى عصور مُغرِقة في القِدَم.

وجد علماء الآثار في مصر قطعة من الحرير، يعود تاريخها إلى 1000 ق.م. وليس هناك احتمالات كبيرة غير الصين حول مصدر هذا الحرير. وكان على طريق الحرير الشهير أن يتطوَّر لاحقاً.

خلال الإمبراطورية الأخمينية الفارسية الكبيرة (500-330 قبل الميلاد) كان هناك طريق ملكي بطول 2.400 كيلومتر بين سميرنا (أزمير الحالية في تركيا) والعاصمة الفارسية سوزا، على بعد 250 كم شرق نهر دجلة. وكما هو الحال اليوم مع الطُّرُق السريعة، كانت هناك محطَّات بريد واستراحات على مسافات منتظمة. يمكن للناس أخذ قسط من الراحة في هذه الاستراحات، واستخدام خيول جديدة لمواصلة رحلتهم. كان السعاة المحترفون ينقلون الرسائل من طرف إلى آخر في تسعة أيَّام فقط.

نقل اليونانيون القدماء هذه الطريق إلى مستوى آخر، حيث توسَّعت طُرُق التجارة من اليونان ومصر حتَّى وادي السند، بفضل فتوحات الإسكندر الأكبر (356-323 قبل الميلاد). كانت اليونانية أوَّل لغة عالمية، لأنها لغة التجارة والأفكار.

امتزجت الفلسفة اليونانية الكلاسيكية مع الفلسفة الشَّرقيَّة، لتنشأ البوذية اليونانية، والتي أصبحت فيما بعد ديانة الزِّنّ البوذية. ظهرت أولى

تماثيل بوذا في نفس الوقت الذي بدأ فيه اليونانيون في وضع تماثيل أبولو في غرب الهند، ربمَّا لأنه كان يُنظَر إلى التماثيل اليونانية على أنها تهديد للهوية الدِّينيَّة المحلِّيَّة.

أصبحت الطريق طريق الحرير الشهيرة مع ارتباطها بالصين خلال عهد أسرة هان (206 ق.م. – 220م). شرعت المملكة الصِّينيَّة في البحث عن خيول أقوى وأكثر عدداً للتعامل مع هجمات القبائل المستمرَّة.

وجدوا أفضل الخيول في المنطقة التي تقع اليوم شرق طاجيكستان وشَمال شرق أفغانستان. قايض الصِّينيُّون الخيول بالموادِّ الفاخرة، وأهمّها الحرير. كان هذا ميلاد طريق الحرير التي امتدَّت من الإسكندرية في مصر إلى زيان في الصين.

كان على طريق الحرير انتظار الإمبراطورية الرُّومانيَّة، ليزدهر تماماً. حتَّى القرن الأوَّل قبل الميلاد، ربمَّا كانت روما قوية، ولكنها لم تكن غنية جدَّاً. تغيَّر هذا بعد أن غزت مصر في 30ق.م. لم تمنح مصر روما إمكانية الوصول إلى إمدادات الحبوب الضخمة وحسب، بل القدرة أيضاً على الوصول مباشرة إلى طريق الحرير. ومنذُ ذلك الحين، خلال القرن الأوَّل الميلادي، تنامت العَولَمَة القديمة بسرعة كبيرة. ارتدت الطبقات العليا في روما ملابس الحرير الصِّينيَّة، وتعطَّروا بالعطور الفارسية، ونكَّهوا طعامهم بالتوابل الهندية، ولكنْ، لم يكن الجميع سعداء بهذا التَّطوُّر، وظهرت أوَّل حركة مناهضة للعَولَمَة. أصبح الفيلسوف الرُّومانيُّ سينيكا الأصغر (4 ق.م. - 65 م) أحد المتحدِّثين باسم هذه الحركة. صرخ سينيكا قائلاً: "وما بال هذه الملابس الحريرية، إذا كان يمكن بالطبع تسمية هذه الموادِّ التي لا تخفي الجسم ولا حتَّى العورة ملابس حتَّى ... ترتديها تلك القطعان البائسة من الخادمات اللواتي يعملنَ على أن يظهر الزنا من خلال ملابسهنَّ الشَّفَّافة، بحيث لا يعرف الزوج جسد زوجته أكثر ممَّا يعرفه أيّ رجل غريب أو أجنبي".

حاول مجلس الشيوخ الرُّومانيُّ عدَّة مرَّات حظر الملابس الحريرية لأسباب اقتصادية وأخلاقية، إضافة إلى أنها ستطغى على الملابس المحتشمة والمحلِّيَّة الصنع، ولكن هذا لم يُحقِّق أيَّ نتيجة. أثَّرت التجارة على طول طريق الحرير الصين والعديد من المُدُن على هذا الطريق. لدينا أمثلة شهيرة مثل البتراء، التي تقع حاليّاً في الأردن، وتدْمُر، في سوريا اليوم. ولا تزال المُدُن القديمة الأخرى على طريق الحرير مثل سمرقند أو طشقند في أوزبكستان مُدُناً نابضة بالحياة.

كان طريق الحرير عبارة عن طريق سريع للعَولَمَة. لم يقتصر الأمر على سفر التُّجَّار مع البضائع من الغرب إلى الشرق، بل تعدَّاه إلى الأفكار والاختراعات والأديان أيضاً. وصلت المسيحية إلى الصين، وإثيوبيا (الحبشة) وجورجيا قبل أن تصل إلى دول أوروبية مثل فرنسا أو ألمانيا أو المملكة المتَّحدة. وانتشرت في الوقت نفسه الأديان الفارسية في روما، وتمتَّعت بشعبية كبيرة.

لا يزال يمكن للمرء في الطابق السُّفليِّ من كنيسة القدِّيس كليمنت في روما، زيارة معبد صغير للعبادة الميثرائية الفارسية، حيث يتجمَّع أتباع هذه الديانة لتناوُل وجبات الطقوس المشتركة. كانت إحدى نقاط قوَّة الإمبراطورية الرُّومانيَّة بالتحديد تكمن في تسامحها مع الأديان الأخرى. يمكن للمواطن الرُّومانيِّ اتِّباع العديد من الآلهة والأديان في الوقت نفسه. يشبه الوضع الهند في الوقت الحاضر، حيث يمكن للمرء أن يكون هندوسياً وبوذياً في الوقت نفسه.

أدَّى سقوط روما في القرن الخامس الميلادي إلى وضع حدٍّ للعَولَمَة في القارَّة الأوروبية على الأقلِّ. كانت روما المسيحية أقلَّ تسامحاً تجاه الديانات والأفكار الأخرى. أصبح يُنظَر إلى العَولَمَة بوصفها تهديداً. أوقف أحد آباء الكنيسة، القدِّيس أوغسطينوس (354-430)، الذي وُلد في

شَمال أفريقيا، النقاش حول ما كانت عليه المسيحية أو كيف يمكن أن تكون، ومنع الأفكار الأجنبية (بل الفارسية) من إضعاف ديانته. اختارت أوروبا المسيحية الخروج من العَولَمَة، والدخول في عصورها الوسطى. على الجانب الآخر من البحر المتوسِّط، أرسل الإمبراطور البيزنطي جستنيان (482-565 م) جواسيس إلى الصين، لسرقة بيض دودة الحرير، للشروع في إنتاج الحرير محلِّيَّاً.

منذُ القرن السابع فصاعداً، ضخَّ العرب حياة جديدة في العَولَمَة. عندما زرتُ شيان، نقطة النهاية (أو نقطة البداية) لطريق الحرير، فوجئتُ بمسجد قديم بعمر المسجد الأموي في دمشق. كان مسجداً جميلاً مصنوعاً بالكامل من الخشب، يختلط فيه الفنُّ العربي بالصِّينيِّ. لقد سافر الإسلام أيضاً بسرعة الحرير. جلب التُّجَّار العرب اختراع الورق الصِّينيِّ إلى بغداد، وحوَّلوا الأرقام الهندية إلى أرقام عربية، واستخدموها في اختراع الجبر، ونقلوا كل هذا فيما بعد إلى أوروبا.

في القرن الثاني عشر، شهد العالَم العربي نهاية العَولَمَة لديه، ودخل عصوره الوسطى. أدَّى الانتشار السريع للمدارس المحافظة والهجوم القاسي للمفكِّر الإسلامي الغزالي على الفلسفة في كتابه التَّاريخيِّ "تهافت الفلاسفة" (القرن الحادي عشر) إلى نهاية العصر الذَّهبيِّ للحضارة الإسلامية.

تزدهر الحضارات عندما تكون جزءاً من العَولَمَة، وتشرع في الانهيار لحظة قطعها مع العَولَمَة. كانت هذه حالة الرومان والعرب والصِّينيِّيْن. لم تكن صدفة أن يُولَد عصر النهضة من خلال الاتِّصال الجديد بين العلماء الأوروبيِّيْن والعرب، والذي حدث لأول مرَّة في المناطق الحدودية مثل إسبانيا وجنوب إيطاليا، ثمَّ لاحقاً من خلال الجامعات الأوروبية مثل أكسفورد وبادوا والسوربون. تزامن تواصُل أوروبا مع الفكر العالَمي مع إعادة

اتِّصال كلٍّ من جنوا والبندقية مع طريق الحرير في بلاد الشام، وبالتالي مع العَولَمَة الاقتصادية. استند عصر النهضة أساساً على عودة اتِّصال أوروبا بالعَولَمَة. أثارت كلٌّ من الأفكار الجديدة والمنتجات الجديدة أنواعاً جديدة من الفضول. أدَّى كل من شغف التَّعلُّم واستكشاف الأفكار والطُّرُق الجديدة إلى اكتشاف كريستوفر كولومبوس للأمريكَتَيْن في عام 1492. كانت هذه بداية حقبة جديدة كاملة من العَولَمَة، حيث تقبع أوروبا في مركزها تماماً.

قرَّرت الإمبراطورية الصِّينيَّة في القرن الخامس عشر، بالتزامن مع الاكتشافات الأوروبية، اختيار الخروج من العَولَمَة وإغلاق حدودها. عاشت الصين ازدهاراً وتقدُّماً يتفوَّق على الغرب لأكثر من ألف عام. في عام 1405، أبحر الأميرال الصِّينيُّ تسنغ هي (1371-1433) من الصين إلى سري لانكا مع ما يقرب من 300 سفينة، تحمل 27000 بحَّاراً ومجهَّزة بأحدث المعدَّات. إذا ما قارنَّا هذا مع الفترة التي أبحر فيها كريستوفر كولومبوس من قادس في 1492، بثلاث سفن فقط، عليها 90 بحَّاراً مع الحدِّ الأدنى من المعدَّات. كانت الإمبراطورية الصِّينيَّة أكثر استعداداً وتجهيزاً لاكتشاف العالَم، واستعماره واتِّخاذ زمام المبادرة في موجة جديدة من العَولَمَة من أوروبا. ولكن هذا لم يحدث. كان الإمبراطور الصِّينيُّ تشو تشي تشن (1427-1464، من سلالة مينغ) خائفاً من أن يستفيد الناس الخطأ من التجارة المتنامية، فقرَّر حظر جميع الاستكشافات البحرية، وإغلاق حدود الصين. استغرق الأمر الصين ما يقرب من خمسمائة سنة، حتَّى جاء دنغ شياوبينغ (1904-1997) إلى السلطة، لفتح البلد مرَّة أخرى، لتصبح لاعباً عالمياً، كما كانت من قبل لقرون عديدة.

لطالما كانت العَولَمَة هناك في جميع الأزمنة، ولطالما عانت من الاضرابات المصاحبة لها أيضاً. ولطالما كان نُمُوُّ كل من التجارة والتواصل الاجتماعي والسِّياسيِّ والتفاعل والتكامل متشابكاً للغاية. كان الانخفاض

الحادُّ في التجارة دائماً من أعراض العلاقات الإشكالية على المستوى الاجتماعي والسِّياسيِّ. يسبب انكماش العَولَمَة دائماً أزمة سياسية، حيث كانت العَولَمَة في كثير من الأحيان عبر التاريخ بمثابة درع واقية من الحرب. أو كما قال المفكِّر الفرنسي فريدريك باستيا في الثامن عشر "إذا لم تجتزِ البضائعُ الحدودَ، فستعبرُها الجيوش".

تنطوي العَولَمَة على أشياء تتجاوز الاقتصاد وحسب، كما تتعلَّق أيضاً بدرجة شعور الناس بالاتِّصال ببقية العالَم، فأنتَ مُتَعَوْلِمٌ إذا كنتَ تهتمُّ باعتقال الفنَّان والمنشقِّ الصِّينيِّ آيويوي، وبالغابات المطيرة في أمريكا الجنوبية، وبالانتخابات الرِّئاسيَّة الأمريكية والانتخابات في بولندا. إذا ذهبتَ في عطلة إلى روسيا، وتواصلتَ مع بعض الأشخاص الذين قابلتَهم في موسكو، فإنكَ تُحقِّق العَولَمَة بأبهى صورها. إذا كنتَ رسَّاماً تستوحي أعمالكَ من الفنِّ الياباني الكلاسيكي أو الفنِّ الأفريقي القَبَلِيِّ، فأنتَ تشارك في العَولَمَة. يصحُّ هذا أيضاً عندما ترغب في إثراء معتقداتكَ الدِّينيَّة من خلال دراسة ديانة الزِّنّ البوذية. ولكنْ، وعلى عكس الأرقام التي تدلُّ على التبادل التجاري والاستثمارات العابرة للحدود، فمن الصعب تحويل عوامل العَولَمَة هذه إلى أرقام.

لهذا السبب أسعدني العثور على مؤشِّر العَولَمَة للمعهد الاقتصادي السُّويسريِّ كوف. أجرى هذا المؤشِّر منذُ عام 1970، حسابات حول العَولَمَة الاقتصادية والاجتماعية والسِّياسيَّة. يستخدم المعهد الاقتصادي السُّويسريُّ للتحليل الاقتصادي أرقاماً عن التجارة، والاستثمار الأجنبي المباشر، وحواجز الاستيراد وضرائب التجارة الدُّوليَّة. ويستند مؤشِّر العَولَمَة الاجتماعية على كمِّيَّة المكالمات الدُّوليَّة، والسياحة الدُّوليَّة، وعدد السُّكَّان الأجانب في كل البلد، وكمِّيَّة مستخدمي الإنترنت وانتشار العلامات التِّجاريَّة الدُّوليَّة مثل

ماكدونالدز أو إيكيا. يحسب المؤشِّر العَولَمَة السِّياسيَّة على أساس عدد السفارات في بلد ما، وأعضاء المنظَّمات الدُّوليَّة، والمشاركات في بعثات الأمم المتَّحدة، والتوقيع على المعاهدات الدُّوليَّة.

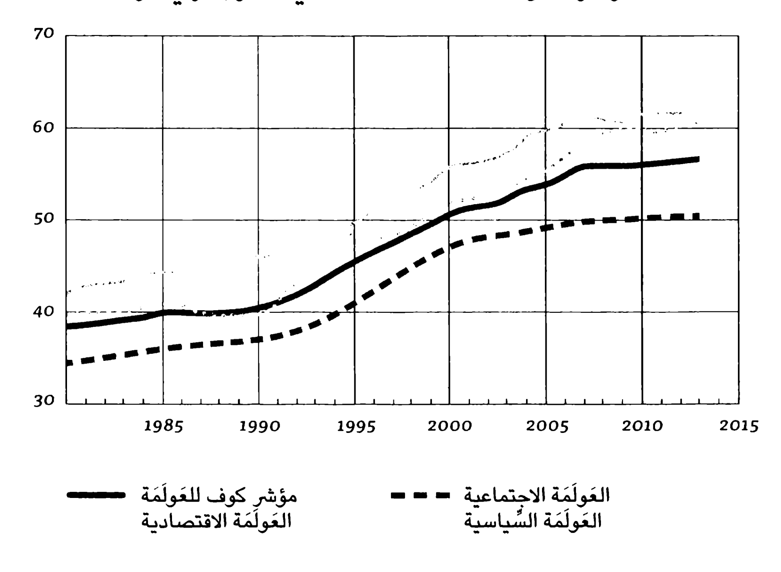
يُظهِر مؤشِّر العَولَمَة اتِّجاهاً مُقلِقاً، ولكنه اتِّجاه واضح:

ركود واضح للعَولَمَة على كل المستويات. وما يثير الدهشة أيضاً أنه، ووفقاً لهذا المؤشِّر، فقد بدأ هذا الانخفاض في معدَّل العَولَمَة في وقت يسبق كل التقارير التي ناقشناها حتَّى الآن.

بدأ الركود السِّياسيُّ في عام 2008، وهذا يبدو منطقياً استجابة للأزمة المالية والاقتصادية لعام 2008/2007. تأتي الصدمة الحقيقية مع تراجع العَولَمَة الاقتصادية والاجتماعية. في هذا التقرير، بدأ الانخفاض في معدَّل هذه العَولَمَة في عام 2007، قبل الأزمة. كما يظهر مؤشِّر 2018 انخفاضاً في العَولَمَة في عام 2015، ممَّا يدلُّ على أن الاضطراب، يتجاوز مجرَّد كونه ركوداً. وإذا تتبَّعْنا أخبار عام 2018 والحروب التِّجاريَّة المعلَنة، لن نجد انعكاساً لهذا الاتِّجاه في أيِّ وقت قريب. هناك حقيقتان أساسيتان، لم يتضمَّنهما تقرير 2018 بعد، تعودان إلى عام 2017 واللَّتان ستُقلِّلان من مدى العَولَمَة أكثر فأكثر:

قرار الحكومة البريطانية مغادرة الاتِّحاد الأوروبي، الكتلة الاقتصادية الأكبر في العالَم، والقرارات التي اتَّخذها الرئيس الأمريكي دونالد ترامب لمغادرة الشراكة العابرة للمحيط الهادئ (TTP)، والشراكة التِّجاريَّة والاستثمارية العابرة للمحيط الأطلسي (TTIP)، وإعادة التفاوض على اتِّفاقيَّة التجارة الحُرَّة لشَمال أمريكا (نافتا)، والبدء في الحرب التِّجاريَّة عن طريق زيادة التعريفات الجمركية على المعادن على نحو كبير. لقد واجه العالَم باختصار اختلال العَولَمَة بالفعل لأكثر من عقد، ولا يبدو أن هذا الاضطراب سينتهي قريباً.

الشكل 2: مؤشِّر العَولَمَة للمعهد الاقتصادي السُّويسريِّ كوف، 2018



مؤشِّر العَولَمَة للمعهد الاقتصادي السُّويسريِّ كوف، 2018.

هناك العديد من العوامل المتغيِّرة التي تشرح الأسباب الاقتصادية لهذا الاضطراب والاختلال الذي عانتْهُ العَولَمَة. أمَّا الحقيقة المثيرة في هذه الدراسة بالذات، فهي أن ركود العَولَمَة لم يبدأ فيما بعد، بل قبل الأزمة الاقتصادية والمالية في 08/2007، مشيرة إلى أن سبب نهاية العَولَمَة لا بدَّ أنه يكمن في مكان آخر غير الاقتصاد. السبب برأيي الشَّخصيِّ سبب نفسي. لا يبدو أن الاكتئاب أو الإرهاق يؤثِّران على الأفراد وحسب، بل على مجتمعات بأكملها. لقد تسبَّبت الأحداث الصادمة الكبرى في غرق الناس جميعاً وفي جميع أنحاء العالَم في أزمة الهوية، وقد جاءت استجابتهم في الاتِّجاه المعاكس للعَولَمَة. يعني هذا العودة إلى القبيلة التي يعرفونها جيِّداً، أو إلى عملية القَبْلَنَة.

الفصل الرابع
تغييرات دراماتيكية

كان يوماً استثنائياً عندما ساد التَّوتُّر الأجواء في بروكسل في 21 شباط/ فبراير 2005، في مكتب رئيس الوزراء البلجيكي. سيُلقي جورج دبليو بوش، رئيس الولايات المتَّحدة، خطاباً في قاعة كونسرت نوبل، إحدى المباني الكلاسيكية الكبرى في بروكسل. يُعدُّ هذا أوَّل خطاب مُهمٍّ لبوش منذُ إعادة انتخابه قبل ثلاثة أشهر. كان بوش قد استبدل بوزير خارجيته، كولن باول، كوندوليزا رايس، أوَّل امرأة أمريكية من أصل أفريقي، تشغل هذا المنصب الهامَّ للغاية. ولكن رايس، على عكس باول، لم تكن تتمتَّع بخلفية عسكرية، بل كانت أستاذة للعلوم السِّياسيَّة بجامعة ستانفورد. أدَّى هذا إلى انتشار آمال جديدة في أوروبا والشرق الأوسط، بسياسة خارجية مختلفة للولايات المتَّحدة.

تقرَّرَ أن يُلقي رئيس الوزراء البلجيكي غاي فيرهوفشتات كلمة افتتاحية، ولكن هذا لم يكن مؤكَّداً على الإطلاق. لقد عرقل فيرهوفشتات في عام 2003، إلى جانب فرنسا وألمانيا، قرار الناتو بالشروع في الحرب في العراق، ممَّا أجبر الولايات المتَّحدة على إنشاء "تحالف الإرادة". ردُّ فعل جورج دبليو بوش هذا جاء ردَّاً على خيبة الأمل الأمريكية، فقد قال لشبكة سي إن إن إنه لم يفهم هذا القرار، لأنه أثَّر على التحالف تأثيراً سلبياً. وكانت إدارة بوش تعبِّر عن غضبها الشديد خلف الأبواب المغلقة، وأصبحت الأمور مرشَّحة للمزيد من السوء. رفعت سبع عائلات عراقية دعوى أمام محكمة بلجيكية ضدَّ بوش، متَّهمين إيَّاه بارتكاب جرائم حرب. سمح قانون بلجيكي

جديد للمحاكم البلجيكية بالنظر في قضايا جرائم الحرب أينما ارتُكبت في العالَم، ممَّا يعني أن المحاكم البلجيكية يمكنها مقاضاة الأميركيِّيْن، وإصدار أوامر اعتقال ضدَّهم. ولا داعي للقول إن العلاقة بين الولايات المتَّحدة والحكومات البلجيكية قد تدهورت ووصلت إلى مرحلة سيِّئة للغاية. ظهر بوش على غلاف مجلَّة "الإيكونوميست" مع عنوان يقول "بوش يذهب إلى بلجيكا"، يصوِّر الرئيسَ على متن زورق في الغابة محاطاً بأشخاص مختبئين بين الأشجار حاملين سهاماً مسمومة.

كنتُ في ذلك اليوم من شهر شباط/ فبراير بالذات كاتب الخطابات لرئيس الوزراء البلجيكي. قضيتُ عدَّة أيَّام في تنقيح كل جملة وكل كلمة، فهذا الخطاب من الخطب ذات الأهمِّيَّة الكبيرة على الأقلِّ بالنسبة إلى بلدنا. إن مجرَّد إدلاء فيرهوفشتات بالخطاب التَّمهيديِّ كان إنجازاً دبلوماسياً عظيماً، بذلتْهُ جميع الجهات. يعود السبب الأساسي إلى فَهْم إدارة بوش بأن العلاقات بين الولايات المتَّحدة والاتِّحاد الأوروبي تحتاج إلى إعادة تفعيل. أدرك الرئيس الأمريكي أن موقفه سوف يكون أقوى إذا اصطفَّ معه شركاؤه الأوروبيِّيْن. عندما دخلت قاعة كونسرت نوبل حاملاً بطاقة الدعوة في يَدي، تلمَّستُ الأمل في الأجواء.

أكَّد فيرهوفشتات في خطابه التَّمهيديِّ على الحاجة إلى التعاون بين الولايات المتَّحدة وأوروبا. يحتاج الإنسان إلى كلتا السَّاقَيْن، ليمضي قُدُماً. شعر الجمهور بالسعادة عند سماع هذا، ولكنهم كانوا مهتمِّين بمعرفة ما إذا كان الرئيس الأمريكي سيقول الشيء نفسه. لم يُخيِّب الرئيس بوش أمل الأوربيِّيْن. ثمَّ غيَّر النغمة بنغمة جديدة قائلاً: "تواجه أمريكا وأوروبا اليوم لحظة من التبعات الثقيلة والفرص المفتوحة. يمكننا معاً وضع قطار التاريخ على سكَّة الأمل مجدَّداً، بعيداً عن الفقر واليأس، والسعي قُدُماً نحو التنمية وكرامة الحكم الذَّاتيِّ، بعيداً عن السخط والعنف، والسعي نحو العدالة والتسوية السِّلْمِيَّة للخلافات". استقبل الجمهور هذه الكلمات

استقبالاً جيِّداً مع الكثير من التصفيق. بدا التاريخ في تلك اللحظة وكأنه يسير في الاتِّجاه الصحيح.

كان عام 2005 عاماً مفعماً بالأمل، فقد بدا المستقبل مشرقاً حقَّاً. انضمَّت عشر دول جديدة إلى الاتِّحاد الأوروبي قبل بضعة أشهر فحسب، في الأوَّل من أيَّار/ مايو 2004. سبعة دول منها كانوا أعضاء سابقين في الكتلة الشَّرقيَّة بقيادة موسكو: بولندا، المجر، لاتفيا، إستونيا، ليتوانيا، سلوفينيا، وجمهورية التشيك. كانت دول البلطيق الثلاث حتَّى عام 1991 جزءاً من الاتِّحاد السُّوفيتيِّ، ممَّا يعني أنها لم تكن دولاً مستقلَّة حتَّى. أمَّا الدولة العضو الجديدة، سلوفينيا، فهي في الوضع نفسه، حيث كانت إحدى الجمهوريات الأساسية في يوغوسلافيا. احتفت جميع أنحاء أوروبا بهذه اللحظة التَّاريخيَّة. أخيراً وبعد مرور خمسة عشر عاماً على سقوط جدار برلين، شعر سُكَّان أوروبا الوسطى أنهم عادوا إلى بلادهم، ومكانهم الطَّبيعيِّ، فقد كان هذا نهاية ما اعتبروه انحرافاً تاريخياً.

في 29 تشرين الأوَّل/ أكتوبر 2004، اتَّخذت أوروبا خطوة تاريخية أخرى، بتوقيعها على الدُّستُور الأوروبي. بعد ثلاث سنوات من النقاش في الاتِّفاقيَّة الأوروبية برئاسة الرئيس الفرنسي السابق فالري جيسكار ديستان، وافقت جميع الدول الأعضاء في الاتِّحاد الأوروبي على طريقة أكثر فعالية للعمل. سوف يؤسِّس الدُّستُورُ لرئاسة أوروبية وسياسة خارجية أوروبية مشتركة مع مفوَّض سامٍ (موظَّف كوزير خارجية أوروبي) والدائرة الأوروبية للشؤون الخارجية (موظَّف في الاتِّحاد مسؤول عن الدِّبلوماسيَّة الأوروبية المشتركة). أعطى الدُّستُورُ البرلمانَ الأوروبي صلاحياتٍ جديدة والمفوَّضيةَ الأوروبية المزيدَ من الصَّلاحيَّات. أصبح العَلَم الأوروبي والنشيد الأوروبي، أي السِّمفونيَّة التاسعة للوديفيغ فان بيتهوفن (1770-1827)، هي الرموز الرَّسميَّة للاتِّحاد الأوروبي.

وافقت المفوَّضيَّة الأوروبية في كانون الأوَّل/ ديسمبر 2004 على بدء محادثات انضمام تركيا إلى الاتِّحاد في العام التالي، ممَّا يعني تجاوُز فكرة أوروبا كشكل من أشكال المشروع المسيحي. وفي فصل الشتاء هذا نفسه بدأت الثورة البرتقالية في أوكرانيا. تظاهر مئات الآلاف من الأشخاص، بقيادة زعيم المعارضة فيكتور يوشينكو ويوليا تيموشينكو، في ميدان الاستقلال في كييف للاحتجاج على الانتخابات المزوَّرة لمصلحة فيكتور يانوكوفيتش. فرض المتظاهرون الذين تحدَّوا ظروف البرد الشديد لفصل الشتاء الأوكراني لأكثر من شهر، عملية إعادة التصويت، والتي فاز بها يوشينكو زعيم المعارضة. بدا أن مستقبل الغرب الحُرِّ والدِّيمقراطيِّ أصبح مضموناً. كتب مارك ليونارد، مدير المجلس الأوروبي للعلاقات الخارجية، في عام 2005، كتاباً أصبح من الكُتُب الأكثر مبيعاً بعنوان "لماذا ستُدير أوروبا القرن الحادي والعشرين؟"، وتوقَّع فيه أن يصبح الاتِّحاد الأوروبي النموذج الذي ينبغي اتِّباعه في جميع أنحاء العالَم، وأنه سوف يتوسَّع أكثر فأكثر نحو جيرانه الشَّرقيِّيْن والغربيِّيْن.

لم يقتصر ذلك الشعور الطافح بالأمل على الغرب وحسب. في شباط/ فبراير 2005، دخل بروتوكول كيوتو حيِّز التنفيذ بعد تصديق 192 دولة عليه. كان هذا أوَّل اعتراف عالمي بوجود ظاهرة الاحتباس الحراري، وبأن السبب وراءها هو انبعاثات ثاني أكسيد الكربون الناتجة عن الأنشطة البشرية. استتبع الاتِّفاق خطَّة عمل للحَدِّ من هذه الغازات المسبِّبة للاحتباس الحراري. كان البروتوكول علامة فارقة في مكافحة التَّغيُّر المناخي، ولكنه كان علامة فارقة في التعاون الدُّوليِّ عموماً أيضاً. كان العالَم بأسره في الوقت نفسه مشغولاً بتكديس الأموال وجمع البضائع لمساعدة البلدان الإحدى عشرة التي دمَّرها أحد أكبر موجات التسونامي في التاريخ.

اقتربت الكثير من الصراعات من نهاياتها عام 2005 على الرغم من الحروب المستمرَّة في أفغانستان والعراق. قرَّر الجيش الجمهوري الأيرلندي

إنهاء كفاحه المسلَّح في سبيل أيرلندا موحَّدة، ومحاولة تحقيق أهدافه من خلال الوسائل السِّياسيَّة. وقَّعت الحكومة الإندونيسية معاهدة سلام مع حركة أتشيه الحُرَّة (حركة المتمرِّدين الانفصاليِّيْن) لإنهاء حرب أهلية، دامت ثلاثين عاماً. وافقت الحكومة السُّودانيَّة ومتمرِّدو جنوب السودان على إنهاء حرب أهلية، دامت عشرين عاماً، أسفرت عن مقتل مليونيَ ضحيَّة. التقى رئيس صيني، وهو جين تاو، مع قيادة الحزب التَّايوانيِّ التَّاريخيِّ، الكومينتانغ، لأوَّل مرَّة منذُ الحرب العالَميَّة الثانية.

مثَّل عام 2005 في منطقة الشرق الأوسط عاماً مَفعَماً بالأمل أيضاً. لم يؤدِّ اغتيال رئيس الوزراء اللُّبنانيِّ رفيق الحريري إلى حرب أهلية جديدة، بل إلى ثورة الأرز الدِّيمقراطيَّة. غادرت القوَّات السُّوريَّة لبنان بعد ما يقرب من ثلاثين عاماً من الاحتلال. غيَّرت مصر دُستُورها، وأجرت أوَّل انتخابات رئاسية. أجرى العراق استفتاءً على دُستُوره الجديد، وبدا أنه يفي بالوعد الدِّيمقراطيِّ للغزو الذي قادتْهُ الولايات المتَّحدة. في نفس العام، خرج 11 مليون عراقي للتصويت لأوَّل برلمان في العراق منذُ الإطاحة بصدَّام حسين. وافقت إسرائيل على وقف إطلاق النار مع فلسطين، وسحبت قوَّاتها من غزَّة. انتُخب محمود عبَّاس رئيساً جديداً لفلسطين. انتعشت آمال السلام الجديدة الكبيرة، عندما قرَّر رئيس الوزراء الإسرائيلي أرييل شارون ترك الليكود، وإنشاء حزب الوسط الجديد، حزب كاديما.

ظهرت أسباب كثيرة للتفاؤل في عام 2005 على الصعيد الاقتصادي أيضاً. وكانت التَّوقُّعات الاقتصادية جيِّدة جدَّاً وفقاً للتقارير التي كُتبت في 2004 أو أوائل عام 2005. نما الاقتصاد بسرعة كبيرة في جميع أنحاء العالَم. كانت البطالة آخذة في التناقص، وكذلك الفقر. تطلَّع الجميع قُدُماً إلى جولة مفاوضات الدوحة للتنمية في كانون الأوَّل/ ديسمبر 2005 في هونج كونج، حيث تفاوضت الدول الأعضاء في منظَّمة التجارة العالَميَّة لخفض التعريفات التِّجاريَّة والحواجز التِّجاريَّة وزيادة التجارة العالَميَّة. وافق

وزراء من جميع دول العالَم تقريباً في هونغ كونغ على إلغاء الدعم المالي للصادرات الزِّراعيَّة بحلول عام 2013، ممَّا اعتُبر إنجازاً كبيراً، سوف يؤدِّي إلى فائدة كبيرة للبلدان النامية، ويعطي زخماً للتجارة العالَميَّة عموماً.

كيف تختلف الأجواء اليوم؟!

لقد تحوَّل الأمل إلى يأس. يبدو أن السياسات طويلة الأجل قد أخفقت، فقد انهارت جولة مفاوضات الدوحة للتنمية، ولم تُنَفَّذ اتِّفاقاتها على الإطلاق. وقد خسرت الرَّأسماليَّة نفسها، الفائز الأكبر عقب انهيار الاتِّحاد السُّوفيتيِّ في عام 1991، الكثير من شرعيَّتها بسبب الأزمة المالية والاقتصادية في 08/2007. لقد انهارت البنوك، لأن حصَّة الأسد من أصولها لم تكن أكثر من مجرَّد فقاعة فارغة. فَقَدَ مئات الآلاف من الناس مدَّخراتهم، وفَقَدَ الآلاف منازلهم، لأن قروضهم كانت في الأساس جزءاً من فقاعة تأمين كبيرة. توجَّب على الحكومات إنقاذ شركات ضخمة مثل جنرال موتورز في الولايات المتَّحدة والبنوك الدُّوليَّة مثل بنك سانتاندر في إسبانيا. أدرك الناس فجأة أن مضاربي وول ستريت في وول ستريت قد قامروا بأموالهم لتحقيق أرباح قصيرة الأجل. لم يقم فيلم "ذئب وول ستريت" (2013) الذي يعيش فيه المتداولون والمضاربون حياة باذخة منحطَّة، من خلال سرقة أموال الناس في التِّسعينيَّات، سوى بتأكيد الفكرة الشائعة التي تقول بأن النظام الرَّأسماليّ لا يُهتمُّ بالبشر على الإطلاق.

أدَّى فقدان الثقة في النظام الرَّأسماليِّ إلى إنشاء حركة "اِحْتَلُّوا وول ستريت". نظَّمت الحركة احتجاجاً في حديقة زوكوتي، الواقعة في الحيِّ المالي في وول ستريت في نيويورك في أيلول/ سبتمبر 2011، مستوحية الفكرة من الاحتجاجات الإسبانية ضدَّ سياسات التَّقشُّف. وتُوِّجَتْ الاحتجاجات بمسيرة، شارك فيها أكثر من 50000 شخص في عيد العمَّال

عام 2012. القضايا الرئيسة التي أثارتْها حركة وول ستريت هي القضايا المتعلِّقة بالشؤون الاجتماعية والاقتصادية وانعدام المساواة، وجشع التُّجَّار والشركات، وتأثير الشركات والعالَم المالي على السياسة. أحد أكثر شعارات الحركة شهرة هو "نحن ٪99"، في إشارة إلى الثروة المتراكمة في أيدي ٪1 من الأشخاص الأكثر غنى في الولايات المتَّحدة. حقَّقت هذه الفكرة زخماً جديداً في عام 2013 عندما نشر الخبير الاقتصادي الفرنسي توماس بيكيتي كتابه "رأس المال في القرن الحادي والعشرين". يقول بيكيتي في كتابه إن الأرقام والحقائق أثبتت أنه على مدار الـ 250 عاماً الماضية، قد تركَّزت الثروة على نحو متزايد في أيدي فئة قليلة، وإنه لا توجد آلية توزيع قادرة على تصحيح ذاتها.

في عام 2012، حصل ٪10 من أصحاب أعلى الدخول على أكثر من نصف إجمالي الدخل العامِّ للولايات المتَّحدة. سوف تغدو المواضيع التي تناولتْها حركة "اِحْتَلُّوا وول ستريت"، وكتاب بيكيتي حجر الزاوية في الحملة الرِّئاسيَّة لبيرني ساندرز. أظهر الدعم الكبير غير المتوقَّع لساندرز مدى عمق وتزايد انعدام الثقة بالمؤسَّسة يوماً بعد يوم.

في أوروبا أيضاً، سرعان ما تحوَّل التفاؤل الذي ساد في عامَي 2004 و2005 إلى نوع من الشَّكِّ والسخرية واليأس. حدث هذا التَّحوُّل النَّفسيُّ قبل الأزمة المالية والاقتصادية في 2008/2007. بعد سنة واحدة من توسيع الاتِّحاد الأوروبي في عام 2004، رفضت دولتان من المؤسِّسين الدُّستُور الأوروبي من خلال الاستفتاءات، فرنسا وهولندا. كانت الحملة حول الاستفتاء مثيرة للاهتمام على نحو خاصٍّ في هولندا، حيث إنها وضعت الأساس للحزب اليميني المتطرِّف لخيرت فيلدرز. ركَّزت حملة "لا" على الحجج ضدَّ الرموز الأوروبية (العَلَم والنشيد الوطني) وضدَّ التَّدفُّق المحتمل للعمَّال البولنديِّيْن. جادلت حملة "لا" أيضاً بأن هولندا دفعت مبالغ كبيرة للاتِّحاد مقارنة بما حصلت عليه في المقابل. وهنا

تعارض الخطاب الهولندي مع الفكرة الأساسية للتكامل الأوروبي: التضامن والحركة الحُرَّة للناس. في فرنسا، قام جزء من الحزب الاشتراكي بحملة ضدَّ الدُّستُور الأوروبي، لأنه سيعزِّز "أوروبا اللِّيبراليَّة الجديدة". عارض حزب اليمين المتطرِّف، الجبهة الوطنية لجان ماري لوبان، تمكين المؤسَّسات الأوروبية معارضة أساسية. وربطت لوبان الدُّستُور أيضاً بانضمام تركيا إلى الاتِّحاد الأوروبي، قائلة إن التصويت بنعم سيعني دخول 80 مليون مسلم إلى أوروبا، ممَّا سيُؤجِّج بالتالي الخوف من الإسلام. كانت حملات "لا" في فرنسا وهولندا تعتمد في جزء كبير منها على حجج كراهية الأجانب، وقد نجحت. لذلك لم يُقرُّ الدُّستُور الأوروبي.

صُدمت أوروبا بأكملها. مثَّلت حملات "لا" الفرنسية والهولندية للدُّستُور الأوروبي أوَّل انتكاسة في عملية التكامل الأوروبي منذُ عدَّة عقود. يضمُّ الاتِّحاد الأوروبي اليوم 27 دولة عضواً، ولم يعد بإمكانه العمل بنفس القواعد التي كان يتبعها اتِّحاد مكوَّن من 15 دولة. قرَّر الزعماء الأوروبيون، على إثر نتائج الاستفتاء في هولندا وفرنسا، إلغاء بعض القضايا الحسَّاسة من الدُّستُور، وإعادة تسميته "معاهدة عمل الاتِّحاد الأوروبي". وقَّعت جميع الحكومات الأوروبية على هذه المعاهدة في لشبونة، في عام 2007، لذلك عُرفت باسم معاهدة لشبونة. ورغم أن هذه المعاهدة قد مرَّت دون مقاومة تُذكَر في جميع البلدان، إلَّا أن شيئاً ما كان قد كُسِر في المثال الأوروبي. ويبدو أن الإرادة العامَّة لزيادة التعاون والتضامن قد حلَّت محلَّها مشاعر أكثر قومية. كان هذا واضحاً للغاية عندما ضربت الأزمة المالية والاقتصادية الاتِّحاد في عام 2008/2007. انهار التضامن الأوروبي عندما بدأت اليونان في الانهيار. لم يتمكَّن الاتِّحاد الأوروبي من الاتِّفاق على ردِّ فعل مشترك على أزمة الخدمات المصرفية. تبيَّن أن البرتغال وإسبانيا وإيطاليا في وضع مالي سيِّئ للغاية. ظهرت أصوات متزايدة في شَمال أوروبا تتحدَّث عن طرد اليونان - وربَّما غيرها من الدول الأعضاء في جنوب

أوروبا - من منطقة اليورو. لعدَّة أشهر بدا الأمر، كما لو أن النظام الأوروبي بأكمله سينهار، وأصبح التفاؤل الذي ساد عام 2005 من الماضي.

لم يتحطَّم الحلم الأوروبي المتمثِّل في المزيد من التعاون، والمزيد من الدِّيمقراطيَّة في قلب القارَّة الأوروبية وحسب، بل أصبحت روسيا دولة أكثر استبدادية بدلاً من المزيد من الدِّيمقراطيَّة. تركَّزت السلطة التي تبادلها كل من فلاديمير بوتين وإلكسندر ميدفيديف، في منصب الرئيس والرئيس الوزراء بالتناوب، في أيدي أقلِّيَّة صغيرة للغاية. كانت إحدى مهامِّهم هي الوقوف في وجه ما يمكن أن يُطلَق عليه "نزعة الأَوْرَبَة Europeanization. لقد حوَّلت روسيا الأحلام والآمال بجورجيا وأوكرانيا حُرَّة وديمقراطية إلى مجرَّد كوابيس، بعد بضع سنوات فقط من ثورتهم. غزت روسيا جورجيا في عام 2008 وأوكرانيا في عام 2014. يمكن تلخيص استراتيجية روسيا على النحو التالي: قد تتمكَّن من مغادرة منزلي، ولكنكَ لن تجد لكَ منزلاً آخر أبداً. خلقت روسيا، آخذة هذا الهدف بعين الاعتبار، نزاعاً دائماً في كل من هاتَيْن الدَّولَتَيْن باحتلال جزء من أراضيهما. استخدمت روسيا هذه الاستراتيجية منذُ انهيار الاتِّحاد السُّوفيتيِّ في عام 1991. تُسمَّى هذه الصراعات باسم "الصراعات المجمَّدة". أنشأت روسيا في مولدوفا دولة ترانسنيستريا الصغيرة، على حدودها مع أوكرانيا. وفي جورجيا، احتلَّت روسيا (التي تدَّعي أنها قدَّمت الحماية" كلاً من أبخازيا وأوسيتيا الجنوبية. وفي أوكرانيا، دفعت من أجل استقلال شبه جزيرة القرم ودونباس، أو "روسيا الجديدة". وقد ادَّعت روسيا في كل حالة من الحالات المذكورة، أنها جاءت لدَعْم الأقلِّيَّات الرُّوسيَّة أو الأقلِّيَّات الأخرى التي تسعى للاستقلال.

استنتجتُ بعد زيارتي لبعض مناطق الصراعات المجمَّدة أن هذا النزوع للاستقلال الذي أدلت به الأقلِّيَّات الرُّوسيَّة و/ أو غيرها من الأقلِّيَّات نزوع مشكوك فيه للغاية؛ وتتبدَّى هذه في القضية الأكثر وضوحاً، وهي حالة أبخازيا. استقلَّ الوفد الأمريكي الأوروبي الذي كنتُ جزءاً منه طائرة

صغيرة تابعة للأمم المتَّحدة من قاعدة عسكرية في جورجيا إلى سوخومي، عاصمة أبخازيا. اضطرَّت الطائرة إلى التحليق فوق البحر الأسود بدلاً من التحليق فوق البرِّ، بسبب خطر إسقاطها. مررنا بعد وصولنا، في طريقنا من مطار سوخومي إلى مبنى الحكومة، بطُرُق واسعة مليئة بالفلل الفارهة، ولكنها كانت فارغة، مفصولة عن بعضها البعض بأشجار النخيل. بدَتْ هذه المنطقة وكأنها كاليفورنيا على البحر الأسود. عندما التقيْنا وزراء الحكومة الانفصالية، حاولوا إقناعنا بأن تاريخ وثقافة ولغة أبخازيا فريدة من نوعها، ولا تنتمي إلى جورجيا أبداً. سألهم كاي إيدي، الدِّبلوماسيُّ النّرويجيّ ومبعوث الأمم المتَّحدة إلى أفغانستان فيما بعد، سؤالاً بسيطاً: "هل يمكنكم التَّحدُّث باللغة الأبخازية؟"، فخيَّم الصمت على الجميع. أصبح من الواضح أن هؤلاء الوزراء الأبخازيِّيْن "المزيَّفين" عبارة عن أشخاص روس، وضعتْهم موسكو هناك. كانت مهمَّتهم الأساسية هناك تسليم جوازات السفر الرُّوسيَّة لجميع المواطنين الأبخازيِّيْن، للادِّعاء لاحقاً بأن المنطقة كانت منطقة روسيَّة، وليست جورجيَّة. عندما غزت روسيا أراضي أبخازيا في عام 2008، ادَّعى الروس أن عليهم حماية المواطنين الروس من العنف الجورجي. حطَّم هذا الاحتلال الرُّوسيُّ أحلام جورجيا ورئيسها آنذاك ميخائيل ساكاشفيلي بالانضمام إلى حلف الناتو والاتِّحاد الأوروبي. لقد أُنجزت بالفعل مهمَّة بوتين. وتخلَّى الجميع عن الشعب الجورجي الذي خاب أمله بشأن الدعم والتضامن الدُّوليِّ.

تحوَّلت آفاق السلام إلى صراعات جديدة في منطقة شرق آسيا أيضاً. عندما أسقطَ آخر حاكم لهونغ كونغ، كريس باتن، العَلَمَ البريطانيَّ في عام 1997، اتَّفقت الصين والمملكة المتَّحدة على أن هذه الدولة الصغيرة الغنية، ستحتفظ بوضع اقتصادي وسياسي مستقلّ رغم كونها جزءاً من الصين. في عام 2014، تراجعت الصين عن وعودها، وتدخَّلت في العملية الدِّيمقراطيَّة في هونغ كونغ. أدَّى ذلك إلى ما أُطلق عليه اسم "حركة

المظلَّات"، الحركة المؤيِّدة للدِّيمقراطيَّة، والتي تستخدم المظلَّات كدليل على المقاومة السَّلبيَّة لشرطة هونغ كونغ، والتي نظَّمت اعتصامات كبيرة من أيلول/ سبتمبر إلى كانون الأوَّل/ ديسمبر من نفس العام. في عام 2011، قُبض على الفنَّان الصِّينيّ الشهير وناشط حقوق الإنسان آيويوي في المطار الدَّوليّ للعاصمة بكين، واحتُجز لمدَّة 81 يوماً دون توجيه أيِّ تهم رسميَّة إليه. وبقي تحت الإقامة الجبرية بمجرَّد إطلاق سراحه لعدَّة سنوات. كان هذا بمثابة تذكير بأن الانفتاح السِّياسيَّ للصين لم يكن ذلك الانفتاح الذي افترضه العالَم.

وممَّا يثير القلق بنفس القدر تدهور العلاقة بين الصين واليابان. في عام 2006، أصدرت الصين واليابان تقريراً تاريخياً مشتركاً، توصَّل فيه البلدان إلى توافق في الآراء بشأن الأعمال الوحشية التي ارتُكبت خلال الحرب العالَميَّة الثانية. تبع التقرير الزيارات الرَّسميَّة الأولى منذُ عقد كامل. في أيَّار/ مايو 2008، زار الرئيس الصِّينيُّ هو جين تاو اليابان، وبعد بضعة أشهر، ذهب رئيس الوزراء الياباني آسو تارو إلى الصين. اندلعت توتُّرات جديدة في 2010، العام الذي تفوَّقت فيه الصين على اليابان، باعتبارها ثاني أكبر اقتصاد في العالَم. أدَّى النزاع حول جزر سينكاكو في بحر الصين الشَّرقيِّ، التي تدَّعي كلٌّ من الصين واليابان امتلاكها، إلى عدد من الحوادث. وفي عام 2010 أيضاً، خفَّضت الصين حصَّتها التَّصديريَّة للمعادن إلى اليابان، ممَّا أضرَّ الاقتصاد الياباني بشدَّة. في عام 2012، اشترت الحكومة اليابانية ثلاثة جزر من جزر سينكاكو من مالك خاصٍّ. وبعد ذلك بعامَيْن، اشتبكت المقاتلات اليابانية والصِّينيَّة تقريباً في المجال الجوِّيِّ المتنازَع عليه فوق بحر الصين الشَّرقيِّ. في عام 2013، زار رئيس الوزراء الياباني شينزو آبي "ضريح ياسوكوني" المثير للجدل. يسرد هذا الضريح أسماء ما يقرب من 2.5 مليون جندي ومواطني ماتوا في خدمة إمبراطورية اليابان منذُ عام 1868. ويعتبر أكثر من ألف من هؤلاء الرجال مجرمي حرب.

كانت زيارة آبي هي أوَّل زيارة لرئيس وزراء منذُ عام 2006، وقد أُجريت هذه الزيارة بمعرفة تامَّة أنها ستثير غضب الصين بسبب "تمجيد التاريخ العسكري الياباني للغزو الخارجي والحكم الاستعماري". تلاشى حينها خطاب التعاون الحذر، وأصبحت الشُّعوبيَّة والقومية هي الخطاب الجديد. استبدلت بنافذة الأمل الخوف من اندلاع صراع إقليمي جديد، حتَّى إن بعض المحلِّلين يتوقَّعون حرباً قادمة.

أمَّا المنطقة التي تحمل أعلى معدَّل لليأس، فهي بلا شكٍّ: العالَم العربي. لم يتبقَّ شيء من شرارة التفاؤل التي سادت عام 2005. تحوَّلت الانتخابات الرِّئاسيَّة في مصر لعام 2005 إلى عملية تزوير. تعرَّض الرئيس حسني مبارك للضغوط من قبَل الولايات المتَّحدة لتنظيم الانتخابات، لكنه كان مستاء للغاية عندما قرَّر أحد معارضيه، أيمن نور، التَّرشُّح للرئاسة. حصل نور على 7٪ من الأصوات في تزوير كبير للعملية الانتخابية.

قُبض على أيمن نور بعد وقت قصير من الانتخابات بتهمة "التزوير"، وحُكم عليه بالسجن أربع سنوات. في العراق، لم تُوقِف انتخابات 2005 موجة هجمات المتمرِّدين. زاد عدد الهجمات من 26.496 في عام 2004 إلى 34.131 في عام 2005.

ارتكب تنظيم القاعدة في العراق بقيادة أبي مصعب الزرقاوي جزءاً كبيراً من هذه الجرائم، حيث كانت تكتيكاته عنيفة وطائفيَّة، لدرجة أن أسامة بن لادن طلب منه أن يكبح جماحه قليلاً. قُتل الزرقاوي على أيدي القوَّات الأمريكية في عام 2006، لكن إرثه سيؤدِّي إلى صعود الدولة الإسلامية في العراق والشام أو داعش.

كان عام الأمل المشرق في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا هو عام 2011، عام الربيع العربي. شهد العالَم بأسره الصور التي لا تُنسى لمئات الآلاف من الناس الذين يملؤون الساحات والشوارع في تونس

ومصر والبحرَيْن واليمن وليبيا والأردن والمغرب وسوريا. تحوَّل الإعجاب بشجاعتهم إلى اندهاش عندما أطاحوا بالدِّيكتاتوريِّيْن واحداً تلو الآخر، وأزاحوهم عن عروشهم. أصاب شعار: الشعب يريد إسقاط النظام، جميع المؤسَّسات الرَّسميَّة في جميع أنحاء العالَم العربي بالرعب. كانت الأجواء مليئة بالأحلام والنشوة.

عندما زرتُ ميدان التحرير في القاهرة بعد أسابيع قليلة من سقوط مبارك، شعرتُ وكأنني أطأ أرضاً مقدَّسة. لم يسبقْ لي أن رأيتُ الكثير من التفاؤل الحقيقي كما رأيتُهُ في مصر في الأشهر الأولى من عام 2011.

أمَّا اليوم، فقد عاد اليأس والاكتئاب بانتقامه من جديد. كانت تونس بلد الربيع العربي الوحيد الذي نجح إلى حَدٍّ ما في أن يتحوَّل إلى دولة ديمقراطية. لم تُنفِّذ الدولة في المغرب والأردن أيَّاً من وعودها بالإصلاح. دخلت مصر في ديكتاتورية جديدة وقَمْعيَّة. غاصت ليبيا في رمال الفوضى.

بدأت اليمن بداية جيِّدة، ولكنها غرقت في حرب أهلية، تطوَّرت إلى حرب إقليمية. لم يعد يمكن أن نُطلق على العراق اسم الدولة بعد انتعاش داعش في عام 2014. أصبحت سوريا واحدة من أسوأ الكوارث الإنسانية في التاريخ الحديث. وعندما فَقَدَ العالَمُ آماله في العالَم العربي، فَقَدَ العرب ثقتهم في المجتمع الدُّوليِّ. إن الجيل الثَّوريَّ الشَّابَّ خائب الأمل للغاية بانعدام الدعم الغربي للدِّيمقراطيَّة، ومليء بالغضب من الدعم الضئيل لحقوق الإنسان والاستعداد الغربي لمصافحة كلِّ مَنْ في السلطة أيَّاً كان. إن صمت الزعماء الأميركيِّين والأوروبيِّيْن حول عمليات الخطف والسجن والتعذيب اليومية للأشخاص، بسبب ترويجهم "للقِيَم الغربية" قد جعل معظم الناشطين ساخطين وساخرين للغاية.

كان إخفاق المجتمع الدُّوليِّ في التَّحرُّك، ولا يزال، واضحاً للغاية في سوريا. زرتُ شمال سوريا في بداية عام 2013، لأرى بأُمِّ عينَيَّ ما يجري

في هذه المنطقة التي يسيطر عليها المتمرِّدون. سافرتُ مع اثنَيْن من الناشطين السُّوريِّيْن الشباب، رامي الجرَّاح وضياء دغمش. كان كل منهما منذُ البداية في دمشق بين الكثير من الناشطين الذين احتجُّوا وتظاهروا ضدَّ النظام الدِّيكتاتوريِّ لبشَّار الأسد. وقد اضطرَّا، مثل الكثير من الناشطين، إلى الفرار من سوريا للنجاة بحياتَيْهما. قابلتُهما في القاهرة، حيث رأيت كيف كانا على اتِّصال دائم مع المواطنين الصّحفيِّيْن في جميع أنحاء سوريا.

كانت مهمَّتهما اختيار مقاطع الفيديو المصوَّرة باستخدام الهواتف المحمولة وإجراء عمليات المونتاج عليها ونشرها باللُّغَتَيْن العربية والإنجليزية. قرَّرْنا الذهاب إلى شَمال سوريا، لنرى بأنفسنا كيف كان الوضع بعد عامَيْن من بدء الانتفاضة.

أخذنا الطائرة من القاهرة إلى أنطاكيا، المدينة التُّركيَّة القريبة من الحدود السُّوريَّة. قابلْنا هناك العديد من ضُبَّاط الجيش السوري الحُرِّ. أخبرَنا هؤلاء الضُّبَّاط أنهم أتوا من مُدُن منكوبة مثل حمص وحماه والرَّقَّة لجَلْب الطعام والبطَّانيَّات والذخيرة، والعودة بها إلى مسقط رأسهم. كان الطريق خطيراً جدَّاً، ولكنهم، بالنهاية، لم يحصلوا على شيء.

سألتُهم عن سبب تكبُّدهم كل هذه المخاطر بينما تقوم الأمم المتَّحدة بتوزيع الطعام والبطَّانيَّات بملايين اليوروهات، فأجابوا أنهم لم يتلقَّوا أيَّ نوع من أنواع هذا الدعم. لم أفهم السبب حقَّاً، ولكن ما أدهشني حقَّاً هو حقيقة أن هؤلاء الضُّبَّاط لم يكونوا بلطجية أو إسلاميِّيْن، بل على العكس تماماً كانوا راقين ومحترمين ولطيفين، حيث أخبروني أن كل ما يقاتلون من أجله هو سوريا حُرَّة وديمقراطية لجميع السُّوريِّيْن.

قضيْنا يومَيْن في أنطاكيا، ثمَّ قرَّرْنا أن الوقت قد حان للذهاب إلى منطقة الحرب بأنفسنا. أخذنا سيَّارة أجرة لمقابلة عبد الناصر فرزات، الجنرال السابق في الجيش السُّوريِّ، الذي انشقَّ وانضمَّ إلى الجيش

السوري الحُرِّ. أخذَنا فرزات بعد بضعة أكواب من الشاي إلى الحدود التُّركيَّة السُّوريَّة. شاهدْنا في الطريق مئات الشاحنات المحمَّلة بالمساعدات، والتي تنتظر الدخول إلى سوريا. انزعجْنا للغاية عند وصولنا إلى معبر باب الهوى الحدودي، والذي كان مغلَقاً في وجه الشاحنات والناس. بدا أن رحلتنا كانت بلا معنى. ولكن الجنرال مع ذلك ابتسم، وأخذنا إلى طريق صغير بجوار نقطة التفتيش الحدودية الرَّسميَّة. عبرْنا الحدود بصمت، وعلى نحو غير قانوني، وصَعِدْنا إلى سيَّارة كانت تنتظرنا على الجانب السُّوريِّ. ذرعت السَّيَّارة الطُّرُق الصغيرة، وتخطَّت العديد من نقاط التفتيش الكردية في الشوارع إلى مدينة أعزاز.

استضافنا أحد الجنود المتمرِّدين، وقاد بنا السَّيَّارة داخل المدينة. لم أُصدِّق عينَيَّ، فنصف المدينة كان عبارة عن مجرَّد ركام. لم نقابل إضافة إلى مضيفنا أيَّ متمرِّدين أو جنوداً مسلَّحين. كانت مدينة بمتاجر مفتوحة، والناس يسيرون في الشوارع، والأطفال يلعبون في الساحات. أرانا الدليل السوقَ الذي تمَّ تدميره بالكامل. كان قد سقط عليه صاروخان كبيران يوم الأربعاء الماضي، وهو أكثر أيَّام الأسبوع ازدحاماً، وقُتل على الفور ٣٠ شخصاً. أُصيب 300 آخرون بجروح خطيرة، معظمهم من النساء والأطفال. كان لا يزال هناك أشخاص مدفونون تحت الأنقاض، لكنْ، لم يكن لديهم المعدَّات المناسبة لاستخراج هذه الجثث. بكى دليلنا، وسألنا لماذا يفعل الأسد هذا؟! وقال إن هؤلاء ليسوا إرهابيِّيْن. نظر في عينَيَّ بيأس، وسألني عن سبب عدم وجود أيِّ ردٍّ فعل من أوروبا والمجتمع الدُّوليِّ.

أخذنا الدليل نفسه إلى المخبز الوحيد الذي لا يزال يعمل في المدينة. كانت المخابز الأخرى قد استُهدِفَتْ ودُمِّرَتْ من قبل قوَّات الأسد. بقي هذه المخبز سليماً بالصدفة المحضة وحسب، فقد سقط الصاروخ على المبنى المجاور. تساءلتُ عن نوع المساعدات التي تلقَّاها سُكَّان هذه المدينة، فنظر إليَّ نظرة ساخرة، وقال إنهم لم يتلقَّوا مساعدات دولية على الإطلاق.

عدْنا بعد ذلك إلى منزل الجندي المتواضع للغاية لتناول العشاء. انضمَّت مجموعة صغيرة من الجنود إلينا، وأخذوا يشتكون من عدم تلقِّيهم أيّ ذخيرة، قائلين للجنرال: "كيف يمكننا حماية أهلنا، إذا لم يكن لدينا أسلحة؟". أجابهم الجنرال بأن الولايات المتَّحدة وعدت بإرسال بعض السلاح، وأنه ينتظر مثلهم. هزَّ الثُّوَّار أكتافهم قائلين إن الولايات المتَّحدة لطالما وعدتْ بأشياء لا تُنفِّذها على الإطلاق، ثمَّ هدَّدوا الجنرال بأنهم سوف ينضمُّون إلى جبهة النصرة، فرع القاعدة في سوريا، فالنصرة على الأقلِّ لديها أسلحة، وتدفع رواتب لمسلَّحيها. عندما أجاب الجنرال أن جبهة النصرة لا تقاتل لمستقبل سوريا، وافقوا على كلامه، ولكنهم أوضحوا أنهم بحاجة أيضاً إلى إطعام أُسَرهم. عندما غادر الجنود، وأخذنا نستعدُّ للنوم، سمعتُ فجأة صوت طائرة تُحلِّق فوقنا، ولم تكن بعيدة عن المكان الذي كنَّا فيه. تلا ذلك عدَّة انفجارات. كان الأسد يُسقِط براميل متفجِّرة على قرية قريبة. سألتُهم مرعوباً إذا ما كانت الطائرات ستأتي نحونا. فأجابني بهدوء: "لا أعلم، أتمنَّى ألَّا تفعل".

كانت السخرية من المجتمع الدُّوليِّ منتشرة في كل مكان .رأيتُ في أثناء رحلتي بالسَّيَّارة إلى الخطِّ الأمامي بالقرب من مطار كويريس، على مقربة من حلب، مجموعات من الثُّوَّار يحملون قنابل يدوية. كان الضابط القائد للمجموعة طبيباً، وقد أخبرني أنه لم يكن يرغب بالقتال، ولكنْ، لم يكن أمامه أيُّ خيار آخر: لقد أراد سوريا أخرى، ليعيش فيها أبناؤه. رمى ورفاقه قنبلَتَيْن على المطار، الذي يُعدُّ المَعقِل المحلِّيَّ لجيش الأسد. جاء ردُّ قوَّات الأسد بسرعة، وسقطت القنابل على بُعد أمتار قليلة من موقعنا. طلب منِّي الطبيب أن أُبقي رأسي منخفضاً، لأن هناك قنَّاصة على السطوح المجاورة. تملَّكني الرّعب، وأردتُ أن أغادر في أسرع وقت ممكن. بعد بضع ساعات من الشَّدِّ العصبي، أعادتْنا السَّيَّارة إلى الحدود، لزيارة أحد مخيَّمات اللَّاجئين في الأراضي السُّوريَّة.

لا تزال الصور والمشاهد التي رأيتُها هناك تطاردني حتّى اليوم.

كنّا في فصل الشتاء في سوريا، والجوُّ بارد وماطر. وصلْنا إلى المخيَّم في الظلام. لم يكن هناك سوى ضوء واحد. سمح لنا مدير المخيَّم بعد القليل من المفاوضات بالدخول. رأينا بعض الخيام التي كانت تعيش فيها عائلات بكل ممتلكاتها. لم يكن هناك أيّ أدوات تدفئة، ولا مراحيض، وكان كل شيء رطباً وموحِلاً. انتشرت شائعة حول قيام مسؤول أوروبي بزيارة المخيَّم بسرعة. اقترب الأب ليُريني طفله البالغ من العمر عاماً واحداً فقط. أُصيب الطفل بشظية، سبَّبت جرحاً لا يزال مفتوحاً في ساقه. كان الأب يائساً للغاية لعدم وجود مساعدة طبِّيَّة. كان هناك اثنا عشر ألف شخص يعيشون هناك، منهم 8000 من الأطفال. أخذني المدير إلى المطبخ. لم يكن لديهم حليب منذُ أسبوعَيْن. لم يتبقَّ سوى طعام كافٍ لتناول وجبة واحدة. عندما سألتُ ماذا سيفعل بعد تلك الوجبة، أخبرني أنه لا يعرف، لكنه يثق بالله. وبَكَيْتُ، بكيتُ لأوَّل مرَّة منذُ سنوات عديدة. لقد شعرتُ بالعار الشديد، لكوني مواطناً من الاتِّحاد الأوروبي.

بالكاد صدَّقني صُنَّاع القرار الأوروبيِّيْن عندما عدتُ إلى بروكسل، لأرويَ هذه القصَّة. أَرَوْني خرائط وأرقاماً حول كيفية توصيل المساعدات إلى جميع الأماكن في سوريا. كانت هذه حقائق وأرقام الأمم المتَّحدة والصليب الأحمر. لم يُنكروا أن لديهم قواعد، ينبغي عليهم اتِّباعها، وأن كل المساعدات ستذهب عبر دمشق. رفضوا الاعتراف بأن بشَّار الأسد لم يسمح للصليب الأحمر بدخول مناطق المتمرِّدين. كانت هذه (وما تزال) كذبة كبيرة. إن هذه القصَّة التي أرويها مجرَّد واحدة من آلاف القصص حول الخيانة والوعود التي لم تُنَفَّذْ في سوريا. لا عجب أن الكثير من الناس فَقَدُوا ثقتهم في المجتمع الدُّوليِّ. منذُ عام 2011، اجتاحت هؤلاء الناس القصص والصور المروِّعة في الصحف، وعلى شاشات التلفاز وعلى شبكة الإنترنت بمعدَّل يومي. إذا كان قد أُطلق على الربيع العربي اسم "ثورة

الفيسبوك"، فيمكننا أن نُسمِّي الحرب في سوريا اسم "حرب الفيسبوك". يستحيل تجاهل صور الأطفال والنساء الذين يتعرَّضون للقصف والتعذيب حتَّى الموت. وعلى الرغم من أن القليل من الناس يفهمون هذه الحرب، إلَّا أن الجميع يعرفون ما يكفي، ليتملَّكهم اليأس حول حقيقة أنه لم يتمّ فعل شيء لوقف هذه الفظائع.

يُلقي الكثيرون بلائمة هذا الإخفاق الأخلاقي على القوى الكبرى، الولايات المتَّحدة وأوروبا والأمم المتَّحدة لعدم وفائها بالتزامها بحماية القِيَم التي تُروِّج لها. وإذا لم تقم هذه القوى بالدفاع عن حقوق الإنسان، فَمَنْ هو الذي سيقوم بذلك؟ أم أن هذه القوى أصبحت عاجزة، وما نراه هو مجرَّد انهيار للنظام الدُّوليِّ الذي نعرفه؟

هذه هي الأسئلة الأساسية التي تُلقي بالكثير من ظلال الشَّكِّ واليأس على الأزمة النَّفسيَّة التي بدأت في عام 2005. تشير هذه الأسئلة إلى تغيير جذري في الطريقة التي ننظر بها إلى المستقبل. كنَّا على ثقة في نهاية القرن العشرين من أننا نعرف مجرى التاريخ، واليوم يبدو أننا قد فقدْنا البوصلة.

الفصل الخامس
ضياع البوصلة

بدا العالَم وعلى مدى عقدَيْن من الزمن مقتنعاً بأن جميع المؤشِّرات تشير إلى نفس الاتِّجاه: المزيد من الدِّيمقراطيَّة والانفتاح الاقتصادي والمزيد من حقوق الإنسان والمزيد من التعاون الدُّوليِّ. يعتقد المتفائلون أن ذلك سيحدث بسرعة في الوقت الذي يحذِّر فيه الأكثر تشاؤماً من حدوث نكسات محتملة، ولكن الجميع تقريباً ظنُّوا أن الاتِّجاه واضح. فالوصول إلى غاية تحقيق نظام عالمي أكثر ليبرالية ليس سوى مسألة وقت وحسب، على الرغم من وجود خلافات حول الاستراتيجية. لم يصبح كتاب المنظِّر السِّياسيِّ الأمريكي فرانسيس فوكوياما "نهاية التاريخ" (1992) الكتاب الأكثر مبيعاً بفضل تحليلاته الدقيقة وحسب، بل كان أيضاً عبارة عن أطروحة، آمن بها الجميع: لقد انتهت المعركة بين الإيديولوجيات، لأن اللِّيبراليَّة الدِّيمقراطيَّة وسيادة القانون والرَّأسماليَّة هي الأنظمة الوحيدة الناجعة. لقد سقط جدار برلين في نهاية الأمر عام 1989 وتفكَّك الاتِّحاد السُّوفيتيُّ بعد ذلك بعامَيْن، وانهارت الشُّيوعيَّة التي تمثِّل النظرة العالَميَّة الوحيدة المنافِسة.

لم يعد هذا صحيحاً اليوم، فالقوى القديمة المعادية للنظام اللِّيبراليِّ، وهي القومية الاستبدادية والتَّطرُّف الدِّينيُّ قد عادت لتنتقمَ. يتجسَّد المثال الساطع على عودة القومية الاستبدادية في روسيا، وقد وصل التَّطرُّف الدِّينيُّ إلى أعلى مستوياته المرعبة في العالَم العربي، وفي أجزاء أخرى من أفريقيا (السودان ونيجيريا ومالي، والنيجر) والهند وميانمار أيضاً.

ما يُدهِش حقّاً أن الولايات المتَّحدة الأمريكية وأوروبا، المضخَّتَيْن الرئيسَتَيْن للحُرِّيَّة والدِّيموقراطيَّة، تبدوان متعثِّرَتَيْن. فقدت كلا هاتَيْن القوَّتَيْن الرَّائدَتَيْن في هذه المجالات زخمهما، لأنهما تواجهان صعوبات في اتِّخاذ القرارات اللَّازمة للمضي قُدُماً في هذا الطريق. شاهدتُ خلال السنوات الخمس التي عشتُها وعملتُ فيها في مجال التَّحوُّل الدِّيمقراطيِّ في الشرق الأوسط وشَمال إفريقيا، جاذبية النموذج الغربي تتراجع بين السِّياسيِّيْن والأكاديميِّيْن والناشطين.

لم يفهم الناس لماذا حاول مجلس الشيوخ الأمريكي الوقوف في وجه كل مبادرة من مبادرات الرئيس، لأنه كان ببساطة ينتمي إلى الحزب المضادِّ، وازدادت صدمتهم بسماع اللغة العنصرية والمسيئة في الفترة التي تسبق الانتخابات الرِّئاسيَّة الأمريكية.

وفي أوروبا كان الوضع مروِّعاً بنفس القدر أيضاً. لقد بدا أنه من الممكن لإحدى الدول الأعضاء في الاتِّحاد الأوروبي أن تعمل على نحو مضادٍّ للحُرِّيَّات الدُّستُوريَّة. تمكَّن رئيس وزراء المجر، فيكتور أوربان، من تقييد صلاحيات المحكمة الدُّستُوريَّة، والسيطرة على الإذاعات الحكومية، والحَدِّ من حُرِّيَّة وسائل الإعلام الأخرى. ونَحَتْ بولندا نحو "النموذج" المجري بعد فوز ياروسلاف كاتشينسكي وحزبه، حزب القانون والعدالة المحافظ. لذلك فَقَدَ الاتِّحاد الأوروبي الكثير من مصداقيته كونه غير قادرٍ على إيقاف كل هذه الأشياء. كيف يمكن أن تنتقد أوروبا حكومة أفريقيةً أو شرق أوسطية لانتهاكها الحُرِّيَّات الدِّيمقراطيَّة، إذا كانت حكوماتها تفعل الشيء نفسه بالضبط؟

إن للضعف المتزايد للنموذَجَيْن الأوروبي والأمريكي تأثيراً كبيراً على نطاق عالمي.

نشر العالِم الأمريكي البارز في شؤون الدِّيمقراطيَّة، لاري دياموند، في عام 2008، مقالاً في مجلَّة "فورين أفيرز" بعنوان: "نكوص الدِّيمقراطيَّة: انبعاث الدولة المفترسة". رأى دياموند أنه منذُ عام 1974 مرَّت أكثر من 90 دولة بمرحلة الانتقال الدِّيمقراطيِّ، ومع نهاية القرن 60٪ من الدول المستقلَّة كانت دولاً ديمقراطية. ولكن هذا الاتِّجاه نحو الدِّيمقراطيَّة قد انعكس اعتباراً من 2006/2005. كتب دياموند قائلاً: "لا يزال الاحتفاء بالنصر الدِّيمقراطيِّ سابقاً لأوانه"، وتحدَّث في مقالات أحدث حتَّى عن "كساد ديمقراطي".

كان عام 1974 بداية لما يُسمَّى بـ "الموجة الثالثة من الدِّيمقراطيَّة"، مع ثورة القَرَنْفُل في البرتغال التي وضعت حدَّاً للدِّكتاتوريَّة القومية التي امتدَّت لمدَّة 48 عاماً بقيادة أنطونيو دي أوليفيرو سالازار(1881-1970)، وخلفه مارسيلو كايتانو (1906-1980). وفقاً لتصنيف المنظِّر السِّياسيِّ صموئيل هنتنغتون (1927-2008) فإن الموجة الأولى من الدمقرطة قد بدأت في أوائل القرن التاسع عشر، وانتهت خلال الحرب العالَميَّة الثانية، وجاءت بعد ذلك الموجة الثانية، والتي انتهت لاحقاً في السِّتِّينيَّات. التحقت اليونان في نفس العام بالرَّكْب مع انهيار حكم الطغمة العسكرية في عام 1974، وانبعاث الدِّيمقراطيَّة. وبعد سنة واحدة، مات الدكتاتور الإسباني فرانشيسكو فرانكو (1892-1975)، وأجرت إسبانيا بعد سَنَتَيْن أوَّل انتخابات حُرَّة وديمقراطية.

اكتسبتْ الموجة الثالثة من الدِّيمقراطيَّة العالَميَّة زخماً في جميع أنحاء العالَم. قاد وأسَّس ليخ فاونسا، الكهربائي في أحواض بناء السفن في غدانسك في بولندا في عام 1980، أوَّل نقابة عمَّاليَّة مستقلَّة في الكتلة الشُّيوعيَّة، نقابة سوليدرتي. وتمكَّنت سوليدرتي رغم سنوات من

القمع السِّياسيِّ من إجبار النظام البولندي الشُّيوعيِّ على الدخول في المفاوضات التي أدَّت إلى انتخابات ديمقراطية في عام 1989. انهارت الدِّيكتاتوريَّة العسكرية في الأرجنتين عام 1983، بعد استسلام البلاد في حرب فوكلاند. فاز زعيم المعارضة راؤول ألفونسين بالانتخابات الرِّئاسيَّة في نفس العام، وشُكِّلتْ حكومةٌ ديمقراطية. تخلَّصت البرازيل في عام 1985 من الحكم العسكري الذي استمرَّ لعقدَيْن، وانتخبت تانكريدو نيفيس كأوَّل رئيس للدَّيمقراطيَّة المُستعادَة. قال شعب تشيلي "لا" في عام 1988 في استفتاء على تمديد رئاسة الديكتاتور العسكري أوغستو بينوشيه. كانت بداية واحدة من أنجح التَّحوُّلات الدِّيمقراطيَّة التي شهدها العالَم في تاريخه.

انتشرت الدِّيمقراطيَّة انتشار النار في الهشيم. أسقطت الاحتجاجات في الفلبين في عام 1986 النظام الدِّيكتاتوريَّ للرئيس فرديناند ماركوس. تولَّت كورازون أكينو الرئاسة بعد الانتخابات. وبعد عام من هذه الانتخابات، أجبرتْ الاحتجاجات الطُّلَّابية في كوريا الجنوبية الدِّيكتاتوريَّة العسكرية على إجراء الانتخابات الرِّئاسيَّة لتحديد خليفة لرجلها القوي تشونغ دو هوان. بدت كل قصص النجاح الدِّيمقراطيِّ هذه مجرَّد مقدّمة للموجة الهائلة التي ستُشكِّلها الموجة الثالثة في عام 1989.

نظر العالَم مبهوراً في عام 1989 للجماهير الطُّلَّابية التي احتلَّت ساحة تيانانمين Tiananmen المركزية في بكين. تعاطف تشاو زيانغ، الذي أصبح لاحقاً الأمين العامّ للَّجنة المركزية للحزب الشُّيوعيِّ، مع الطُّلَّاب، وحاول فتح حوار معهم، ولكن رجل الصين القوي دنغ شياو بينغ خَشِيَ أن تؤدِّي هذه الحركة الدِّيمقراطيَّة إلى انهيار النظام الشُّيوعيِّ. سَحَقَ الجيشُ الصِّينيُّ في الرابع من حزيران/ يونيو الطَّلَبَة في حملة قَمْعِيَّة، خلَّفتْ مئات

القتلى، إن لم يكن الآلاف. أُقيلَ تشاو زيانغ، ووُضع تحت الإقامة الجبرية في منزله لبقية حياته. صَدَمَتْ هذه الحملة الوحشية العالَم، وأثَّرتْ لاحقاً على ردِّ فعل ميخائيل غورباتشوف، الأمين العامِّ للحزب الشُّيوعيِّ في الاتِّحاد السُّوفيتيّ، تجاه الانتخابات في بولندا في عام 1989، وبالطبع تجاه سقوط جدار برلين. رفض غورباتشوف الرَّدَّ على هذه الحركات بالدَّبَّابات الرُّوسيَّة، لأنه أراد تجنُّب ارتكاب حملة أخرى مثل الحملة القَمْعِيَّة في ساحة تيانانمن.

عندما أعلنتْ حكومة ألمانيا الشَّرقيَّة في 9 تشرين الثاني/ نوفمبر 1989 أن مواطنيها يمكنهم زيارة برلين الغربية وألمانيا الغربية، عبَرتْ حشودٌ من الألمان الشَّرقِيِّيْن الحدود، واِعْتَلَوا جدار برلين. وقف الألمان الغربيون على الجانب الآخر من الجدار، وحَيَّوا الحشود بأذرع مفتوحة. قاد كثير من الأوروبيِّيْن الغربيِّيْن سيَّاراتهم في تلك الليلة باتِّجاه برلين للانضمام للاحتفالات هناك. كان عمري حينها 15 سنة فقط، لذلك لم أتمكَّن لسوء الحظِّ من قيادة السَّيَّارة. أدركتُ إلى أيِّ مدى يُعدُّ هذا الحدث تاريخياً حينها، ولكنني، على الرغم من ذلك، لم أستوعب أهمِّيَّته وعواقبه المستقبلية تماماً: انهيار حلف وارسو وانهيار الاتِّحاد السُّوفيتيِّ لاحقاً.

كان أحد أعمامي على علاقة جيِّدة بحركة التضامن (سوليدرتي). عندما فرض الجنرال فويتش جاروزيلسكي الأحكام العُرْفِية عام 1981، وحظر نشاط حركة التضامن، ممَّا جعله أحد أسوأ فصول الشتاء التي ضربت بولندا لعقود طويلة.

قاد عمِّي شاحنة مليئة بالطعام والملابس، وهرَّب هذه البضائع إلى بولندا. ذهب عمِّي في السنوات التالية عدَّة مرَّات إلى مدينة شيستوشوا البولندية لحضور اجتماعات سرِّيَّة لحركة التضامن. رتَّب عمِّي في بدايات الثَّمانينيَّات زيارة لأحد رجال الدِّين من حركة التضامن إلى بلجيكا. جاء الكاهن

إلى منزلنا، وشرح لوالدَيَّ ما الذي كان يحدث في بولندا. لم أفهم عمَّا يتحدَّث، لأنني كنتُ صغيراً، ولكنني فرحتُ به للغاية، لأنه أعطاني بعض الملصقات الخاصَّة بحركة التضامن. وَضعتُ هذه الملصقات على الفور على صندوق الألعاب، وأخذتُ أمشي به بفخر في جميع أرجاء المنزل. كانت العلاقة بيني وبين صندوق ألعابي تتوطَّد كلَّما ظهرت بولندا في الأخبار.

كنَّا من عشاق ميخائيل غورباتشوف في منزلنا أيضاً. قرأ والدي كُتُبه حول (الانفتاح Glasnost) و(الإصلاحات Perestroika). اشتريتُ كُتيِّباً، يضمُّ خطاب غورباتشوف لعام 1988 للأمم المتَّحدة، والذي أعلن فيه ولادة نظام عالمي جديد، يتحقَّق من خلال الإجماع والتوافق الإنساني العالَمي. عندما انهار الاتِّحاد السُّوفيتيُّ في عام 1991 أسكَتَ بوريس يلتسين غورباتشوف علناً، وقد شعرتُ بالأسف الشديد تجاهه. لذلك تركتُ كل شيء، وذهبتُ للاستماع إلى غورباتشوف عندما جاء للتَّحدُّث في مجلس الشيوخ البلجيكي في عام 2000.

كانت العبارة الوحيدة التي أتذكَّرها من خطابه: "لو لم أصرّ على الإصلاح، ربَّما كنتُ لا أزال حتَّى اليوم في منصب الأمين العامِّ للحزب الشُّيوعيِّ في الاتِّحاد السُّوفيتيِّ". سواء أكان ذلك حقيقياً أم لا، فإن حقيقة أن غورباتشوف سمح بعملية الإصلاح هي التي أدَّت إلى الموجة الثالثة من الدمقرطة إلى تسونامي هائل من الدِّيمقراطيَّة.

لم تكن أوروبا الوسطى أو الشَّرقيَّة المناطق الوحيدة التي تبنَّت الطريق نحو الدِّيمقراطيَّة في عام 1989. أصبح ف. دبليو. دي كليرك في العام نفسه رئيساً لجنوب أفريقيا. في شباط/ فبراير 1990، أُطلق سراح نيلسون مانديلا من السجن، وتَشَرْعَنَ عمل حزب المؤتمر الوطني الأفريقي، وأُعلنت المفاوضات حول دُستُور جديد. ستؤدِّي هذه الجهود إلى نهاية نظام

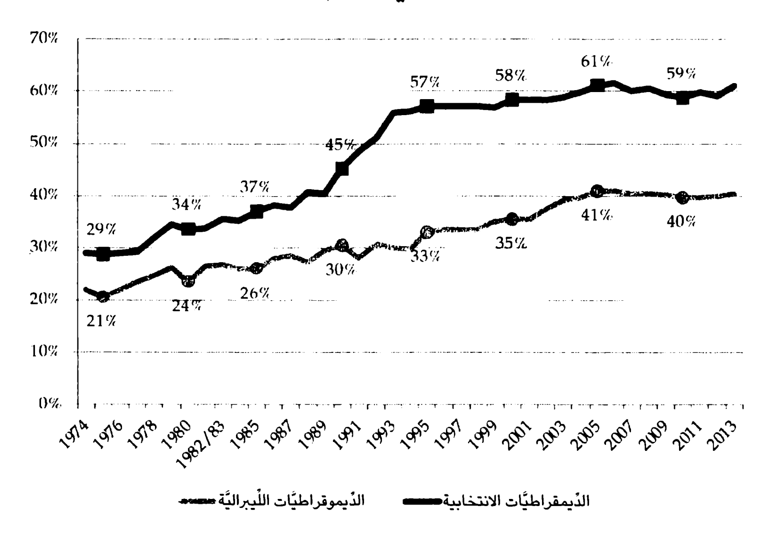
الفصل العنصري في جنوب أفريقيا وانتخاب مانديلا رئيساً لجنوب أفريقيا في عام 1994. شرعت تايوان في عام 1996 بأوَّل انتخابات رئاسية في تاريخها رغم التحذيرات الصِّينيَّة.

أدَّت احتجاجات الطَّلَبَة في عام 1998 إلى إقصاء الرئيس سوهارتو من السلطة، ممَّا أنهى بالفعل عقوداً طويلة من الدِّيكتاتوريَّة. في عام 2000، انتخبت غانا زعيمَ المعارضة جون كوفور رئيساً جديداً لها.

جاءت أحدث دفعة في الموجة الثالثة من الدِّيمقراطيَّة من خلال ما يُسمَّى "الثورات الملوَّنة". وضعت ثورة البيلدوزر في صربيا بقيادة حركة الشباب أوتبور OTPOR، في عام 2000، حَدَّاً لحكم الرئيس سلوبودان ميلوشيفيتش. حظيت جورجيا بثورة الزهور في عام 2003، والتي جاءت بالرئيس ميخائيل ساكاشفيلي المُنتخَب ديمقراطياً إلى السلطة. شكَّلت الاحتجاجات الكبيرة في كييف الثورة البرتقالية، بعد عام واحد، في عام 2004، والتي تمكَّنت من إلغاء الانتخابات الرِّئاسيَّة المزوَّرة. في عام 2005، جاءت ثورة الأرز بعد اغتيال رئيس الوزراء اللُّبنانيِّ رفيق الحريري (1944-2005)، والتي دفعت إلى إنهاء السيطرة السُّوريَّة العسكرية على لبنان.

إذا كان كل هذا يدفع باتِّجاه المزيد من الدِّيمقراطيَّة، فربَّما تُفاجِئنا قراءة مقال لاري دياموند في عام 2008 حول النكوص الدِّيمقراطيِّ. ذهب دياموند بعد سبع سنوات، في عام 2015، في مقال له في "مجلَّة الدِّيمقراطيَّة" إلى أبعد من ذلك، وأطلق عليه اسم "الكساد الدِّيمقراطيّ". طوَّر دياموند منهجية معيَّنة لحساب مستويات الدِّيمقراطيَّات من 1974 إلى 2013، ووضع رسوماً بيانيةً لها. ميَّزَ دياموند الدِّيمقراطيَّات اللِّيبراليَّة عن الدِّيمقراطيَّات الانتخابية، وهي الدول التي تجري انتخابات، ولكنها تفتقر إلى الانفتاح والحُرِّيَّات التي تتمتَّع بها الدِّيمقراطيَّات اللِّيبراليَّة.

الشكل 3 - نُمُوُّ الدِّيمقراطيَّات في العالَم، 1974-2013



لاري دياموند، في مواجهة الانتقال الدِّيمقراطيِّ، مجلَّة الدِّيمقراطيَّة، العدد 26، رَقْم 1، كانون الثاني/ يناير، ص143.

يوضِّح هذا الرسم البياني ارتفاع نسبة الدِّيمقراطيَّات اللِّيبراليَّة والانتخابية من عام 1974، والتي بلغت ذروتها في عام 2005. تراجع مستوى كل منهما بعد عام 2005، ليُصيبهما الركود منذُ ذلك الحين. كانت روسيا وفنزويلا الدَّولتَيْن الرَّئيستَيْن اللتَيْن واجهتا انهيار الدِّيمقراطيَّة قبل عام 2005. حصل انقلاب عسكري في تايلاند عام 2005. ثمَّ تراجعت العملية الدِّيمقراطيَّة في عام 2006 في جزر سليمان. أوقف الانقلاب العسكري الناعم في بنغلادش عام 2007 العملية الدِّيمقراطيَّة، وشهدت الفلبين تدهوراً تنفيذياً في العملية الدِّيمقراطيَّة، وزُوِّرت الانتخابات في كينيا. حدث الشيء نفسه في جورجيا في عام 2008 عندما أحبط الغزو الرُّوسيُّ عمليةَ الانتقال الدِّيمقراطيّ. حصل تدخُّلٌ

عسكريٌّ في هندوراس في عام 2009، وحُلَّ البرلمان المُنتخَب في مدغشقر، وحَلَّت الرئاسةُ في النيجر المحكمةَ الدُّستُوريَّةَ والبرلمانَ. انهارت الدِّيمقراطيَّة في بوروندي عام 2010، وفي غينيا بيساو وسريلانكا، ثمَّ في عام 2011 في نيكاراغوا. أُقصي الرئيس محمَّد نشيد المُنتخَب ديمقراطياً عن الحكم في جزر المالديف عام 2012، وحدث الشيء نفسه في مالي، في الوقت الذي تمَّ فيه تزوير الانتخابات في أوكرانيا. تراجعت الدِّيمقراطيَّة في عام 2014 في تركيا بعد إعادة انتخاب رجب طيِّب أردوغان، وفي بنغلاديش خلال الانتخابات غير النزيهة وبعدها، ثمَّ في تايلاند بسبب الانقلاب العسكري.

برزت خلال هذا العقد علامات إيجابية أيضاً. قرَّر النظام العسكري في ميانمار فتح البلاد، وتنظيم انتخابات ديمقراطية في عام 2015، ممَّا أدَّى إلى انتصار زعيمة المعارضة لفترة طويلة، والحائزة على جائزة نوبل أونغ سان سو كي .فازت المعارضة في الانتخابات البرلمانية بعد وفاة هوغو شافيز في فنزويلا، ممَّا شكَّل (لحظة قصيرة) من الأمل في عودة الدِّيمقراطيَّة. كان الربيع العربي في عام 2011 مرشَّحاً ليُؤثِّر تأثيراً كبيراً على إرساء الدِّيمقراطيَّة العالَميَّة، فيما لو كان قد نجح بالطبع، ولكن هذا لم يحدث. لم تُحقِّق سوى تونس هذا الانتقال نحو ديمقراطية (هشَّة). غرقت سوريا وليبيا واليمن والعراق في الحرب الأهلية، في حين عادت مصر والبحرَيْن إلى الأنظمة الاستبدادية التي كانت قبل 2011، بل إلى أنظمة أكثر منها قَمْعِيَّة.

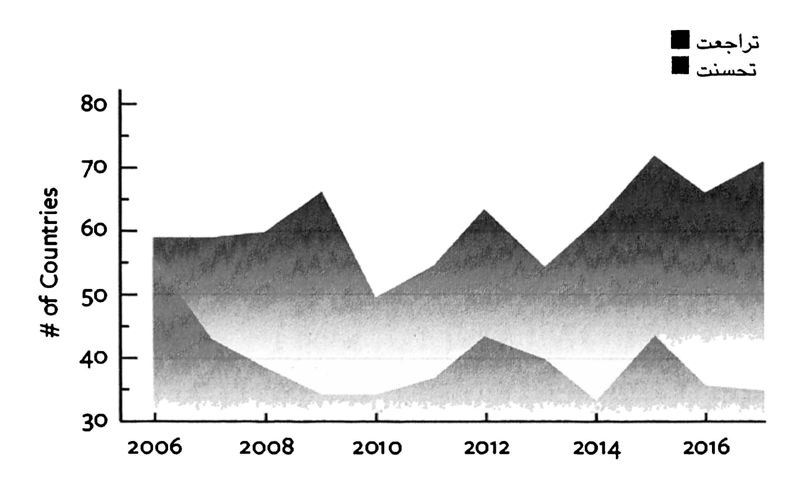
ولا يمكن أن يكون هناك تدهور للحُرِّيَّات حول العالَم بالتزامن مع انهيار وتراجع الدِّيمقراطيَّة من قبيل الصدفة على الإطلاق. أشار مركز فريدوم هاوس، مركز الأبحاث الأمريكي الذي يقيس مقدار الحُرِّيَّة في العالَم، في تقريره لعام 2018 حول "الحُرِّيَّة في العالَم"، إلى أن البلدان التي تتراجع فيها الدِّيمقراطيَّة قد فاقت عدد البلدان التي حقَّقت

تقدُّماً في هذا المجال منذُ عام 2005. أمَّا التَّطوُّرات التي حدثت في عام 2014 قد كانت قاتمة للغاية. تظهر نتائج التقرير أن "حوالي ضعف عدد البلدان التي عانت من التراجع في المكاسب التي حقَّقتها، بمعدَّل 61 إلى 33، بالنسبة إلى عدد الدول التي حقَّقت التَّقدُّم الذي بلغ أدنى نقطة له منذُ بدأ هذا التآكل في الدِّيمقراطيَّة، والذي استمرَّ لمدَّة تسع سنوات. بقي هذا النمط صحيحاً عبر مناطق جغرافية متعدِّدة، مع تراجع أكبر في تحقيق التَّقدُّم في الشرق الأوسط وشَمال إفريقيا وأوراسيا وأفريقيا جنوب الصحراء الكبرى وأوروبا والأمريكَتَيْن، وبالنسبة نفسها حتَّى في آسيا والمحيط الهادئ".

الشكل 4 - صعود وهبوط الحُرِّيَّة في العالَم

12 عاماً من الانهيار

عدد البلدان التي تراجعت وتحسَّنت في النتيجة الإجمالية، 2006-2017.



فريدوم هاوس.

الأمر الأكثر إثارة للقلق هو أن التراجع في الحُرِّيَّات يحدث في الدول الكبيرة ذات الأهمِّيَّة الاقتصادية، والتي تلعب دوراً مُهمَّاً على المستوى الإقليمي أو القارِّيِّ أو حتَّى العالَمي: روسيا وفنزويلا وتايلاند ونيجيريا وكينيا ومصر وتركيا وأذربيجان .حتَّى المجر، الدولة العضو في الاتِّحاد الأوروبي، شهدت تراجعاً حادَّاً في الحُرِّيَّات منذُ عام 2010.

يتحدَّث التقرير أيضاً حول الازدراء المتزايد عموماً للحُرِّيَّة والدِّيمقراطيَّة. لا يحاول الرؤساء الحاليون لروسيا ومصر وتركيا والصين حتَّى إخفاء طبيعة حكمهم الاستبدادي وحملاتهم العامَّة على حُرِّيَّة التعبير أو حُرِّيَّة الصحافة.

ومن اللَّافت أن كل التقارير عن الدِّيمقراطيَّة والحُرِّيَّات والعَولَمَة تسير وفق نفس النمط. كان العالَم يتحوَّل أكثر فأكثر نحو الدِّيمقراطيَّة والحُرِّيَّة والعَولَمَة حتَّى عامَي 06/2005. ثمَّ نرى أوَّلاً تراجعاً، ومن ثمَّ ركوداً في الدِّيمقراطيَّة والحُرِّيَّة والعَولَمَة الاقتصادية والاجتماعية والسِّياسيَّة. ليس هناك أيضاً ما يشير إلى أن أيَّاً من هذه الاتِّجاهات نحو المزيد من الركود والنكوص ستنعكس في السنوات المقبلة. لماذا؟ وما الذي حدث؟

يقول المثل إن السمكة تتعفن من رأسها. هل يمكن أن تكون محرِّكات الدِّيمقراطيَّة وحقوق الإنسان - أوروبا والولايات المتَّحدة - هي التي تعطَّلت؟ يبدو أن هذا هو الحال بالفعل.

عندما حضرتُ ندوة حول كتاب عن التَّحوُّلات الدِّيمقراطيَّة في واشنطن في أيلول/ سبتمبر 2015، ملأني الشَّكُّ الذي يخيَم على الأجواء في مجتمع تعزيز الدِّيمقراطيَّة. بدا أحد المتحدِّثين في الندوة، وهو كارل غيرشمان، رئيس صندوق المِنَح الوطنية من أجل الدِّيمقراطيَّة، وهو المعهد المخصَّص لتعزيز الدِّيمقراطيَّة، والذي تأسَّس خلال فترة رئاسة رونالد ريغان في الثَّمانينيَّات، كما لو أنه يواجه صعوبات في تقديم رؤية واضحة

للمستقبل. كتب مدير الندوة، توماس كاروثرز، من مؤسَّسة كارنيغي للسلام الدُّوليِّ، مقالاً حول هذه المشكلة بعد بضعة أشهر.

جادل كاروثرز في تحليله بأن المروِّجين للدِّيمقراطيَّة الأمريكية واجهوا مهمَّة صعبة في الترويج للدِّيمقراطيَّة الأمريكية كنموذج، لأنها قد فَقَدَت القليل من المصداقية خلال السنوات العشرين الماضية. كان أحد العوامل وراء ذلك إجراءات عزل الرئيس بيل كلينتون عام 1995 لأسباب، أدركها قلَّة من الناس في جميع أنحاء العالَم. العامل الآخر وراء ذلك كان الانتخابات الرِّئاسيَّة لعام 2000، حيث حصل آل غور على أكثرية الأصوات، ولكنه خسر الانتخابات. صُدم العالَم من كون فلوريدا لا تزال تستخدم بطاقات الاقتراع التي يشبه شكلها الفراشة، والتي عفا عليها الزمن، والتي توجَّب على المحكمة استعمالها لاتِّخاذ القرار النِّهائيِّ بشأن المرشَّح الذي فاز هناك. فازت مجدَّداً المرشَّحة الرئاسية هيلاري كلينتون في عام 2016 في التصويت الشَّعبيِّ، ولكنها خسرت الانتخابات أمام دونالد ترامب. قد يُدهش الكثيرون حول العالَم من تمويل الشركات للحملات الانتخابية. لم تفقد الولايات المتَّحدة مصداقيتها فقط فيما يتعلَّق بالدِّيمقراطيَّة، بل تأثَّرت صورة أمريكا على أنها أرض الحُرِّيَّة تأثُّراً كبيراً أيضاً.

أعاق قانون باتريوت الذي صدر لأسباب أمنية بعد أحداث 11 أيلول/ سبتمبر بعض الحُرِّيَّات المدنية الهامَّة. كما وسَّع هذا القانون من قدرات التَّجسُّس لوكالة الأمن القومي، كما علم العالَم من تسريبات إدوارد سنودن. كيف ستمنع الولايات المتَّحدة الدِّيكتاتوريِّينْ من فعل الشيء نفسه؟

يعاني الاتِّحاد الأوروبي أيضاً من بعض المشاكل فيما يتعلَّق بالمصداقية. إن حقيقة تعيين المفوَّضيَّة الأوروبية، ورئيس المفوَّضيَّة الأوروبية ورئيس المجلس الأوروبي لرؤساء الدول ورؤساء الوزراء، أي أنهم لا يُنتَخَبُون، لا تشي بالكثير من الدِّيمقراطيَّة في عيون بقية العالَم. يبدو وَقْعُ التفسير القائل

بأن اختيار هؤلاء الناس من قبَل الحكومات الوطنية المُنتخَبة، والذين وافق عليهم البرلمان الأوروبي غريباً للغاية على آذان الناس الذين يعيشون في ظلِّ الأنظمة الاستبدادية.

تضرَّرت صورة كل من الولايات المتَّحدة وأوروبا بشدَّة من غزو العراق في عام 2003، لأن هذا الغزو كان مستنداً إلى كذبة محضة. لم يمتلك العراق أسلحة الدمار الشامل التي ادَّعى الغرب وجودها. تغيَّر الخطاب الغربي عندما اتَّضح ذلك. جاءت القصَّة الجديدة لتتمحور حول تغيير النظام، واستبدال الدِّيكتاتورية بالدِّيمقراطيَّة. لقد أفقد كل هذا مفهوم الترويج للدِّيمقراطيَّة بأكمله مصداقيته. أمَّا الأسوأ على الإطلاق، فهو فضيحة تسريب صور الجنود الأمريكان الذين يعذِّبون السجناء العراقيِّيْن في سجن أبو غريب، ووجود سجن "غوانتانامو" غير القانوني، واختطاف وتعذيب المشتبه في تورُّطهم في الإرهاب، والرحلات الجوِّيَّة المجهولة لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية، والتعاون مع أنظمة معروفة عالمياً بممارساتها المتعلِّقة بالتعذيب والقتل. شوَّهَتْ كل هذه الظواهر صورة الغرب كمنارة لحقوق الإنسان. وأدَّى فقدان المصداقية هذا إلى تراجع جاذبية النموذج الغربي، بعد تجريده من أغلب ادِّعاءات التَّفوُّق التي يدَّعيها هذا الخطاب. أمَّا الأسوأ حقَّاً أن كل هذا قد منح دولاً مثل مصر وسوريا ذريعةً لإخضاع شعوبهم للمزيد من التعذيب.

أخذت بقيَّة العالَم تلوم الغرب على ازدواجية معاييره: المطالبة بإجراء انتخابات حُرَّة في فلسطين، ولكنْ، دون الاعتراف بالنتيجة عندما تفوز حماس بهذه الانتخابات في غزَّة، فرض الدِّيمقراطيَّة على العراق، والسكوت على السعودية، ثمَّ الاعتراف باستقلال كوسوفو، وإنكاره في كردستان، فرض شروط متعلِّقة بحقوق الإنسان عند أيِّ تعاون، ونسيانها بسرعة عندما تصبح العقود الاقتصادية على المحكِّ. الترويج لتغيير النظام في سوريا، ولكنْ، دون دعم السُّوريِّيْن الذين أرادوا تحقيق ذلك. إن ازدواجية المعايير هذه

ليس جديدة بالطبع، بل تمثِّل اتِّجاهاً دائماً وحتمياً في جميع السياسات الخارجية. أخذ النُّقَّاد يتعمَّقون ويتوغَّلون أكثر من قبل في صورة الغرب.

سمعتُ بعد الثورة العربية عدَّة مرَّات من قادة سياسيِّيْن ومثقّفين عرب، أن مستقبل بلادهم ليس بالضرورة أن يكون الدِّيمقراطيَّة اللِّيبراليَّة. يرى هؤلاء أن سنغافورة أو الإمارات العربية المتَّحدة تمثِّل نماذج أفضل للاستقرار السِّياسيِّ والازدهار الاقتصادي. هناك آخرون معجبون ببوتين الذي استبدل بالدِّيمقراطيَّة اللِّيبراليَّة "الدِّيمقراطيَّة الموجَّهة".

مدح الرئيس المصري عبد الفتَّاح السيسي والرئيس التُّركيُّ رجب طيِّب أردوغان فلاديمير بوتين علناً، وحاولا تقليد نموذجه في الحكم والقيادة، دون أن يحاولا إخفاء ذلك حتَّى. يشاركهما فيكتور أوربان، رئيس الوزراء المجري، هذا الإعجاب ببوتين وديمقراطيته الموجَّهة. قال أوربان حَرْفِيَّاً في خطاب ألقاه في تمُّوز/ يوليو 2014: "ليس بالضرورة أن تكون الدِّيمقراطيَّة ليبرالية".

يمثِّل تراجع الدِّيمقراطيَّة في الولايات المتَّحدة وأوروبا واحداً من الاستنتاجات الرئيسة لمؤشِّر الدِّيمقراطيَّة 2015 من وحدة الإيكونوميست الاستقصائية، وهي عبارة عن مؤسَّسة بحثية تابعة لمجلَّة الإيكونوميست. يستند هذا المؤشِّر إلى خمس فئات: المشاركة السِّياسيَّة والعملية الانتخابية والتَّعدُّديَّة والحُرِّيَّات المَدَنيَّة وسَيْر الحكومة، والثقافة السِّياسيَّة. أشار الباحثون في هذا التقرير إلى أن "واحدة من أكثر النتائج المزعجة لدينا في تقارير عامَي 2014 و2015 هي أن الاستياء الشَّعبيَّ والامتناع عن المشاركة في العملية الدِّيمقراطيَّة تبدو أكثر وضوحاً في الدِّيمقراطيَّات الأكثر تطوُّراً، أي في الولايات المتَّحدة وأوروبا الغربية". تظهر الأرقام من وحدة الإيكونوميست الاستقصائية ركود وتراجع الدِّيمقراطيَّة في الغرب بين عامَي 2006 و2008، بعد أن بدأ الركود والتراجع الحقيقي للدِّيمقراطيَّة.

جاءت الأزمة المالية عندما كانت ثقة الجمهور في الأحزاب السِّياسيَّة

والحكومة والبرلمان ووسائل الإعلام منخفضة أصلاً قبل عام 2008، ولم تؤدِّ هذه الأزمة سوى إلى المزيد من التراجع في هذه الثقة. فَقَدَ الناسُ الثقةَ في المؤسَّسات الدِّيمقراطيَّة، بسبب البطء والاستجابة عديمة الفعالية للاتِّحاد الأوروبي على الانهيار القريب لاقتصاديات كلٍّ من اليونان والبرتغال وإسبانيا وإيطاليا. استبدلت كل من اليونان وإيطاليا بالقادة المنتخَبين ديمقراطياً موظَّفين تكنوقراط محترفين وغير منتخَبين من أجل "ترتيب البيت الدَّاخليِّ". وقد كانت الاتِّهامات العَلَنية والشتائم المتبادلة بين اليونان وألمانيا مروِّعة حقَّاً. اتَّهمَ القادةُ الألمانُ اليونانيِّيْن بأنهم كسالى وفاسدون، في الوقت الذي طالبت فيه اليونانُ الألمانَ بدفع ثمن الأضرار التي تسبَّبوا بها، ويتحمَّلون مسؤوليتها خلال الحرب العالَميَّة الثانية.

بلغ انعدام الثقة في المؤسَّسات الأوروبية ذروته بالاستفتاء حول خروج بريطانيا من الاتِّحاد الأوروبي في 23 حزيران/ يونيو 2016. قرَّر غالبية الناخبين البريطانيِّيْن مغادرة الاتِّحاد الأوروبي. صوَّرت حملة مغادرة الاتِّحاد الأوروبي المؤسَّسة الأوربية على أنها قوَّة احتلال غير ديمقراطية، لم تترك للشعب البريطاني أيَّ رأي أو قرار في إدارة شؤونه. لم يدرك العديد من الناخبين أن قرارهم كان عاطفياً، وليس قراراً عقلانياً سوى بعد الاستفتاء، وأن خروج بريطانيا من الاتِّحاد الأوروبي سوف يُكلِّفهم الكثير من المال، ومن تراجع النفوذ البريطاني في العالَم.

أصبح الخطاب السِّياسيُّ في الولايات المتَّحدة أيضاً مناهضاً للمؤسَّسة على نطاق واسع. وقد وصلت النبرة القاسية والشَّعبويَّة للمناقشات في الحملة الرِّئاسيَّة لعام 2016 إلى مستويات غير مسبوقة.

لا ينظر العالَم بارتياح على الإطلاق لصعود الشَّعبويَّة وعدم وجود استجابة مناسبة من النخب السِّياسيَّة. يبدو أن الزعماء السياسيِّيْن في الولايات المتَّحدة، وفي أوروبا أيضاً، قد فَقَدُوا البوصلة تماماً. وفقاً لوحدة

الإيكونوميست الاستقصائية فإن "واحدة من المشاكل الأساسية في الحياة السِّياسيَّة اليوم هي غياب القِيَم الواضحة التي تربط النخبة السِّياسيَّة ببعضها، والتي يمكن أن توفِّر لها سَرْدِيَّة ملائمة للتعامل مع مواطنيها. عرف القادة السِّياسيُّون في بداية القرن العشرين القِيَم التي تُمثِّلها دولهم، أمَّا زعماء اليوم، فإنهم عالقون في هذه المعضلة، ويبدون غير قادرين على توضيح القِيَم التي تُشكِّل وتُعرِّف مجتمعاتهم. تُفسِّر أزمة الإيمان بالنفس والقِيَم هذه الكثير حول كيفية تسيير الحياة السِّياسيَّة في العالَم الغربي اليوم، فبدون هذه الروح يصعب على النخب السِّياسيَّة إلهام الجماهير أو تشجيعهم على المشاركة العامَّة في العملية الدِّيمقراطيَّة".

يعلم الزعماء السِّياسيُّون في الولايات المتَّحدة وأوروبا أن هناك مشكلة ما، ولكنهم يبدون يائسين وعاجزين عن إيقاف هذا التراجع والانهيار. يبدو أن كلتا القوَّتَيْن تواجهان إخفاقاً في النظام العالَمي، وليس لديهما أيّ فكرة حول كيفية التعامل معه. تعرف كلا القوَّتَيْن أن نفوذهما وسلطتهما ليسا كما كانا عليه من قبل، ولكنهما لم تتمكَّنا من إيجاد دور جديد لهما حتَّى اليوم. تعرف هذه القوى ما الذي كانت عليه، ولكنها لا تعرف كيف أصبحت اليوم. ليس هناك أيُّ رؤيا، لذلك ليس هناك مهمَّة محدَّدة. لا استجابة محدَّدة لديهم لسقوط النظام اللِّيبراليِّ. ظَنَنَّا لعقود أن مسار التاريخ يتحرَّك باتِّجاه المزيد من العَولَمَة والدِّيمقراطيَّة والحُرِّيَّة. تبدو هذه الرؤية للتاريخ اليوم وكأنها تتحرَّك باتِّجاه عكسي. لقد تحطَّمت الأفكار التي لطالما آمنَّا بها في مرحلة، لسنا فيها على استعداد لهذا الانهيار أبداً. يؤثِّر هذا التغيير الأساسي تأثيراً عميقاً في وعينا الجَمْعِيِّ. لم يعد الأمر مجرَّد مشكلة متعلِّقة "بالآخرين": فالغرب متأثِّر أيضاً بهذه المشكلة اليوم. العالَم بأكمله غارق في الأزمات. تصل هذه الأزمات إلى جوهر كل ما نؤمن به حقَّاً وكل ما يشكِّل هويتنا الحقيقية.

الفصل السادس
لا، ليس للأمر علاقة بالاقتصاد، أيُّها الأحمق

حضرتُ في عام 2002 مؤتمراً حول الإرهاب في اسطنبول. دعا المجلس الثَّقافيُّ البريطانيُّ صحفيِّيْن وباحثين وأكاديميِّيْن وسياسيِّيْن من جميع أنحاء أوروبا إلى منطقة خلَّابة الأجواء على ضفاف البوسفور. كان هناك إجماع عند تحليل أسباب هجمات 11 أيلول/ سبتمبر على أن الأمر برمَّته متعلِّق بالفقر.

كان الأساس الذي انطلق منه الجميع أن العرب كانوا محرومين من الثروة والازدهار الذي يتمتَّع به الغرب. لذلك هاجموا مركز التجارة العالَمي، لأنه يمثِّل رمزاً لهذا الظلم. لم يرحْني هذا الاستنتاج، لذلك حاولتُ إيجاد تحليل مخالف. لا يمكن وصف أسامة بن لادن، العقل المدبِّر الذي كان وراء الهجوم، بأنه رجل فقير على الإطلاق، لذلك اقترحتُ الابتعاد عن التفكير مثل ماركس، والتفكير أكثر مثل كانط. رأيتُ أن الإحباط العربي لا يكمن ربَّما في الاقتصاد، بل في الحرمان من الصوت المسموع. أخفقتْ حُجَّتي في إيجاد قبول وإجماع واسع النطاق. أدركتُ متأخِّراً أن استخدام الفيلسوف الألماني عمانويل كانط (1724-1804) قد يكون قد استُهلك للغاية، ولكن ما عنيتُهُ بالفعل أننا في مضمار السياسة العالَميَّة لا نعامل العرب بالطريقة التي نرغب أن نعامل بها أنفسنا.

لطالما فتنَني كارل ماركس (1818-1883). عشقتُ في مراهقتي ذلك الأسلوب الذي يجمع فيه بين كتابة الأعمال الفلسفية الأساسية وإدارة الثورة. شكَّل ماركس بالنسبة إليَّ الرمز الحقيقي لمحاربة الظلم،

حتَّى إنني وضعتُ ملصقاً لماركس على باب غرفتي في السَّكَن الطُّلَّابيّ، ولكنني مع ذلك لم أكن ماركسياً. لم يعجبْني حقيقة أن نظام التفكير لديه يتظاهر بتفسير كل شيء. فقد بدا أن الاقتصاد والصراع الطَّبقيَّ ونهاية الرَّأسماليَّة وحكم البروليتاريا أمور حتمية، لا مفرَّ منها. إن النتيجة المترتِّبة على هذا الرأي القائم على الحتمية التَّاريخيَّة هي أنه لا أهمِّيَّة تُذكَر للبشر، فمهما فعلوا، لا يمكنهم تغيير التاريخ. عنت الماركسية لي على المستوى الشَّخصيِّ أن الحالة الاقتصادية التي تُولَد عليها تُحدِّد حياتكَ القادمة بأكملها. تمثِّل هذه الرؤية بالضبط الرؤية المعاكسة لما نشأتُ عليه.

كانت وظيفة والدي الأساسية كطبيب نفسي تقوم على محاولة منح الناس مستقبلاً على الرغم من الحالة التي وُلدوا عليها، والأوضاع التي نشؤوا فيها. كان والدي يأتي لتناول طعام الغداء والعشاء في المنزل عندما كنتُ طفلاً، الأمر الذي يبدو بعيداً للغاية عن عالَم اليوم. لطالما روى لنا قصصاً حول طاولة المطبخ عن الأشخاص التي يعمل معهم، وكيف يحاول تحسين حيواتهم، دون ذِكْر أسماء طبعاً احتراماً لقَسَمِ السِّرِّيَّة المهنية. لم يكن يكرِّر القصص نفسها لحسن حظِّنا، فقد غيّر مجال عمله عدَّة مرَّات. لقد تحوَّل والدي إلى الطِّبِّ النَّفسيّ بعد أن عمل لسنوات مع الأطفال الذين يعانون من مشاكل في الطفولة. ركَّز كطبيب خلال العقد الأخير من حياته المهنية على الأشخاص المعاقين عقلياً.

غصَّت مكتبتنا بالطبع بالكُتُب حول علم النفس والطِّبِّ النَّفسيِّ. ولكنها احتوت أيضاً لحسن الحظِّ مجلَّات أكثر شعبية، يمكن لمراهق مثلي فَهْمها. ضمَّ كل عدد من أعداد مجلَّة "سايكولوجي" نوعاً من الاختبار الذي يحاول الإجابة عن أسئلة متعلِّقة "بمَنْ أنا؟". كانت هذه الاختبارات أكثر التزاماً بالمناهج العلمية من مئات الاختبارات التي تجدها اليوم على موقع فيسبوك. لم يُشجِّعني والدي على قراءة فرويد وتفسيراته للأحلام، لأنه كان يعتقد أنها كانت تفسيرات خاطئة، فلم يكن يشرح لنا أحلامنا على

طريقة فرويد دون أن يختم كلامه قائلاً بأنه لا يوافق على هذه التفسيرات.

لا بدَّ لي أن أعترف أنني وجدتُ حكايات والدي عن مجاليَ عملِه الأوَّلَيْن أكثر إثارة للاهتمام. صدمتْني إحدى تلك القصص التي كانت حول سيِّدة شابَّة موهوبة جدَّاً، وجميلة، حظيَتْ بعلامات عالية للغاية في المدرسة، كما كانت تعزف على الكمان ببراعة. عانت هذه الفتاة في الثامنة عشرة من عمرها من انهيارٍ عصبيٍّ فُصَامِيٍّ. تعافت من هذا الفُصَامِ فيما بعد، ولكنه كان يعود مراراً وتكراراً، ليُؤثِّر على قدراتها.

أمَّا قصص الأطفال الذين عانوا من إهمال الوالدِيْن، فقد كانت مختلفة، ولكنها مأساوية أيضاً. لقد عاش البعض منهم تجارب مؤلمة للغاية. كانت وظيفة والدي تقوم على منح هؤلاء الأطفال مستقبلاً، على الرغم من ماضيهم المؤلم.

بقي بعض هؤلاء الأطفال لفترة قصيرة في منزلنا في عدَّة مناسبات، حتَّى إن أحدهم بقي في بيتنا لسنوات. كان أكثر ما يفاجِئني عادة في "أختي" الجديدة مثلاً قراراتها غير العقلانية. عانت هذه الفتاة لاحقاً من جنون الارتياب الحادِّ. ظنَّت هذه الفتاة أنها تخضع للمراقبة من خلال جميع الأجهزة الإلكترونية، بدءاً من التلفاز حتَّى الثَّلَّاجة. ولكنْ، دون المساعدة والجهود النَّفسيَّة لوالدَيَّ، لكانت حياتها أكثر بؤساً حقَّاً. تمثَّل المفتاح الأساسي لتحسين حياتها في العطف، وتفهُّم ما عانتْهُ، وكيفية التعامل معه.

لم أتبع خُطى والدي، فقد درستُ التاريخ. ولكن دروس علم النفس حول طاولة المطبخ، والتي استمرَّت لخمس عشرة سنة، لم تذهب هَبَاء. لم أرغب في دراسة ما حدث في التاريخ وحسب، بل أردتُ معرفة الأسباب وراء ما حدث. كلَّما حاولتُ اكتشاف ما وراء الأحداث، بدا لي أن التاريخ لا تحدِّده القوانين الكبرى. لا يلعب الاقتصاد بالتأكيد أيَّ دور في شرح

بعض الاتِّجاهات والمسارات المهمَّة. أمَّا المثال الأكثر وضوحاً، فهو عصر التصنيع في القرن التاسع عشر، عصر كارل ماركس، الذي قلب حياة ملايين الناس رأساً على عقب. يُدرَّس التاريخ في المدرسة وفي الجامعة أيضاً، بوصفه نظرة عامَّة على الحقائق المتعلِّقة بما حدث في الماضي. غالباً ما تتحدَّث كُتُبُ التاريخ عن مسار الأحداث، ولكنها نادراً ما تتبع دوافع الجهات الأساسية الفاعلة. وهذا أمر مؤسف للغاية، لأن التاريخ يُثبت لنا برأيي أن البشر لهم أهمِّيَّة كبيرة، وأن قرار شخص واحد أحياناً يمكن أن يكون له تأثير على مجرى التاريخ بأكمله.

نعلم على سبيل المثال حقيقة أن بريطانيا العظمى كانت لتتوصَّل إلى عقد اتِّفاق مع ألمانيا النَّازيَّة في عام 1940 لو لم يصرّ وينستون تشرشل (1874-1965) على مواصلة الحرب. كان هذا قراراً فردياً، أثَّر تأثيراً بالغاً على تاريخ العالَم. ولكنْ، لماذا كان تشرشل مصرَّاً لهذه الدرجة؟ لم يعتمد قراره هذا على الاقتصاد على الأرجح، بل على العكس تماماً، كان لديه اقتناع عميق بأن النَّازيَّة كانت عقيدة خاطئة. ربَّما لديه أيضاً بعض الأسباب الشَّخصيَّة. تقول بعض المؤشِّرات إنه يعاني من عقدة النقص. شعر بأنه مُخفق، كونه يتحدَّر من سلالة دوق مارلبورو (1650-1722)، البطل العسكري البريطاني، وكونه ابناً لوزير الخزانة. لم ينجح كطفل في دراسته. لم يكن تشرشل يحظى بأدنى مؤشِّر على العَظَمَة التي كان يحلم بها، لذلك كانت حياة تشرشل عبارة عن مسار طويل لإثبات أنه لم يكن مُخفقاً، وقد نجح في نهاية الأمر بالطبع، وتأكَّد قطعاً بأنه لن يضيعَ في غياهب النسيان، لأنه كتب تاريخه بنفسه. تخلَّلتْ نجاحاته بالطبع نوباتٌ شديدة من الاكتئاب، النوبات التي حاول التَّغلُّب عليها من خلال شرب حوالي زجاجَتَيْن من الويسكي في اليوم. لن نعرف يوماً إلى أيِّ مدى أثَّر كل هذا على قراره بهزيمة هتلر. ولكنْ، لا يمكننا أن نُنكر أن ما جعل تشرشل يتألَّق كان عبارة عن مجموعة من المشاكل المعقَّدة.

نتجاهل في فَهْمنا المشترك للتاريخ الكثير من الدوافع النَّفسيَّة التي تقف وراء الأحداث الهامَّة. لطالما سمعتُ وقرأتُ الحُجَّة نفسها مراراً وتكراراً: إن الحرمان الاقتصادي يمثِّل السبب الأساسي للإرهاب والثورات. كم مرَّة قرأنا أن الفقر هو الذي أدَّى بالناس إلى الربيع العربي في عام 2011؟ ألم يُحرق محمَّد البوعزيزي، البائع الجائل التُّونسيُّ، بعد مصادرة عربته؟ كان الرجل فقيراً وقد خسر كل شيء. تعاطف آلاف التُّونسيِّيْن معه، وانطلقت الاحتجاجات. كتب توماس فريدمان، الكاتب في صحيفة نيويورك تايمز، بعد أسبوعَيْن من سقوط حسني مبارك في 11 شباط/ فبراير 2011: "نعرف تماماً الأسباب الكبرى: الاستبداد وارتفاع أسعار الموادِّ الغذائية، وبطالة الشباب، ووسائل التواصل الاجتماعي". كتب الخبير الاقتصادي البيروفي الشهير هيرناندو دي سوتو بعد ذلك بعامَيْن في صحيفة وول ستريت جورنال: "توصَّلت الأبحاث التي أجرتْها منظَّمَتي، معهد الحُرِّيَّة والدِّيمقراطيَّة ومقرُّه البيرو، في المنطقة إلى أدلَّة قوية على أن ثورة الربيع العربي تعود بجذورها إلى الرغبة فيما يُطلق عليه في الغرب اقتصاد السوق. قد لا يستخدم العرب وغيرهم هذه العبارة دائماً، ولكن رغبتهم في الأمن الاقتصادي الذي يأتي مع حقوق الملكية وغيرها من الحقوق يمثِّل قوَّة لا يمكن لأعداء الحُرِّيَّة الفردية أن يتغلَّبوا عليها بسهولة.

يكمن التَّحدِّي في تسخير تلك القوَّة من خلال تقديم الحماية القانونية والأمن لسُكَّان المنطقة، والتي تُشكِّل حجر الأساس لجميع الاقتصاديات الناجحة".

يستخدم الناس موسوعة ويكيبيديا، ويقرؤونها على نطاق واسع لاكتساب فَهْم أوَّليٍّ للأشياء. في عام 2016، وفي فصل "الأسباب" في مقال في موسوعة ويكيبيديا حول "الربيع العربي"، يمكننا أن نقرأ ما يلي: "يعتقد الجميع أن ما حرَّض على الربيع العربي هو الاستياء والسخط من حكم الحكومات المحلِّيَّة، وخاصَّة من قبَل الشباب والنقابات، على

الرغم من تكهَّن البعض أن الفجوات واسعة في مستويات الدخل قد يكون لها يد كذلك". يتابع المقال ليؤكِّد أيضاً على كلٍّ من التدهور الاقتصادي والبطالة والفقر المدقع والتوزيع غير العادل للثروة، وارتفاع أسعار الموادِّ الغذائية.

لطالما وجدتُ أن هذه التحليلات أُحادية للغاية، وأعتقد أن علم النفس قد يفي بالغرض. أرى أن سلسلة الأحداث الصادمة قد أغرقت الناس في موجات من الاكتئاب. كان الجهاديون والمقاتلون والثَّوريُّون العرب مدفوعين بأسباب نفسية، وليس بأسباب اقتصادية، تماماً كما هو الحال مع أسامة بن لادن.

حان الوقت لتجاوُز ماركس، واستكشاف الميدان الفرويدي.

كنتُ حاضراً منذُ الانتفاضة في عام 2011، كشاهد على الاحتجاجات التي انطلقت في ميدان التحرير في القاهرة وما حوله. كان الحاضرون في التحرير مختلفين في كل احتجاج، وفي كل يوم. ولكنني لم أسمع الناس يهتفون أو يغنُّون أيَّ شيء عن الاقتصاد. لقد عرفتُ شخصياً قيادة حركة شباب 6 أبريل (أحمد ماهر، أيمن عبد المجيد، أحمد عبد الله، أسماء محفوظ) الذين نظَّموا الاحتجاجات، وقد أجريتُ العديد من الحوارات معهم، ولم أسمع منهم مرَّة أيَّ حُجَّة اقتصادية. لا يعني هذا أن الاقتصاد لم يلعب أيَّ دور على الإطلاق. كان هناك مشكلة في نقص القمح قبل سنوات من الثورة. واضطرَّ الناس في عام 2008 الانتظار لساعات في الطابور في بعض الأحيان من أجل الحصول على القليل من الخبز. اندلعت أحداث عنف عدَّة مرَّاتٍ، وقُتل البعض. لهذا السبب رفعت ثورة 2011 شعار: "عيش، حُرِّيَّة، عدالة اجتماعية". ولكنْ، مع كل هذا، فقد بدأت الثورة في 25 كانون الثاني/ يناير، وهو عيد الشرطة في مصر. انتشرت الدعوة للخروج في الاحتجاجات على صفحة "كلنا خالد سعيد" على

فيسبوك. وكان سعيد قد قُتل بوحشية على أيدي الشرطة المصرية، لنشره مقاطع فيديو حول وحشية الشرطة.

كانت المطالب الأولى في ميدان التحرير تتمثَّل في وضع حَدٍّ لمثل هذه الممارسات، واستقالة وزير الدَّاخليَّة، والإفراج عن جميع السجناء السياسيِّيْن. لم يكن أيُّ مطلب من هذه المطالب اقتصادياً.

ينطبق الشيء نفسه على تونس وليبيا وسوريا، حيث تابعتُ ما حدث يوماً بيوم. لم أسمع خلال زياراتي إلى سوريا ونقاشاتي مع السُّوريِّيْن شكاوى حول انعدام المساواة في مستويات الدخل أو حتَّى حول البطالة. ربمَّا كان جميع الناشطين الذين قابلتُهم يعملون. لقد ساهم الوضع الاقتصادي للعديد من الشباب العرب في السخط العامِّ بطبيعة الحال، ولكن الاقتصاد لا يمثِّل سوى أحد الأسباب الكامنة وراء الربيع العربي، ولا يمثِّل بالتأكيد السبب الرئيس.

نقرأ نفس الحجج حول المقاتلين الأجانب الذين يذهبون إلى سوريا والعراق وليبيا: كلهم يأتون من أحياء فقيرة، حيث لا يجدون أمامهم أيَّ مستقبل. قد يكون هذا صحيحاً، ولكن السؤال هو ما إذا كان الحرمان الاقتصادي يمثِّل تفسيراً كافياً ليصبح المرء إرهابياً انتحارياً؟ الحقيقة التي يتمُّ تجاهلها أيضاً في كثير من الأحيان أن العديد من الشباب الذين يقرِّرون الانضمام إلى الدولة الإسلامية ليسوا فقراء على الإطلاق. يمكننا أن نجد مثالاً على ذلك "الجهادي جون"، المقاتل الأجنبي البريطاني الذي اشتهر من خلال أشرطة الفيديو التي كان يهدِّد فيها الغرب باللغة الإنجليزية، بلهجة بريطانية عنيفة، ثمَّ يقطع رأس أحد ضحايا داعش. تلقَّى الجهادي جون تعليماً جيِّداً، أوصله إلى جامعة وستمنستر، حيث حصل على شهادة في علوم الكمبيوتر، التذكرة الذَّهبيَّة لسوق العمل.

تحوَّل التركيز فجأة بعد هجمات باريس في عام 2015، إلى حَيِّ مولنبيك

سان جان في بروكسل، حيث كان يعيش معظم المشاركين في الهجوم. وكتبتْ الصحف قصصاً عن الفقر في الحَيِّ، وكيف دفعت البطالة هؤلاء الشباب إلى أحضان الدولة الإسلامية. كتبتْ بي بي سي بعد أيَّام قليلة على هجوم باريس أن "حَيَّ مولنبيك سان جان عبارة عن منطقة مكتظَّة بالسُّكَّان، حيث ترتفع معدَّلات البطالة، ويستشري انعدام الاندماج. يلعب الأطفال في المساحات الخضراء المفتوحة محاطة برسومات الجدران، وتتلطَّى خلف واجهات المتاجر الملوَّنة جيوبُ من الفقر". تَشكَّل التحليل العامُّ على عجل: شباب فقراء عاطلون عن العمل، انجذبوا للنسخة المحافظة المتطرِّفة للإسلام. أمَّا الجواب السِّياسيُّ للمشكلة، فهو جواب واضح وسهل: امنحوا هؤلاء الشباب وظائف.

بعد أن اكتسب البروفيسور سكوت آتران شهرة واسعة، بفضل بحوثه التي تدرس لماذا ينضمُّ الناس إلى الدولة الإسلامية المزعومة، أخذ يتلقَّى بعض الرسائل. كتب له أحد الأطبَّاء من جامعة العلوم الطِّبِّيَّة والتكنولوجيا في الخرطوم في السودان: "خلال الأشهر القليلة الماضية، ذهبت مجموعتان من طلَّاب الطِّبِّ في الجامعة إلى بلاد الشام للانضمام لداعش. واجه أهالي هؤلاء الطَّلَبَة صعوبات في التعامل مع خسارتهم هذه. حزنوا عليهم، كما لو أنهم قد ماتوا. إن هؤلاء الطُّلَّاب الذين غادروا من جامعتنا [...] يحصلون على كمِّيَّة كافية من المال من أهاليهم (والذين ينتمي معظمهم للطبقة المتوسِّطة العليا، ويتحدَّرون من خلفيات متعدِّدة). أجد صعوبة في تحديد العوامل التي دفعت بهؤلاء الطُّلَّاب الأذكياء والمتفوِّقين إلى الانضمام إلى داعش. هل يمكن أن يكون هذا بسبب انعدام الهوية؟ هل هذا خطأ الجامعات؟ هل يمكن أن يكون هذا بسبب عدم وجود تأثير من قبَل الأسرة".

كما كتب أحد المصرفيِّيْن من الموصل في العراق رسالة على نفس القَدْر من الأهمِّيَّة يقول فيها: "دخل مقاتلو داعش إلى البنك، وأُصيب

الموظَّفون بالرعب، فلم يُبدوا مقاومة. طلب شابٌّ جزائري مهذَّبٌ، يبلغ حوالي 25 عاماً، أن نسمح له بالولوج إلى أجهزة الكمبيوتر. قام خلال فترة قصيرة للغاية بتنزيل جميع معاملات البنك. قال إنه قد جاء إلى الدولة الإسلامية لوضع علمه في هندسة الكومبيوتر في شيء مفيد".

وهناك العديد من الشهادات التي تؤكِّد على حقيقة أن الاقتصاد ليس هو الذي يدفع الناس إلى التَّطرُّف أو إلى الثورة.

علَّق جيمس كارفيل مدير حملة بيل كلينتون الانتخابية خلال الانتخابات الرِّئاسيَّة لعام 1992، لافتة في المقرِّ الرئيس للحملة في منطقة ليتل روك تقول: "إنه الاقتصاد، أيُّها الأحمق". كانت هذه واحدة من الرسائل الثلاث للفريق الاستراتيجي لكلينتون ضدَّ الرئيس جورج بوش الأب. كانت معدَّلات تأييد الرئيس بوش مرتفعة للغاية بعد أن قصف الرئيس بوش العراق في عام 1991. لذلك كان في وضع مريح دون قلق حول إعادة انتخابه. أراد كلينتون بهذه الرسالة إضافة إلى رسائل "التغيير مقابل المزيد من الوضع الحالي" و" لا تنسَ الرعاية الصِّحِّيَّة"، نقل تركيز الشعب الأمريكي من الحرب إلى الاقتصاد. فاز كلينتون كما نعلم، والباقي مجرَّد تاريخ.

من الواضح أن الاقتصاد مُهمٌّ للغاية في حياة الناس اليومية. يعمل الناس ويكسبون المال لإطعام أسرهم وتأمين مستقبل مستقرٍّ لأنفسهم ولأطفالهم، وهذا أمر ضروري للغاية. عندما يتأثَّر الاقتصاد، ويفقد الناس وظائفهم، فإن هذا يؤثِّر على سُبُل عيشهم. ولكن العديد من الحملات الرِّئاسيَّة كانت ناجحة للغاية دون التركيز على الاقتصاد. كانت رسالة جورج دبليو بوش الرئيسة في عام 2000 قائمة على النزعة المحافظة الرحيمة. ركَّز باراك أوباما في حملته عام 2008 على التفاؤل (نعم، نحن نستطيع) والوحدة (لا توجد ولايات حمراء أو ولايات زرقاء، بل لا يوجد سوى الولايات المتَّحدة الأمريكية). نعم، إنه الاقتصاد، أيُّها الأحمق، ولكنْ، ليس دائماً.

في نفس اللحظة تقريباً في عام 1789، قدَّمت الولايات المتَّحدة وفرنسا إعلانات الحقوق. كان كلٌّ من ميثاق الحقوق الأمريكي وإعلان حقوق الإنسان والمواطن الفرنسي تتويجاً لنجاح كل من الثَّورَتَيْن الأمريكية والفرنسية.

تبدأ ديباجة الإعلان الفرنسي على النحو التالي: "إن ممثِّلي الشعب الفرنسي، الملتئمين في جمعية وطنية، إذ يؤكِّدون أن الجهل والإهمال وعدم احترام حقوق الإنسان هي وحدها أسباب شقاء المجتمع وفساد الحكومات". الإشارة الوحيدة للاقتصاد هي حول حقّ الملكية. لا يذكر ميثاق الحقوق الأمريكي ذلك أيضاً، بل يركِّز فقط على الحُرِّيَّات. يقول دُستُور الولايات المتَّحدة إنها "ستُعزِّز الرفاهية العامَّة"، وتحدَّث عن الضرائب. كان الاقتصاد غائباً إلى حدٍّ كبير في واقع الأمر في أيِّ وثيقة تأسيسية في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر.

على الرغم من أن كتاب أبو الاقتصاد الحديث آدم سميث "ثروة الأمم"، ربَّما يُعدُّ الكتاب الأكثر أهمِّيَّة في الاقتصاد في التاريخ، حيث نُشر في عام 1776، لم يكن الاقتصاد جوهرياً في تحليلات العقود التي تلت تلك الفترة. عندما نشر الكاتب والسِّياسيُّ ألكسيس دي توكفيل (1805-1859) كتابَيْه حول الدِّيمقراطيَّة في أمريكا في 1835 و1840، كتب عن الاقتصاد كمُكوِّن واحد فقط للمشروع الدِّيمقراطيِّ للمساواة. انتُخب توكفيل لاحقاً كعضو في البرلمان. عندما بدا أن ثورة 1848 على وشك أن تُخفق، ألقى خطاباً هامَّاً في الجمعية الوطنية الفرنسية. هاجم توكفيل المطالب الاشتراكية حول إلغاء الملكية و"الحقّ في العمل". تُعدُّ هذه المطالب وفقاً لتوكفيل ضدَّ مبادئ الثورة الفرنسية. كانت المشكلة في فرنسا من وجهة نظره سياسية، وليس مشكلة اقتصادية. أشار إلى أمريكا لإثبات وجهة نظره: "ستجد هناك مجتمعاً فيه ظروف اجتماعية متساوية، بل أكثر مساواة من مجتمعنا، والنظام الاجتماعي، والعادات والقوانين كلها ديمقراطية. حيث يدخل جميع أنواع الناس في هذا النظام، وحيثما لا يزال

كل فرد يتمتَّع باستقلالية تامَّة، ويتمتَّع بحُرِّيَّة أكبر من أيِّ حُرِّيَّة عرفناها في أيِّ زمن كان، أو في أيِّ مكان كان، في دولة ديمقراطية أساساً، في الجمهوريات الدِّيمقراطيَّة الوحيدة التي عرفها العالَم. وستبحث في هذه الجمهوريات عن الاشتراكية، ولن تجدها. ليس أن المنظِّرين الاشتراكيِّيْن لا يستحوذون على الرأي العامِّ هناك، بل لأنهم يلعبون دوراً ضئيلاً في الحياة الفكرية والسِّياسيَّة لهذه الأُمَّة العظيمة، حيث لا يستطيعون التأثير حتَّى بهؤلاء الناس، لجعلهم يهابونهم".

خسر ألكسيس دي توكفيل هذه المعركة الفكرية. نشر كارل ماركس وفريدريك إنجلز البيان الشُّيوعيَّ في العام نفسه، عام 1848. قدَّم كلٌّ منهما في هذه الوثيقة الهامَّة والمؤثِّرة فكرتهما عن المادِّيَّة التَّاريخيَّة، أو "إنه الاقتصاد، أيُّها الأحمق". وفقاً لماركس فإن "المادَّة" أو وسائل الإنتاج (التكنولوجيا، العمل، رأس المال ...) تُحدِّد العلاقات الاجتماعية، والثقافة والسياسة. تَستخدم الطبقةُ الحاكمة وسائلَ الإنتاج لاستغلال الطبقة العاملة. رأى ماركس أن الرَّأسماليَّة كسرت العلاقة بين عمل العمَّال ومُنتج عملهم. سوف تؤدِّي هذه العلاقة المقطوعة إلى ثورة الطبقة العاملة ضدَّ الطبقة الرَّأسماليَّة الحاكمة.

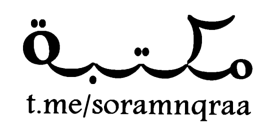
ماتت الماركسية اليوم في معظم أرجاء العالَم بعد 160 سنة من البيان الشُّيوعيِّ. لن تجد بالكاد شخصاً يعتقد بضرورة الصراع الطَّبقيِّ، أو دكتاتورية البروليتاريا، أو باغتراب العامل عن منتجات العمل. يعترف حتَّى أكثر المؤمنين المتحمِّسين بعد سقوط جدار برلين في عام 1989، وانهيار الاتِّحاد السُّوفيتيِّ في 1991، بأن الشُّيوعيَّة كانت أيديولوجية خاطئة على نحو خطير. فَهِمَ دنغ شياوبينغ (1904-1997) في الصين الشُّيوعيَّة هذا بالفعل قبل عشر سنوات.

قرَّر بينغ تطبيق بعض أفكار السوق الحُرَّة دون التَّخلِّي عن الخطاب

الشُّيوعيِّ. لم يعد هناك أيُّ دول شُيوعيَّة مغلَقة في العالَم، ما عدا كوريا الشَّماليَّة بالطبع.

لا تزال بعض أفكار ماركس حَيَّة حتَّى اليوم، على الرغم من انتهاء الشُّيوعيَّة. كارل ماركس هو الذي جعلنا نعتقد أن معظم الأشياء التي تحدث نجد أساسها في الاقتصاد، وربَّما أكثر من آدم سميث نفسه. إن الأمم المتَّحدة وإعلان حقوق الإنسان أقلّ أهمِّيَّة بكثير من صندوق النقد الدُّوليِّ أو البنك الدُّوليِّ. بدأ الاتِّحاد الأوروبي كمجتمع اقتصادي. وبعد مرور ستِّين عاماً على تأسيسه في عام 1957، لم تتحوَّل أوروبا إلى مجتمع سياسي بعد. كانت فكرة الآباء المؤسِّسين أنه إذا شرعت أوروبا بالتعاون الاقتصادي، فسيتبع هذا لاحقاً الاتِّحاد السِّياسيُّ. اتَّضح اليوم أنهم كانوا مخطئين.

إذا نظرنا مرَّة أخرى إلى حقائق وأرقام تراجُع العَولَمَة والحُرِّيَّة والدِّيمقراطيَّة في العالَم، فسنرى أن هذه الاتِّجاهات قد بدأت بين عامَي 2005-06، قبل الأزمة المالية والاقتصادية، وبالتالي تراجع النُّمُوُّ الاقتصادي. يعطينا هذا مؤشِّراً على أن أسباب هذا الانكماش ليست اقتصادية على الأرجح. يصعب على الكثيرين بالطبع أن يصدِّقوا هذا. إذا لم يكن الاقتصاد، فما الذي يمكن أن يمثِّل أساس التغيير؟ أقول مجدَّداً إنه علم النفس. أغرقت كل تلك التجارب الصادمة الناس في أزمة هوية. إنه الاكتئاب الجماعي، حيث تقود الحالة النَّفسيَّة مجتمعات بأكملها باتِّجاه القَبْلَنَة.



الفصل السابع
ما هي أزمة الهوية؟(*)

أزمة الهوية، أو الأزمة الوجودية، هي حالة نفسية عقلية، يعانيها الأفراد الذين يشعرون بالاكتئاب والغضب والضياع، والذي يتساءلون حول الأسس الحقيقية لحيواتهم، ومعظمهم من ذوي الأداء ومستوى الذكاء العالي. عادة ما تحدث مثل هذه الأزمة بعد تجربة مؤلمة مثل التَّعرُّض لخيبة أمل شديدة، أو بعد انتهاء علاقة ما، أو وفاة أحد أفراد الأسرة أو فقدان مكانته على نحو مفاجِئ. ينتج عن هذه الصدمات فقدان الثقة بالنفس واحترام الذات، ويمكن أن يؤدِّي إلى القَبْلَنَة. لا تنطبق هذه العملية من الانهيار النَّفسيِّ على الأفراد وحسب، بل تنطبق على المجموعات أيضاً. عندما تشعر المجموعات بالضياع، وتشرع في عملية القَبْلَنَة، تنظر إلى الماضي، وتبحث عن مخلص قائد لإنقاذها، وتفكِّر بعقلية الأبيض والأسود، ونحن وهم، وتحاول العثور على رموز مشتركة تجمعها، وتصاب بجنون الارتياب، وترى الأعداء في داخل وخارج هذه المجموعات. ولكنْ، قبل أن نتعمق في سيكولوجية المجموعات، لا بدَّ أن نفهم ما الذي تفعله أزمة الهوية بالفرد.

تؤثِّر أزمة الهوية في رفاه الشخص أكثر من غيرها من اضطرابات المزاج الأخرى مثل الاكتئاب أو الإجهاد. غالباً ما يتعلَّق الإجهاد بالعمل. وليس بالضرورة أن ينتج عن ساعات العمل الطويلة. الإجهاد هو شعور بالسخرية والاكتئاب أو الخمول الناجم عن إجهاد مزمن يتعلَّق بعدم قدرة الشخص على السيطرة على عمله، وعدم الشعور بالارتباط بالأهداف التي يتعيَّن

---

*) أنا مدين في هذا الفصل لرؤى جون لورد ألدرديسوإ وجين كوه، الطَّبيبَيْن النَّفسيَّيْن الاستثنائيَّيْن.

على المرء أن يحقِّقها، أو الافتقار للدعم. ربمَّا يصاحب الاكتئاب العديد من الأعراض المشابهة مثل الإجهاد، ولكنها لا علاقة لها بالعمل.

هناك نوعان من الاكتئاب، الاكتئاب لمرَّة واحدة الناجم عن الحزن أو ردِّ الفعل الذِّهنيِّ على الدواء أو المخدِّرات. وهناك الاكتئاب السَّريريُّ، المعترَف به كاضطراب عقلي. هذا النوع هو عادة متكرِّرة ومستمرَّة، ويرافقه تدنِّي احترام الذات، وانعدام الاهتمام بالأنشطة الممتعة.

معظم الناس يعرفون شخصاً على الأقلِّ في دائرة أصدقائهم أو أسرتهم يعاني حاليَّاً من الإجهاد أو نوع من نوعَي الاكتئاب. لديَّ عدد من الأصدقاء الذين اضطرُّوا إلى التَّغيُّب لفترة عن العمل، بسبب الإجهاد. عادة ما تأتي أخبار الإرهاق بمثابة مفاجأة للآخرين، لأن هؤلاء الأشخاص الذين يعانون من الإجهاد يميلون عادة لإخفائه حتَّى تنفجر الفقاعة. فجأة يتحوَّلون إلى مجرَّد ظلال للشَّخصيَّة التي كانوا عليها. يفقدون الاهتمام بالأشياء التي اعتادوا القيام بها، والأشخاص الذين اعتادوا على رؤيتهم. يصبح هؤلاء الأشخاص هَشِّين، وقد ينهارون في البكاء، لأسباب يصعب على الآخرين فَهْمها. وغالباً ما ينكمشون على أنفسهم، ويغرقون في حالة من الخمول. يُعدُّ الإرهاق مؤقَّتاً لحسن الحظِّ، وغالباً لا يستمرُّ أكثر من عام واحد.

الاكتئاب مؤقَّت أيضاً، طالما أنه ليس اكتئاباً سريرياً. كان أصدقائي المصابون باكتئاب سريري يُخفون في البداية مشاكلهم النَّفسيَّة، ولكن هذا الاكتئاب عبارة عن حالة ذهنية، تصاحب هؤلاء على الدوام، ولا تفارقهم، وفي اللحظة التي يصبح هذا الشعور بالكآبة أكبر من قدرتهم على التعامل معه، يختفون فجأة، وينفصلون عن العالَم الخارجي. لا يردُّون على هواتفهم، ويرفضون فتح الباب لأحد. يقضون وقتهم في السرير، ويبكون لساعات طويلة دون أن يعرفوا السبب. ولأنهم لا يشعرون بالقدرة على القيام بأيِّ فعل كان، فإنهم لا يُبلِغون رؤساءهم في العمل الذين يتساءلون عن سبب

غيابهم. فَقَدَ أحد أصدقائي وظيفة أحلامه، بسبب هذا بالضبط. لا يختفي الاكتئاب السَّريريُّ أبداً: فالشخص الذي يعاني منه ليس لديه خيار آخر سوى محاولة التعايش معه واحتوائه كلَّما ظهر على السطح.

تبدو أزمة الهوية للوهلة الأولى، وكأنها تحمل خصائص كلٍّ من الإجهاد والاكتئاب. ولكن أسبابها تعود أيضاً إلى الإجهاد، وما يرتبط بشؤون العمل. ولكن أزمة الهوية تحفر جذورها عميقاً في علم النفس الإنساني. ولهذا السبب، فإن الصدمة التي تسبق هذه الأزمة تجعل الأرض تحت أقدام هؤلاء الأشخاص، وكأنها اختفت. تهزُّ هذه الأزمةُ قِيَمَهُم ومعتقداتهم هزّاً عنيفاً. إذ يبدو كل شيء بلا قيمة في نظرهم، ويفقدون ثقتهم بأنفسهم واحترامهم لذواتهم. وبما أن هذه الأزمة تحدث في المقام الأوَّل عند الأفراد أصحاب الإنجازات الكبرى، تنهار نفسيات هؤلاء الأشخاص، لدرجة تجعلهم يشعرون بأنهم نكرات. يفقد هؤلاء الناس بوصلاتهم تماماً.

عالم النفس الألماني الأمريكي إريك إريكسون (1902-1994) هو الذي صاغ عبارة "أزمة الهوية" في الخمسينيات. رأى في تصوُّره لمراحل التَّطوُّر في الحياة أن تشكيل الهوية هو ضرورة حقيقية في سنِّ البلوغ (سنّ 13-19). نحاول خلال هذه السنوات العثور على إجابات لأسئلة مثل: مَنْ نحن؟ وماذا يمكن أن نكون؟ تُعدُّ هذه المرحلة مرحلة حاسمة للغاية في التَّطوُّر، لأنها تُلخِّص مراحل التَّطوُّر السابقة، ويمكن من خلالها توقُّع المراحل اللَّاحقة. تمثِّل هذه المرحلة نقطة تحوُّل في تطوُّر الإنسان، حيث يتمُّ فيها التوفيق بين "الشخص الذي سيصبح عليه المرء" و"الشخص الذي يتوقَّع المجتمع أنه سيصبح عليه". تخضع أزمة الهوية هذه الرؤية الأساسية للمساءلة والتَّأمُّل.

وجد أريكسون، في أثناء محاولته العثور على مخرج من هذه الاضطراب، أن الناس يميلون إلى اتِّخاذ أربعة مسارات مختلفة: العزلة والإلهاء والتسامي

والإرساء. العزلة هي محاولة لمنع كل المشاعر السَّلبيَّة، وهي طريقة لتجنُّب المواجهة مع عالَم، لم يعد له وجود. الإلهاء هو محاولة لمنع العقل من تشغيل نفسه. ويُعدُّ هذا الخيار الفعَّال لتجاهل المشكلة. أمَّا التسامي، فهو تركيز أكبر على الطاقة الإيجابية، للتَّخلُّص من السَّلبيَّة. ويمكن أن يتمَّ ذلك من خلال الرسم أو الموسيقى أو السفر. ويمكن لهذا التسامي أيضاً أن يكون من خلال التزام جديد بالمفهوم الإيجابي. ولا بدَّ لهذا الجانب الإيجابي أن يكون متوفِّراً بالطبع. رغم كل هذا، فإن المسار الذي يختاره معظم الأشخاص الذين يعانون من أزمة هوية هو الإرساء: العثور على نقطة ثابتة معروفة مثل الدِّين أو المجموعات الاجتماعية المغلَقة أو أيّ فكرة أو أيديولوجية معيَّنة. يبحث الناس عن الأمن والدفء للمجموعة، أو ما يمكن أن أُطلق عليه "القبيلة".

القَبَلِيَّة أو القَبْلَنَة باللغة العربية هي خيار العودة إلى القبيلة، والتي تمنح المرءَ الدفءَ والهويةَ الواضحة. وهذا ما يفعله الأفراد بعد أن يكتفوا من العيش في العالَم المربك والمشوّش خارج دائرة القبيلة. المثير في الأمر أن علماء النفس قد وجدوا، في أثناء بحثهم عن مخرج من أزمة الهوية، أن الناس يفضِّلون، في كثير من الأحيان، الهوية الواضحة والسَّلبيَّة في الوقت نفسه على الهوية الإيجابية المشوَّشة والضعيفة.

لهذا ينضمُّ الناس إلى مجموعات مثل نادي ملائكة الجحيم للدَّرَّاجات النَّاريَّة Angels Hell's. وربَّما يُعدُّ هذا سبباً محتملاً للانضمام إلى أيِّ نوع من أنواع الطوائف أو الجماعات. حاول شهود يَهْوَه، عندما كنتُ أدرس في جامعة بولونيا (في إيطاليا)، إقناع أحد الطُّلَّاب الإيطاليِّيْن من شركائي في السَّكَن بأن ينضمَّ إليهم، وقد نجحوا في ذلك، لأنه كان يعاني أزمة هوية. كان هذا الشخص منفتحاً على أيِّ نوع من الإقناع، لأنه فَقَدَ ذلك الإطار من القيَم والمعتقدات الذي يجعله متماسكاً. استغلَّ هؤلاء حالته الذِّهنيَّة الهشَّة المشوَّشة لزعزعة معتقداته. قالوا له مثلاً إن يسوع لم يمتْ

على صليب، بل على عمود، لأن الرومان لم يكونوا يستخدمون الصلبان في ذلك الزمن. النتيجة التي تترتَّب على هذه الحقيقة هي أن المسيحية تقوم على كذبة. لقد أراد صديقي الإيطالي في الحقيقة أن يُصدِّق هذا، لأنه كان يبحث عن شيء منطقي. كان يبحث عن قبيلة، يستطيع أن يشعر في أحضانها بالأمان والقبول.

يعاني معظم الشباب الغربيِّيْن البالغين الذين يقرِّرون السفر إلى سوريا، ليصبحوا مقاتلين في صفوف ما يُطلَق عليه اسم الدولة الإسلامية من أزمة هوية مماثلة. تأخذ قصص حيواتهم مسارات مشابهة. يعيش هؤلاء حياة ليس فيها الكثير من الدِّين، ولا يتمتَّعون بالكثير من التعليم الدِّينيِّ التَّقليديِّ. ثمَّ يحدث شيء ما يهزُّ هويتهم، وقد يكون هذا عبارة عن فقدان وظيفة أو صديقة مثلاً. ويمكن أن يكون السبب في ذلك أيضاً الوقت الذي يقضيه هذا الشخص في السجن لارتكابه جرائم صغيرة أو جنح. أو ربمَّا يخوض مواجهة مع مجتمع لا يقبله كمواطن كامل. ربمَّا تؤدِّي واحدة أو مجموعة من هذه التجارب المؤلمة بهؤلاء إلى اتِّخاذ قرار بأن يصبحوا "مسلمين مولودين من جديد"، ويذهبون بسرعة باتِّجاه التَّطرُّف. ينضمُّ هؤلاء الأشخاص إلى قبيلة، لها هوية واضحة المعالم، على الرغم من كونها هوية سلبية للغاية.

ربمَّا مرَّ عمِّي جيرمين بهذه العملية عندما انضمَّ إلى Waffen-SS. لم يعرف أوَّل المقاتلين الفلمنديِّيْن الذين ذهبوا إلى ألمانيا لمحاربة الاتِّحاد السُّوفيتيِّ أنهم سيصبحون جزءاً من قوَّاتSS. أمَّا في المرحلة التي ذهب فيها عمِّي، فقد كان يعرف ذلك تماماً. لقد اختار عمِّي واعياً هوية قَبَلِيَّة سلبيَّة. لن نعرف أبداً الأسباب الدقيقة لاختياره هذا وما حدث معه شخصياً. لا يمكن أن يكون انهيار وول ستريت 1929 وفقدان والده لأمواله قد صدمه، لأنه كان في السادسة من عمره وحسب. ولكنْ، قد يكون هناك تفسير ما: انتُخب في "منين Menen" أوَّل رئيس بلدية اشتراكي

في مقاطعة فلاندرز في عام 1921. وبقي رئيس بلدية هذا حتَّى 1938، ليخلفه بعدها رئيس بلدية ليبرالي. كان اللِّيبراليُّون والاشتراكيون في ذلك الوقت معروفين بمعارضتهم للكنيسة الكاثوليكية. لا بدَّ أن هذا الاستحواذ المعادي للكاثوليكية على مدينة عمِّي الكاثوليكي قد هزَّه، وأربكه. وربمَّا قد يكون قد غذَّى قراره الجذري في النضال من أجل معتقداته في أوكرانيا، في الوقت الذي فَقَدَ النضال في وطنه معناه.

كل هذه القصص قصصٌ فرديَّة بالطبع. ويمكن لفكرة أزمة الهوية أن تكون بمثابة تفسير لكل قصَّة من هذه القصص. السؤال هو ما إذا كان الإطار النَّفسيُّ الفرديُّ يمكن تطبيقه أيضاً على مجموعات كبيرة أو حتَّى على مجتمعات بأكملها. أعتقد أنه يمكننا القيام بذلك. من المنطقي القول إن المجتمعات أيضاً يمكن أن تعاني من أزمة هوية. تعاني المجتمعات، مثل الأفراد تماماً، من الصدمات الجماعية. لا تُعدُّ فكرة علم النفس الجماعي فكرة جديدة. نُشرت أوَّل دراسة معروفة لعلم نفس الجماهير في عام 1895، على يَدَي الكاتب الفرنسي الموسوعي غوستاف لو بون (1841-1931)، في كتابه "سيكولوجيا الجماهير". أظهر لو بون علم السيكولوجيا الجماعية للجماهير على أنها ظاهرة سلبية، واصفاً هذه الجماهير بأنها غير متسامحة واستبدادية ومحافظة. كان لو بون يعتقد أن الأفراد يفقدون قدرتهم على التفكير النَّقديِّ بمجرَّد اندماجهم في الحشود، ثمَّ ينقادون بسهولة للقيادة الاستبدادية.

لا عجب، إذنْ، أن كتاب سيكولوجيا الجماهيرPsychologie des foules كان واحداً من الكُتُب المفضَّلة للزعيم الفاشي الإيطالي بينيتو موسوليني.

قرَّر سيغموند فرويد (1856-1939) البناء على أفكار لوبون في كتابه

"علم نفس الجماهير وتحليل الأنا" في عام 1921. يشرح فرويد كيف يشعر الناس بنوع من القوَّة اللَّانهائيَّة عندما يصبحون جزءاً من الحشود. أمَّا الجانب السَّلبيُّ، هو أن الشخص يخسر فرديّته الواعية، ويطوف على أمواج من مشاعر الجماهير. دائماً ما تكون المجموعات متقلِّبة ومندفعة، ويعود هذا إلى حدٍّ كبير لحقيقة أنها موجَّهة باللَّاوعي. لم يكن فرويد ليكون ما كان عليه، لولا تسليطه الضوء على أن هذا اللَّاوعي يسترشد أيضاً بالغرائز، وأهمّها الغريزة الجنسية. في جميع الأحوال، عندما يكون الفرد جزءاً من مجموعة، فإنه يستبدل بأحلامه الخاصَّة (الأنا المثالية) أحلامَ المجموعة وقائدها. أو يمكننا القول، على حدِّ تعبير فرويد إن "الجماهير الأوَّلية هي عدد من الأفراد الذين وضعوا شيئاً واحداً ووحيداً مكان أناهم المثالية، ليتماهوا بالتالي مع الآخرين". كتب فرويد في عام 1929 كتاباً جديداً، عنونه "قلق في الحضارة"، تقوم أطروحته على أن المهمَّة الأساسية للحضارة تكمن في قمع غرائز الحُبِّ والعدوان في الإنسان، ويؤدِّي هذا إلى الكثير من السخط والقلق. لخَّص فرويد التاريخ البشري، باعتباره معركة دائمة بين الحضارة والغريزة. رغم أن فرويد كان يشير إلى الدِّين فقط، فمن الواضح أن كتابه هذا يمثِّل، ولو جزئياً، انعكاساً لصعود الفاشية في أوروبا.

أمَّا المحلِّل النَّفسيُّ النّمساويُّ الآخر، ويلهم رايخ (1897-1957)، فلم يترك أيَّ شكٍّ في العلاقة بين الغريزة الجنسية وصعود النزعة الشُّموليَّة. رأى رايخ أن هناك صلة حقيقية بين القمع الجنسي والاقتصادي. لذلك أصبحت مهمَّته تكمن في الجمع بين نظريات ماركس وفرويد. نشر رايخ كتاب "سيكولوجية الجماهير في الفاشية" في عام 1933، والذي طرح فيه أن القمع الجنسي كان بمثابة أساس للفاشية، وكذلك الشُّيوعيَّة.

وفقاً لرايخ، فإن الناس كان ينجذبون للفاشية، لأنها تستخدم الرموز الجنسية (مثل الصليب المعقوف) للوصول إلى لا وعي الناس. وقد أُصيب الناس بالصدمة. جرَّدَ الحزبُ الشُّيوعيُّ وكذلك الجمعيةُ الدُّوليَّة للتحليل النَّفسيِّ، رايخَ من عضويته في كلٍّ منهما. حُرقت كُتُبه بمجرَّد وصول النَّازِيِّيْن إلى السلطة في ألمانيا، ثمَّ في الولايات المتَّحدة لاحقاً.

جاء دور يونغ، بعد ثلاث سنوات من رايخ، ليحاول شرح صعود الفاشية في ألمانيا. كتب يونغ في عام 1936 مقالاً بعنوان Wotan، والذي حاول فيه أن يفهم النَّفسيَّة الألمانية من خلال دراسة أسطورة (God Odin) أو Wotan الذي لا نزال نجد اسمه في يوم الأربعاء بالإنجليزية Wednesday.

Wotan هو إله العاصفة وشهوة الحرب. كان عبارة عن ساحر قوي، يعرف أسرار الطبيعة. يعتقد يونغ أن Wotan كان يعود إلى عقول الناس، كلَّما ضعفت المسيحية. يعتقد يونغ أيضاً أن ارتباط اللَّاوعي الجمعي بالرموز الدِّينيَّة كان مُغرِياً للجماهير. الرموز الدِّينيَّة للرايات والمواكب كانت الرموز التي رآها الناس في أعلام ومسيرات الفاشية.

لا أعتقد أن هناك أيَّ شخص اليوم سيدافع عن فكرة أن القمع الجنسي يمثِّل سبباً حقيقياً للحركات الاجتماعية أو السِّياسيَّة. لستُ متأكِّداً أيضاً ممَّا إذا كان هناك شيء مثل عالَم اللَّاوعي الجماعي.

عقدت دراسات علم النفس الاجتماعي، ولعدَّة قرون في الحقيقة مقارنات بين علم نفس الأفراد وعلم نفس المجموعات. وضع الأطبَّاء النَّفسيُّون بحوثاً كثيرة أيضاً حول كيف يمكن للمجموعات أن تعاني من نوع من الاضطرابات العقلية، والتي تُنسب عادة للأفراد فقط. اقترح الطبيب النَّفسانيُّ والسِّياسيُّ اللِّيبراليُّ الإيرلنديُّ جون لورد ألدرديس

(-1955) استراتيجيات نفسانية لمعالجة مثل هذه الأزمات في علم نفس المجموعات الكبرى، بما فيها ذلك النمط النكوصي الذي أُسمِّيه القَبْلَنَة، وغيرها من الظواهر مثل الأصولية والتَّطرُّف وحلقة الإرهاب.

يمكن أن تعاني المجتمعات، مثل الأفراد، من تجارب مؤلمة.

كان إطلاق النار الجماعي في مدرسة كولومبين الثَّانويَّة في عام 1999 تجربة مؤلمة لكل المجتمع الأمريكي بأكمله. سبَّبَ اختطاف وقَتْل رئيس الوزراء الإيطالي ألدو مورو في 1978 صدمة كبيرة للمجتمع الإيطالي. كما ترك اغتيال الرئيس المصري أنور السادات بعد ثلاث سنوات على أيدي عناصر من جيشه ندوباً عميقة في أرواح المصريِّيْن والإسرائيليِّيْن. كان السادات أوَّل رئيس عربي امتلك شجاعة إقامة السلام مع إسرائيل. وترك اغتيال السِّياسيِّ الهولنديِّ الشَّعبويِّ بيم فورتوين في عام 2002 صدمة عميقة على المجتمع في هولندا. هناك أيضاً أحداث درامية، يبدو أنها تؤثِّر على العالَم بأسره. لا يزال يتذكِّر الجميع أين كانوا عندما سمعوا باغتيال الرئيس جون كينيدي في دالاس في 22 تشرين الثاني/ نوفمبر 1963، أو في 11 أيلول/ سبتمبر. هذا ما يمكن أن نطلق عليه الصدمات العالَميَّة. ويؤدِّي المرور بكل هذه الصدمات إلى تغيير الطريقة التي ينظر بها المرء إلى العالَم.

ليس كل حدث مُهمٍّ عبارة عن صدمة، كما هو واضح، بل إن معظم هذه الأحداث الهامَّة ليس عبارة عن صدمات على الإطلاق. قدَّمتُ في الفصل الرابع لمحة عامَّة إلى كل الآمال والأحداث الإيجابية التي حدثت في 05/2004. تكمن المشكلة في أننا بالكاد نتذكَّر الأحداث غير المؤلمة، وهذا جزء من الطبيعة البشرية. كما لا نتذكَّر أيضاً الأحداث السَّيِّئة، إذا لم تكن صادمة بما فيه الكفاية. ما يجعل أيَّ حدث عبارة عن

صدمة هو الطريقة التي تهزُّ بها معتقداتنا وقِيَمنا، وحقيقة أنها تسبِّب صدعاً في هويتنا. في الحقيقة - يبدو أن المجتمعات تتفاعل بنفس الطريقة التي يتفاعل فيها الأفراد: على نحو قَبَلِيٍّ. تتفاعل المجتمعات كما تفعل القبائل.(*)

وتستجيب المجتمعات غالباً، مثل الأفراد تماماً، للتجارب المؤلمة، ممَّا يؤدِّي إلى أزمة الهوية من خلال العودة إلى الجزء الذي "يعرفونه" من الماضي، وهذا ما أصفه بالقَبْلَنَة.

يعود هؤلاء الناس إلى الأفكار القَبَلِيَّة (القديمة) والسلوك القَبَلِيِّ (القديم). تستند هذه الأفكار القَبَلِيَّة في الغالب على أسطورة الماضي العظيم. تُعدُّ هذه الأسطورة الطريق الوحيدة نحو مستقبل عظيم. عملية القَبْلَنَة هي عملية تتضمَّن دائماً خَلْق الأعداء. ويُعدُّ النضال ضدَّ الأعداء الخارجيِّيْن أمراً أساسياً، في الوقت الذي يصبح فيه الأعداء الدَّاخليُّون عبارة عن "خَوَنَة من الداخل"، لأنهم يُضعفون القبيلة في معركتها الوجودية.

أزمات الهوية والقَبْلَنَة هي جزء من مفهوم أوسع في التحليل النَّفسيِّ: النكوص. يعتقد سيغموند فرويد أن الناس غالباً ما يتفاعلون مع حالات التَّوتُّر الخطيرة من خلال النكوص إلى مرحلة سابقة من مراحل النُّمُوِّ والتَّطوُّر. النكوص هو آلية الدفاع النَّفسيِّ للإنسان لحماية نفسه من الإجهاد أو من

---

*) وبصرف النظر عن الأفكار النَّفسيَّة التي أوردناها، هناك تفسير أنثروبولوجي أيضاً، بدءاً من رينيه جيرار. توضِّح الدراسة الأنثروبولوجية لجيرارد كيف تجعل التجارب الصادمة القبائل تركِّز على هويتها الأساسية، عائدة إلى تشديد أكثر فأكثر على القانون والثقافة والمقدَّس، وكيفية تعاملها مع الخوف والعدوان عن طريق الانقلاب ضدَّ "الآخر"، من خلال استعمال آلية كبش الفداء.

تبحث الجماعات في الأزمات عن الضَّحيَّة التي يُلقون عليها باللَّائمة فيما يتعلَّق بأسباب الأزمة. وهذه الضَّحيَّة - سواء أكانت فرداً أم مجموعة من الأشخاص – ينبغي التضحية بها من أجل إعادة النظام إلى القبيلة. يرى جيرارد في آلية كبش الفداء بداية الدِّين. لكنها أيضاً ظاهرة متكرِّرة. كلَّما واجهت القبائل أو الجماعات أزمة خطيرة، تعود لاستعمال آلية كبش فداء هذه لحلِّ الأزمة. أو كما قال جيرارد: "إذا ما كان هناك نظام طبيعي في المجتمعات، فلا بدَّ أن يكون ثمرة أزمة خارجية".

أيِّ تهديد مُحدِق (مُتخَيَّل). يجعل النكوص الفرد يتراجع، "ويعود إلى قاعدته"، لينظر في ذاته؛ ويتأمَّل فيها. ومن نتائج هذا النكوص الدِّفاعيِّ جنون الارتياب أو فقدان الثقة في "الآخر". تُدعى هذه العملية النَّفسيَّة بعملية الإسقاط، فنحن ندافع عن أنفسنا من خلال إسقاط "العناصر السَّيِّئة" الخاصَّة بنا على "الآخرين". ولذلك نخلق أعداء، ونستخدم آلية كبش الفداء للتَّخلُّص من الآخر "الخطير".

ومن الأعراض الأخرى رؤية العالَم باللَّونَيْن الأسود والأبيض، والذي يُطلَق عليه التحليلُ النَّفسيُّ مصطلحَ "الانشطار - الفُصَام". تختفي المنطقة الرَّماديَّة، ولا يبقى سوى الانقسام الحادِّ بين الجيِّد والسَّيِّئ. يفرِّق بعض الأطبَّاء بين النكوص الحميد والخبيث. يمكن للنكوص أن يكون جيِّداً، إذا كان خطوة مؤقَّتة إلى الوراء، تُمكِّن شخصاً ما من الاستقرار مجدَّداً. ولكنْ، إذا تابع الشخص عملية النكوص هذه بسبب تجارب صدمة مفرطة أو متكرِّرة، يتحوَّل الوضع إلى مشكلة مستعصيةٍ على الحلِّ. لا بدَّ أن نستخدم أزمة الهوية هنا بالذات: إن التجارب الصادمة التي تهزُّ أسس هوية الفرد تجعل الأشخاص يغرقون في نكوص طويل الأجل. ينكص الفرد إلى مرحلة البلوغ التي تشكَّلت فيها الهوية.

وبما أن مسألة الهوية تؤثِّر على كلٍّ من الأفراد والجماعات، فإن المجموعات تنكص أيضاً إلى مرحلة أزمة الهوية.

لاحظ عالِم النفس البريطاني ويلفريد بيون (1897-1979) في السِّتِّينيَّات، أن المجموعات الصغيرة يمكن أن تعاني من النكوص أيضاً عند تعرُّضها للإجهاد. ومن أكثر الأنماط المتكرِّرة التي وجدها أن المجموعات التي تتعرَّض للضغوط تصبح سلبية، وتختار قائداً "ليُنقذها"، وتقوم أيضاً بنبذ أضعف العناصر في المجموعة أو أكثرها اختلافاً، وتُحمِّلها ذنب كل المشاكل التي تعاني منها. وعندما يزول التَّوتُّر، تعود معظم المجموعات

إلى حالتها "الناضجة". وإذا كان سبب النكوص الجماعي هو التَّعرُّض لصدمة أو للعديد من الصدمات، يمكن أن تَعْلَقَ هذه المجموعات في مرحلة النكوص هذه. ولا يوجد مجال كبير للنقاش أو التبادل الحُرِّ للأفكار في المجموعة التي ترزح تحت "التهديد".

استخدم عالم النفس القبرصي الأمريكي فاميك فولكان (1932) منذُ الثَّمانينيَّات، علم النفس الجماعي لفَهْم كيفية عمل الجماعات الكبرى أو البلدان، لا سيَّما في سياق العلاقات الدُّوليَّة والنزاعات. وقد لاحظ فولكان أن البلدان والدول أيضاً، يمكن أن تقع في فخِّ "النكوص المجتمعي". شرح فولكان على موقعه الإلكتروني الشَّخصيِّ، كيف أن نكوص الجماعات الكبيرة (مثل المجموعات العِرْقِيَّة والقومية والدِّينيَّة) يحدث عندما يتشارك غالبية أعضاء المجموعة بعض المخاوف المعيَّنة. يعكس النكوص الجماعي الكبير، بعد تعرُّض مجتمع لصدمة ضخمة، مثل الخسائر الفادحة في الأرواح والممتلكات أو الهيبة، و/ أو الإذلال من قبَل مجموعة أخرى، جهود مجموعة ما وقائدها للمحافظة على هويّة المجموعة المشتركة أو حمايتها أو تعديلها. تتبع المجموعات الكبيرة، في هذه الحالة، نفس ردود الفعل المشابهة للمجموعات الأصغر التي تحدَّث عنها بيون. تختار هذه المجموعات الزعيم الذي يمكن أن "يُنقذها"، ويبدؤون مرحلة التفكير بثنائية الأبيض والأسود. تجد الدول أيضاً أعداء جدداً (داخلها و/ أو خارجها) لا بدَّ من أن تُخلِّص نفسها منهم. استخدم فولكان ألمانيا النَّازيَّة كمثال. كانت ألمانيا مُحاصَرة في حلقة لا تنتهي من الذُّلِّ بعد الحرب العالَميَّة الأولى المؤلمة. اختارت ألمانيا زعيماً سوف "يُنقذها"، وكان اليهود هم العدوَّ الجديد الذي لا بدَّ من تخليص ألمانيا منهم.

إذا كان النكوص موجوداً على المستوى الفردي، وعلى مستوى المجموعة، وحتَّى على مستوى الدولة، فمن المحتمل أن يكون مطبَّقاً على المستوى العالَمي أيضاً. بعد سبعة عقود من العَولَمَة المستمرَّة،

ارتبط الناس أكثر من أيِّ وقت مضى اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً فيما بينهم. يمكن لأيِّ حدث في أيِّ مكان في العالَم أن يؤثِّر علينا في بلادنا. تؤثِّر الأخبار السَّيِّئة حول الاقتصاد الصِّينيِّ على أسواق الأسهم في جميع أنحاء العالَم. تُسبِّبُ الأخبار حول الأمراض والفيروسات مثل السارس وإيبولاوزيكا، أو أنفلونزا الطيور، التَّوتُّر والذعر على بُعْد آلاف الأميال من مكان انتشارها. وعندما تقتل القاعدة أو داعش الأبرياء في هجوم في باريس أو تونس، ندرك أن هذا يمكن أن يحدث في أيِّ مكان. يمكن أن نكون جميعاً ضحايا أبرياء لهذا الإرهاب العشوائي. كما يُعَدُّ تغيُّرُ المناخ مشكلة عالمية أيضاً، حيث إن إنتاج الكثير من غازات الدفيئة في أحد البلدان قد يُسبِّب الجفاف أو الفيضانات على بُعد آلاف الأميال.

يعني هذا الترابط العالَمي أن هناك إمكانية كبيرة لأزمة هوية عالمية أو نكوص عالمي. جاءتْني فكرة "النكوص العالَمي" من تواصلي الشَّخصيِّ مع الطبيب النَّفسيِّ الأمريكي أوجين كوه حول كيفية الجمع بين مفاهيم القَبْلَنَة ونكوص المجموعات الكبيرة. تتمتَّع كلتا العمليَّتَيْن بالأسباب نفسها وبالنتائج نفسها. إن كلاً من أزمة هوية المجموعة والنكوص الجماعي ناجمان عن تجارب مؤلمة. يمثِّل الإرساء والنكوص فكرة "العودة إلى القاعدة"، سواء كانت هذه القاعدة مُتخَيَّلة أم لا. تنطوي كلا الأزمَتَيْن على التفكير بالأبيض والأسود وخَلْقِ أعداء، وكذلك إيجاد طُرُق للتَّخلُّص من هؤلاء الأعداء. ومن المُهمِّ أن نشير إلى أن كلاً من الإرساء والنكوص يمثِّلان اضطرابات نفسية: حيث يمكن تخيُّل أيِّ نوع من الأعداء، وذلك نتيجة لجنون الارتياب الذي يُعدُّ اضطراباً نفسياً آخر.

إن صعود السلوك القَبَلِيِّ في بلدٍ ما ليس عبارة عن عملية منعزلة خاصَّة بالبلد نفسه. أثَّر ظهور الفاشية في إيطاليا، في العشرينيات والثَّلاثينيَّات من القرن الماضي، على صعود الأنظمة الشُّمُوليَّة في الدول الأوروبية الأخرى مثل رومانيا والمجر وبولندا وإسبانيا وألمانيا. ويعزِّز النجاح

الاقتصادي اليوم لدول مثل سنغافورة والإمارات العربية المتَّحدة التعاطف مع الأنظمة غير الدِّيمقراطيَّة في أمريكا الجنوبية وآسيا وأفريقيا. أو هذا ما سمعتُهُ على الأقلِّ من السِّياسيِّيْن الكبار والمفكِّرين البارزين خلال أسفاري في هذه القارَّات.

عندما تَحُدُّ الغالبية السِّياسيَّة في المجر من سلطة المحكمة الدُّستُوريَّة وحُرِّيَّة الصحافة دون عقوبات شديدة من الاتِّحاد الأوروبي، فإن هذه السياسة غير اللِّيبراليَّة تصبح نموذجاً للأحزاب والقادة الأوروبيِّيْن الآخرين. تُعدُّ بولندا المثال الأوضح على هذا، من خلال تفكيكها لدُستُورها، ولكنْ، ليس هناك شكٌّ في أن بلداناً أخرى سوف تسير على خطاها.

ليس هناك تناقض في "القَبْلَنَة العالَميَّة"، فالقَبْلَنَة ليست مجرَّد كلمة أخرى للتعبير عن النزعة القومية أو النزعة المحلِّيَّة. لا تتوقَّف القَبْلَنَة على الحدود الوطنية والهويات الوطنية مقابل الهوية العالَميَّة. يمكن أن تكون القبيلة أُمَّةً أو بلداً، بل يمكن أن تكون أيضاً ديانة أو عِرْقاً أو طائفة دينية. أو عبارة عن خطاب مجموعة مثل محاولات داعش لجَذْب المسلمين السُّنَّة في جميع أنحاء العالَم. يحاول دعاة الدولة الإسلامية تطوير سَرْدِيَّةٍ حول الإذلال التَّاريخيِّ للإسلام السُّنِّيِّ من قبَل الآخرين كلهم، ولهذا السبب يتمكَّنون من جَذْب المقاتلين من جميع أنحاء العالَم. الإسلام السُّنِّيُّ ليس محدوداً بالبُعْد الإقليمي، لذلك فإن إحياء القَبْلَنَة السُّنِّيَّة أصبح نزعة عالمية مثل الخوف من الإرهاب الإسلامي. تتشابه الخطب اللاَّذعة المعادية للإسلام لدونالد ترامب في الولايات المتَّحدة ومارين لوبان في فرنسا تشابهاً كبيراً.

إن تاريخ العالَم عبارة عن تاريخ من التواصل والتكامل، وبالتالي العَولَمَة. ولكن تاريخ العَولَمَة مع ذلك تاريخ من حالات النكوص المؤقَّتة. تأتي هذه اللحظات عندما يتوقَّف التكامل والتعاون، ويسود التَّفكُّك والتنافر. يشبه

التاريخ بهذه الطريقة تطوُّر العقل البشري. يتكوَّن عقل الطفل من مجموعة شذرات من الصور والأشكال. تأخذ هذه الأشكال بالاندماج خلال فترة النضج. يعني النضج أن الأشكال المختلفة في العقل أصبحت مندمجة ومتكاملة. وكلَّما زاد تكامل العقل، ازداد استقرار الشخص وتوازنه. وتحت الضغط بالضبط ينحسر هذا العقل المتكامل، وينكص إلى مرحلة سابقة أقلّ تكاملاً. يتفكَّك العقل تماماً في أسوأ الحالات، ويمكن عندها اعتبار أن الشخص قد أصبح مجنوناً. ولكن هذا مجرَّد استثناء. عادة ما يعود الناس للوقوف على أقدامهم، ويعود العقل إلى تكامله.

إن النكوص في التكامل العالَمي مجرَّد مراحل مؤقَّتة، لكن هذا لا يعني أيضاً أنها ليس خطيرة، فالقَبْلَنَة مُعدِيَة. يدفع المجتمع القَبَلِيّ المجتمعات الأخرى إلى نفس العملية. يزيد وجود داعش من الخوف من الإسلام في أجزاء أخرى من العالَم، ويدفع الخطاب المعادي للإسلام المسلمين في الغرب نحو أزمة هوية أعمق. يتمثَّلُ ردُّ فعل البعض من خلال الانضمام إلى داعش والهجوم على المجتمع الغربي. إن الشعور بأنّكَ تتعرَّض للهجوم يؤدِّي إلى مزيد من الخوف المتأصِّل في الغرب، والذي يؤدِّي بدوره إلى الدعوة إلى إغلاق الحدود، ورفض منح التأشيرات للمسلمين، أو الدعوة حتَّى لترحيلهم تعسُّفيّاً. وهناك أيضاً المقاتلون الأجانب الصِّينيِّيْن والروس الذين انضمُّوا إلى داعش، حيث أخذت هذه الدول بالخوف أيضاً من الهجمات، وباتِّخاذ تدابير كثيرة لمَنْعها. يملأ هذا المسلمين في الصين وروسيا بانعدام الارتياح. يحمل قرار روسيا بالمشاركة في الحرب في سوريا، فيما تدَّعي أنها حرب ضدَّ داعش، تأثيراً كبيراً بدوره على تركيا. يكسبُ الأكراد السُّوريُّون، بفضل الحماية الرُّوسيَّة، المزيد من الأراضي، الشيء الذي تعتبره تركيا تهديداً وجوديّاً. ولا تمثِّل كل هذه الأشياء سوى مكوِّنات قليلة من تأثير الدومينو الذي سوف يؤدِّي إلى القَبْلَنَة العالَميَّة.

قبل أن نتعمَّقَ في الوضع الحالي، من المثير للاهتمام أن ننظر إلى فترة

النكوص السابقة، فترة الثَّلاثينيَّات. شعر الناس في أوروبا بالضياع بطُرُق مختلفة، بعد التجارب المؤلمة للحرب العالَميَّة الأولى وانهيار وول ستريت 1929. استسلمت الجماهير للنكوص أو "الإرساء" أو الحركات القَبَلِيَّة مثل الفاشية والقومية الاستبدادية والشُّيوعيَّة والكنيسة الكاثوليكية. وجد الناس إحساساً جديداً بالهدف والهوية الجديدة عن طريق إحياء الأساطير القَبَلِيَّة من الماضي المجيد. وأدَّى خَلْق الأعداء الخارجيِّيْن والدَّاخليِّيْن إلى الإبادة الجماعية والتطهير "الجماعي". ساهمت أزمة الثَّلاثينيَّات في واحدة من أكثر نزعات القَبْلَنَة المدمِّرة في تاريخ العالَم. ولستُ فخوراً على الإطلاق بأن بعض أفراد عائلتي كانوا جزءاً من كل هذا.

الفصل الثامن
لماذا انضمَّ جَدِّي للنَّازِيِّيْن؟

عندما وجدتُ صورة جَدِّي الحبيب بالزِّيِّ العسكريِّ النَّازيِّ، صُدِمْتُ صدمةً كبيرة. ولكنْ، سرعان ما تطوَّرت الصدمة إلى سؤال كبير: كيف وصل إلى هذه المرحلة؟ لقد كان يتمتَّع بتعليم جيِّداً، ويعمل مدرِّساً في المدرسة المحلِّيَّة، في وقت كان فيه المعلِّم وكاتب العدل والكاهن يمثِّلون النخبة في المدينة. كان هؤلاء الأشخاص محترَمين من الجميع بفضل تعليمهم. أدخل جَدِّي كمدرِّس مسرحيات الدّمى في النظام التَّعليميِّ. شكَّلت هذه الدّمى الأساس الذي استند عليه برنامج "ذا ما بيت شو". اقتنع جَدِّي أنه قادر من خلال مسرحيات الدّمى على تعليم الأطفال القِيَم بطريقة يستمتعون بها. ابتكر جَدِّي بعض الشَّخصيَّات، وطلب من حِرَفِيٍّ محليٍّ أن ينحت الدّمى من الخشب. كان عليه أن يناضل في سبيل ذلك، لأن البيروقراطية أعاقت هذا النوع من الابتكار الذي كان من شأنه تسلية الأطفال. في تلك السنوات كان التعليم يمثِّل مسألة خطيرة وهامَّة للغاية. كتب جَدِّي الكثير من النصوص المسرحية لمسرح العرائس، وقد نُشرَتْ على نطاق واسع.

ضمَّتْ مكتبة جَدِّي كُتُبَ تاريخٍ عن عصر النهضة، والسِّيَر الذَّاتيَّة للمؤلِّفين المشهورين في القرن التاسع عشر، وكُتُباً عن الدِّين والأدب باللغة الهولندية والفرنسية والإنجليزية والألمانية. لم تتضمَّن المكتبة جميع مسرحيات شكسبير وحسب، بل الكثير من التعليقات على أعماله أيضاً. وقَّع الكُتَّاب الفلمنديُّون المعروفون على كُتُبهم، وكتبوا إهداءات حميمة

عليها لجَدِّي. كتب إرنست كلايس (1885-1968)، أحد أشهر الكُتَّاب الفلمنديِّيْن، مقدّمة السيرة الذَّاتيَّة التي كتبها جَدِّي عن أحد النَّحَّاتين البارزين في بلجيكا. يمكن لنظرة بسيطة على مكتبة جَدِّي أن تُبيِّن أنه كان جزءاً من الأوساط الأدبية في البلاد، وأنه قد حَظِيَ بتقدير في هذه الأوساط.

كيف يمكن لتربويٍّ ناجحٍ ومبدعٍ وقارئ جيِّد، وكاتبٍ ينشُر على نطاق واسع، ويتحدَّثُ أربع لغاتٍ، أن يصبح تابعاً وفيَّاً لواحدة من أكثر الإيديولوجيات البربرية في التاريخ؟ لا بدَّ أن هناك خبرات مؤلمة قد سمَّمت أفكاره. لا بدَّ أن هناك شيئاً ما قد سمَّمَ عقلَ هذا الرجل المثقّف المحبِّ للتعليم، وملأه بالكراهية. وبعبارة أخرى، ما الذي حوَّل هذا المفكِّر المُعَوْلَم إلى نازي قَبَلِيٍّ؟ مات جَدِّي لسوء الحظِّ قبل أن أسأله هذا السؤال. سألتُ أُمِّي، حفيدَتَه، ولكنها لم تكن تعرف الإجابة أيضاً. فضَّلتْ الأسرةُ التَّكتُّمَ على هذا الأمر. تمكَّنتُ من طرح هذا السؤال على أشخاص لهم ماضٍ مشابهٍ، ولكن هذا لن يكون منصفاً تماماً، لأن كل شخص لديه أسبابه، لذلك قرَّرتُ البحث عن إجابة في آثار جَدِّي المتبقِّية: مكتبته.

وجدتُ بين العديد من الكُتُب المدهشة في المكتبة كُتيِّباً صغيراً، يحمل عنوانIJzerbedevaart 1930 أو(Yser Pilgrimage 1930) بدأ هذا الحجُّ بعد الحرب العالَميَّة الأولى، حيث لم يكن ذلك مجرَّد ذكرى للجنود الفلمنديِّيْن الذين ماتوا في الخنادق، بل كان أيضاً عبارة عن مظاهرة سياسية، تطالب بحقوق الناطقين بالفلمنديّة في البلاد. لا بدَّ لفَهْم هذا الحجِّ الاطِّلاع على القليل من تاريخ بلجيكا. أعاد مؤتمر فيينا رسم خريطة أوروبا بعد هزيمة الإمبراطور الفرنسي السابق نابليون بونابرت (1769-1821) في واترلو في عام 1815. أنشأت مملكة هولندا كدولة عازلة بين ألمانيا وفرنسا وبريطانيا العظمى. كانت هذه المملكة مكوَّنة ممَّا أصبح اليوم هولندا وبلجيكا ولوكسمبورغ، حيث أصبحت اللغة الرئيسة هي الهولندية، والدِّين الأساسي هو البروتستانتية. النخبة البلجيكية هي

النخبة الكاثوليكية التي تتحدَّث الفرنسية. وعندما كرهوا تدخُّل الملك الهولندي في شؤونهم، شنُّوا ثورة في عام 1830، وهي الثورة التي أدَّت إلى استقلال بلجيكا.

أصبحت اللغة الرَّسميَّة للمملكة البلجيكية الجديدة هي اللغة الفرنسية. تحوَّلت هذه اللغة إلى لغة المدارس والسياسة والمحاكم. ولكن معظم الناس في الجزء الشَّماليِّ من البلاد لم يكونوا يتحدَّثون الفرنسية. معظم هؤلاء كانوا من الفلاَّحين الذين يتحدَّثون لهجاتهم المحلِّيَّة المرتبطة باللغة بالهولندية. لم تتَّفق حركة المثقّفين مع هذه الهيمنة الفرنكوفونية، ولكنهم أدركوا أنه بدون لغة مشتركة، فقد يخسرون قضيتهم، لذلك قرَّروا الترويج للُّغة الهولندية كلغة رسمية للفلاندرز. أصبح القرن التاسع عشر عصر القومية المتنامية. بدأ الكُتَّاب الفلمنديُّون في كتابة كُتُب عن الماضي الأسطوري في فلاندرز، ممجِّدين بعض المعارك في القرن الرابع عشر ضدَّ الفرنسيِّيْن. ثمَّ طالبوا بالحقِّ في التعليم باللغة الهولندية، وهو أمر معقول للغاية بالطبع.

غيَّرتْ الحرب العالَميَّة الأولى طبيعة الحركة الفلمنديّة. قبل عام 1914 كانت عبارة عن حركة فكرية، تركِّز على التَّحرُّر الثَّقافيِّ. تحوَّلت هذه الحركة بعد الحرب إلى حركة جماعية سياسيّة وعاطفيّة، بدلاً من النقاشات الثَّقافيَّة. كانت الحرب العالَميَّة الأولى، مثل أيِّ حرب أخرى، تجربة صادمة لجميع الذين شاركوا فيها. يمكن القول إن هذه الحرب أكثر حرب مروِّعة في التاريخ. كانت الحياة في الخنادق بمثابة جحيم على الأرض، وكان احتمال النصر شبه معدوم لأيٍّ من الجانبَيْن، حيث لم يتحرَّك خطُّ الجبهة الأمامي تقريباً لمدَّة أربع سنوات طويلة. جعل استخدام المدافع الرَّشَّاشة وغاز الخردل القتال أكثر عنفاً وجحيمية. وفي الوقت الذي كانت فيه هذه التجربة صادمة للجميع، وجد المقاتلون الفلمنديّون أنهم يعانون صدمة إضافية، الصدمة التي أثَّرت على قبيلتهم بأكملها.

كانت لغة الجيش في عام 1914 لا تزال اللغة الفرنسية. إلَّا أن العديد من الجنود المنخرطين في القتال كانوا من الشباب الفلمنديِّيْن العاديِّيْن الذين لا يتحدَّثون الفرنسية. لذلك توجَّب عليهم اتِّباع الأوامر بلغة لم يفهموها. سبَّب هذا حركة التَّمرُّد الفلمنديّة في الخنادق في الجبهة. قام أعضاء "حركة الجبهة"(Frontbeweging) هذه بدَفْن رفاقهم في قبور "فلمنكية"، مستخدمين الصليب السِّلْتِيِّ. كره الجنود الآخرون فكرة المقابر الخاصَّة، ودأبوا على تدنيسها. عندما انتهت الحرب العالَميَّة الأولى في عام 1918، قرَّرتْ "حركة الجبهة" الاجتماع سنوياً لإحياء ذكرى هذه الصدمة. كانوا يتجمَّعون في المقابر على طول الخطِّ الأمامي لنهر إيزير. أعادوا جثامين رفاقهم، وطالبوا بالحقوق السِّياسيَّة. سُمِّيت هذه التَّجمُّعات باسم "حجّ إيزير". كان أحد الشعارات في رحلات الحجِّ هذه: "هنا دماؤنا، فمتى سنحصل على حقوقنا؟". زعمتْ هذه الحركة أن المزيد من الجنود الفلمنديِّيْن قد ماتوا أكثر من الجنود الفرنكوفونيِّيْن، نتيجة لمشكلة اللغة. حتَّى إن البعض قال إن الناطقين باللغة الفرنسية أرسلوا الجنود الفلمنديِّيْن إلى معاركَ انتحارية عن قَصْد. شكَّلت هذه القصص صدمةً جماعيةً، وبنَتْ كراهيةً عميقةً ضدَّ كل شيء فرنكوفوني.

في عام 1918، كان جَدِّي يبلغ من العمر 20 عاماً. رغم أنني لا أعرف بالضبط ما كان دوره في الحرب، إلَّا أنه بالتأكيد كان جزءاً من الصدمة الفلمنديّة. ولهذا انضمَّ إلى اجتماعات "حجّ إيزير" هذه وأيَّد مطالب الحركة. في عام 1928، بُني برج على أحد الحقول المجاورة لنهر إيزير. كان برج إيزير يمثِّل أكثر من مجرَّد نصب تذكاريّ. لقد كان هذا البرج رمزاً سياسياً، وإعلاناً صخرياً صريحاً، تعلوه الأحرف الأولى AVV-VVK: أي كل شيء في سبيل فلاندرز، والفلاندرز في سبيل المسيح. وعلى الرغم من أن هذه الحركة حصلت على ما يشبه المساواة في جميع الحقوق التي طالبت بها، إلَّا أن برج إيزير لا يزال قائماً، وما زالت هذه التَّجمُّعات

مستمرَّة. انضممتُ في مراهقتي إلى واحد من رحلات الحجِّ هذه. كان الناس لا يزالون يُغنُّون نفس الأغاني القومية، ويشاهدون نفس العروض مع الأعلام، ويستمعون إلى نفس النوع من الخطب ضدَّ ما يُسمَّى المؤسَّسة الفرنكوفونية.

الفرق بين هذا وبين الحجِّ الذي حضره جَدِّي في عام 1930 هو أن المتظاهرين في ذلك الوقت قد اشتبكوا مع الشرطة. في أثناء إحدى التَّجمُّعات حلَّقتْ طائرةٌ فوقهم، وألقت أعلاماً بلجيكية صغيرة وشعارات مناهضة للفلمنكية. أغضب هذا "الحُجَّاج" الذين انتقلوا إلى الميدان الرئيس للمدينة القريبة. انتظرت الشرطة هناك، وفرَّقتْ المظاهرة بعنف، ممَّا منحَ سبباً آخر لتطرُّف الحركة الفلمنديّة. قرأتُ في كُتيِّب "حجّ إيزير 1930" الكراهية في خربشات جَدِّي في كل صفحة ضدَّ كل ما يمثِّل الدولة البلجيكية. كانت بلجيكا برأيه هي العقبة الحقيقيَّة في طريق الحقوق الفلمنديّة. شعر أنه كان من واجبه كمثقّف قيادة هذه المعركة في سبيل فلاندرز مستقلَّة عن "العدوِّ" البلجيكي.

في عام 1933، العام الذي تولَّى فيه أدولف هتلر السلطة في ألمانيا، قام أعضاء هذه الجبهة بتأسيس الاتِّحاد الوطني الفلمنديّ. أرادت هذه الحركة الشُّموليَّة الراسخة انفصال فلاندرز عن بلجيكا، والانضمام إلى هولندا. أصبح جَدِّي عضواً في هذا الاتِّحاد. غيَّر اسمه من "ريمي" الذي يشبه نطقه اللغة الفرنسية إلى "Joris" الفلمنديّ. وكان يعتقد مثل العديد من أعضاء الاتِّحاد الوطني الفلمنديّ أن ألمانيا ستساعد فلاندرز في تحرير نفسها من بلجيكا. أحبَّتْ ألمانيا النَّازيَّة فكرة دعم الفلمنديّين. موَّلت وزارة الإرشاد والدعاية في الرايخ منذُ عام 1937 فصاعداً بقيادة جوزيف غوبلز هذا الاتِّحاد، حيث اعتبروا الفلمنديِّيْن جزءاً من "العِرْق الآري". ومنذ ذلك الحين سوف يتحوَّل الاتِّحاد الوطني الفلمنديّ من القومية الفلمنديّة إلى الاشتراكية القومية أو النَّازيَّة.

لا بدَّ أنني أفضِّل رواية قصَّةٍ مليئةٍ بالفخر حول جَدِّي الذي كان ثابتاً ومصرَّاً على القِيَم اللِّيبراليَّة في زمن الفاشية، ولكن هذا لم يحدث. تمنَّيتُ أيضاً لو كان اضطرَّ إلى التَّحوُّل إلى النَّازيَّة رغماً عنه، ولكن هذا غير صحيح. كان شخصاً ذكياً ومتعلِّماً بما فيه الكفاية، ليعرف حقَّاً ما كان يفعله. كان لديه أيضاً نسخة من كتاب أدولف هتلر "كفاحي" في مكتبته. ولا يوجد سبب للاعتقاد بأنه لم يقرأ هذا الكتاب الشِّرِّير مراراً وتكراراً نظراً لكونه قارئاً جيِّداً للغاية متعطِّشاً للمعرفة. إذنْ، هذا ما حدث بالفعل، وليس هناك أيّ طريقة لإنكار ذلك. كان جَدِّي جزءاً من أكثر الحركات القَبَلِيَّة وحشية في التاريخ.

يمثِّل كتاب "كفاحي" لهتلر مثالاً مثاليَّاً على كيفية تحوُّل أزمة الهوية إلى النكوص والقَبْلَنَة. كانت تجربة ألمانيا في عام 1918 تجربة مؤلمة للغاية، بالنسبة إلى هتلر. خدم هتلر كجندي برتبة منخفضة، يقاتل على خطِّ الجبهة بالقرب من نهر إيزير في فلاندرز. لا بدَّ أنه صدَّق الدعاية الألمانية بأن النصر كان قريباً، لأنه لم يستطع فَهْم سبب قرار جنرالاته بالاستسلام. تهاوى كل ما آمن به هتلر أمام عينَيْه. تجربتُه المؤلمة تجربة عميقة للغاية، لدرجة أنه ادَّعى أنه قد فَقَدَ بصره لفترة من الزمن. ذهب في طريق الإرساء في أثناء رحلة بحثه عن الإجابات. جاءت نقطة الإرساء الخاصَّة به في ماضي ألمانيا العظيم. كان على المجتمع الألماني، في سبيل استعادة عَظَمَة "الرايخ الألماني"، العودة إلى ماضيه الأسطوري الذي يتَّسم بالنقاء. تمثَّلَ الطريق إلى الخلاص في العودة إلى عصر الطهارة والنقاء الألماني. توجَّب على ألمانيا التَّخلُّص من أعدائها، أولئك الذين تآمروا ضدَّ عَظَمَة ألمانيا، ودنَّسوا ألمانيا: اليهود. تحوَّل اليهود، وفقاً لهتلر، إلى أعداء داخليِّيْن، في الوقت الذي كان البلاشفة الروس هم الأعداء الخارجيِّيْن. ولأن جميع المؤسَّسات الدِّيمقراطيَّة الألمانية مُختَرَقَة ومُوجَّهة من قبَل اليهود، لم يكن هناك حلٌّ آخر سوى تدمير هذه المؤسَّسات،

واستبدالها بمؤسَّسات ألمانية "حقيقية". اعتقد هتلر أيضاً أن مؤامرة يهودية عالمية أدَّت إلى أن تمنح القوى المنتصرة الألمان مساحة صغيرة للغاية في معاهدة فرساي (1919) بعد الحرب العالَميَّة الأولى. جاءت إجابته من خلال توسيع ألمانيا، وتدمير هذه الحدود المصطنعة.

لذلك اتَّبعت ألمانيا في الفترة ما بين الحربَيْن العالَميَّتَيْن ما أُسمِّيه نمطَ القبيلة. بدأ الأمر بصدمة جماعية (خسارة الحرب العالَميَّة الأولى والإذلال في معاهدة فرساي)، والتي أدَّتْ بدورِها إلى أزمة هوية (ماذا يعني أن تكون ألمانيَّاً؟). أرسى الناس أنفسهم في الماضي القَبَلِيِّ الأسطوريِّ (الأُمَّة الآريَّة النَّقيَّة)، مُركِّزين على هذه الهوية الفرديّة، وفي البحث عن قيادة قوية، لجَعْل بلادهم عظيمة مرَّة أخرى. لا يمكن تحقيق هذه العَظَمَة إلَّا إذا تخلَّصتِ القبيلة من الأعداء الخارجيِّيْن المُختَلَقين والمُتَخَيَّلين (روسيا الشُّيوعيَّة)، والأعداء الدَّاخليِّيْن (اليهود والشُّيُوعيُّون الألمان)، والخوَنَة (اللِّيبراليُّون والمثقّفون). لم يعد بالإمكان إيقاف تيَّار عملية القَبْلَنَة هذه، والتي أدَّت إلى العنف (القَمْع والاغتيالات)، وإلى الحرب في النهاية (الحرب العالَميَّة الثانية).

من المدهش رؤية كيفيَّة عودة هذا النمط القَبَلِيِّ مراراً وتكراراً في العديد من الأيديولوجيات والحركات الأخرى. هناك نمط مماثل في تفكير سيِّد قطب مثلاً، الأب المؤسِّس للحركات الجهادية. تعرَّض الدكتور قطب أيضاً لتجربة مروِّعة في أثناء إقامته في الولايات المتَّحدة في الخمسينيات، حيث كان يعاني من التمييز العنصري. كان عبارة عن ناقدٍ أدبيٍّ وفكريٍّ مُنفتحٍ ومحترَم قبل ذهابه إلى أمريكا. تغيَّرتْ نظرتُه للعالَم في الولايات المتَّحدة، وتقهقر، ونكَصَ، ليقع في أزمة الهوية. نقطة الإرساء التي استخدمها كانت دينه، أي الإسلام. عاد في كتابه "معالِم في الطريق" إلى الماضي الأسطوري للنّقاء الإسلامي في زمن الخلفاء الراشدين. فَقَدَ العالَمُ العربي عَظَمَتَهُ بالنسبة إلى قطب، بسبب انحرافه عن الطريق القويم. يتمثَّل الطريق

إلى الخلاص وجَعْل العالَم العربي "عظيماً" مجدَّداً في العودة إلى عصر النقاء والصفاء الأوَّل. ويتوجَّب على العالَم العربي من أجل تحقيق هذا الهدف تخليص نفسه من الأعداء الذين كانوا يحاولون منع ذلك. يرى قطب أن العدوَّ الخارجي هو الغرب الاستعماري في محاولاته لفرض القِيَم الأجنبية على العالَم العربي. أمَّا الأعداء الدَّاخليُّون، فهم الدِّيكتاتوريُّون وأتباعهم المدعومون من الغرب المنحطِّ. أراد قطب التَّخلُّص من جميع المؤسَّسات السِّياسيَّة، لأنه اعتبرها اختراعات استعمارية. كما فرضت القوى الاستعمارية الغربية الحدود المصطنعة داخل العالَم العربي، لذلك كان لا بدَّ من إلغائها.

إن حقيقة أن العديد من الألمان آمنوا بخطاب هتلر، وأن العديد من العرب قد تبنَّوا أفكار قطب، تشير إلى أنهم عانوا من نفس التجارب المؤلمة. يمكن أن تؤدِّي الصدمات الجماعية إلى أزمة هوية جماعية. يبدو أن الحلَّ المقترَح في العودة إلى الماضي العظيم يبدو حلاً جذَّاباً، على الرغم من أن هذا الماضي العظيم نتاج الخيال والاختراع.

يبدو أن القبيلة جاهزة لتمجيد المرحلة المبكِّرة من وجودها: المسيحيون الأوائل، زمن الخلفاء الراشدين، الألمان الأوائل، الآباء المؤسِّسون للولايات المتَّحدة، سنوات ماو، حكم لينين، وما إلى ذلك. يمكن أن نرى بسهولة إذا حدث خطأ ما أنه مجرَّد انحراف عن المسار الأصلي. كلَّما زاد ضياعنا، زاد تمجيدنا للماضي.

قد يرى البعض بأن العرب الآخرين لم يشاركوا التجربة الصادمة لسيِّد قطب في الولايات المتَّحدة، لذلك لا يمكن اعتبارها صدمة جماعية، وهذا صحيح بالفعل. كانت أفكار قطب (وما زالت) ناجحة في العالَم العربي، لأنها أعادت فَتْح جراح تجارب الصدمة الأخرى المشتركة على نطاق واسع، مثل الاستعمار والهزيمة الساحقة في حرب 1967 أمام إسرائيل

(بعد الهزيمة السابقة في عام 1948 عندما غزت جميع الدول العربية المجاورة إسرائيل في محاولة لمنعها من إعلان دولتها). نحتاج الكثير من الوقت للحديث عن جميع الصدمات العربية خلال المائَتَي عام الماضية. ولكنني أودُّ أن أتحدَّث هنا عن صدمة أساسية واحدة، لأنها تعود إلى الحرب العالَميَّة الأولى، مثل النَّازيَّة تماماً.

يُعرِّفُ الغرب دورَ العالَم العربي في الحرب العالَميَّة الأولى على نحو أساسي، من خلال قصَّة لورنس العرب. يصف الجندي والكاتب البريطاني ت. ي. لورنس (1888-1935) في كتابه "أعمدة الحكمة السبعة" كيف أرسلتْهُ بريطانيا العظمى إلى الجزيرة العربية في محاولة لتنظيم تمرُّد عربيٍّ ضدَّ الإمبراطورية العثمانية. قرَّر العثمانيون الانضمام إلى الجانب الألماني. أراد البريطانيون من خلال تحريض العرب (أو ما يُعرَف اليوم بالمملكة العربية السُّعوديَّة) على التَّمرُّد، تدمير الإمبراطورية العثمانية الضعيفة أصلاً. كانت الثورة ناجحة للغاية، لأن العرب كان لديهم دوافع حقيقية لطَرْد العثمانيِّيْن، لأنهم وُعِدُوا بدولة عربية مستقلَّة، من مكَّة إلى دمشق.

تلقَّى قادة الثورة، العائلة الهاشميّة، وعداً بالجلوس على عرش هذه الدولة الجديدة. لكن البريطانيِّيْن لم يَفُوا بوعدهم، فقد عقدوا مع الفرنسيِّيْن صفقة سرِّيَّة لتشكيل الشرق الأوسط وتقسيمه بين الانتداب الفرنسي والبريطاني. رَسَمتْ كلٌّ من فرنسا وبريطانيا العظمى في اتِّفاقية سايكس بيكو الشهيرة في عام 1916 خطَّاً على الخرائط، والذي يُشكِّل في الوقت الحاضر الحدود بين فلسطين ولبنان وبين سوريا والأردن. أخذت فرنسا الأرض التي تقع شمال الخطِّ (لبنان وسوريا)، وأخذت بريطانيا الأرض جنوب الخطِّ (فلسطين والأردن والعراق).

شعر العرب بالخيانة، فلم يكن هذا ما قاتلوا من أجله، وليس هذا ما وُعِدُوا به. إضافة إلى هذه الخيانة، أعلن وزير الخارجية البريطاني آرثر بلفور

(1848-1930) في عام 1917 أن الشعب اليهودي له الحقُّ في إقامة وطن له في فلسطين. وهذا ما لخَّصَ الصدمة العربية كاملة في الحرب العالَميَّة الأولى. شعروا بأنهم قد خُدِعُوا، وأنهم تعرَّضوا للاستغلال. فلم تكن نتيجة قتالهم ضدَّ الإمبراطورية العثمانية أكثر من احتلال جديد. لقد أخذوا في حقيقة الأمر مفاتيح العالَم العربي من العثمانيِّيْن، وسلَّموها إلى الأوروبيِّيْن. عندما اجتمعتِ القوى المنتصرة في فرساي في عام 1919 لإعادة رسم خريطة أوروبا (والعالَم)، لم يُدعَ العربُ إلى هذه المائدة على الإطلاق، وكذلك المصريُّون. فقد وَعَدَتْ بريطانيا مصرَ بالاستقلال بعد الحرب. عاد الوفد المصري الذي سافر إلى أوروبا للتفاوض حول شروط استقلال مصر خالي الوفاض. أدَّى ذلك إلى ثورة مصرية في عام 1919، ولكنْ، دون نتيجة كبيرة تُذكَر مجدَّداً. إلَّا أن الأسوأ لم يأتِ بعد.

لم تَنهَرِ الإمبراطورية العثمانية في العالَم العربي فقط. أخذت هذه الإمبراطورية بالانهيار من الداخل أيضاً بعد الحرب العالَميَّة الأولى. فَقَدَ القادةُ الذين قرَّروا الانضمام إلى الحرب إلى جانب ألمانيا كل المصداقية التي كانوا يتمتَّعون بها. بدأ الجنرال الذي فاز بمعركة جاليبولي الحاسمة (1915-1916) ثورته الخاصَّة. كان هذا الرجل هو مصطفى كمال أتاتورك (1881-1938). بعد أن تولَّى أتاتورك السلطة في الجيش العثماني، أنشأ برلمانه الخاصَّ في أنقرة، وتجاهل كل قرار اتَّخذه السلطان وحكومته في اسطنبول. بدأ أتاتورك عملية إصلاحات أساسية عندما تمَّ الاعتراف بالبرلمان الجديد كحكومة شرعية لتركيا. ثمَّ أراد بوصفه معجباً بفرنسا أن تكون تركيا دولة علمانية، ثمَّ ألغى البرلمان، بناءً على طلبه، السلطنة عام 1923. لكن الأهمَّ من ذلك أن البرلمان قد ألغى في عام 1924 الخلافة العثمانية، أو القيادة الرُّوحيَّة الإسلامية.

صُدِمَ العالَم العربي تماماً، ويصعبُ على غير المسلمين بالطبع إدراك مدى ضخامة هذه الصدمة. فلأوَّل مرَّة منذُ بداية الإسلام، لم يعد هناك

خليفة للنَّبيِّ محمَّد. كان هذا شبيهاً بالموقف النَّظريِّ لإيطاليا لإِبطال البابويَّة، وبالتالي قيادة الكنيسة الكاثوليكية. لم يكن هناك أيُّ شيء يمكن فعله بالطبع. فنظريَّاً كان بإمكانهم تعيين خليفة آخر، ولكنْ، كيف؟ لم يكن هناك مكافِئ إسلامي لمجمَّع الكرادلة لانتخاب الخليفة الجديد. وأين ينبغي أن تكون هذه الخلافة؟ تاريخياً، كان مقرُّ الخلافة في المدينة المنوَّرة والكوفة ودمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة ومراكش واسطنبول. كان من المستحيل تحديد مكان الخلافة، أو كيف ينبغي (إعادة) إنشائها. لم تكن هناك أيُّ إجراءات عمليَّة متَّبعة. وهكذا لم يعد في العالَم الإسلامي خلافة منذُ عام 1924. من الصعب المبالغة في تقدير التأثير المؤلم الذي أحدثه هذا على العالَم العربي.

في عام 1928 - بعد بضع سنوات فقط - قرَّر أحد المدرِّسين المصريِّيْن، حسن البنَّا (1906-1949)، فعل شيء ما حيال ذلك. أنشأ جماعة الإخوان المسلمين، وهي حركة ذات هدف واحد ونهائي: إعادة الخلافة. لكنْ، بما أنه لم يكن هناك أيُّ إجراءات عملية متَّبعة، اختار استراتيجية أخرى. اعتقد البنَّا أنّه لا يمكن إعادة الخلافة إلَّا إذا تمَّت إعادة أسلمة المجتمع العربي بأكمله مجدَّداً. بمجرَّد عودة مصر والعالَم العربي بأسره، ليكونوا مسلمين حقيقيِّيْن، ستكون مهمَّة إعادة الخلافة مجرَّد إجراءٍ شكليٍّ. لقد كره البنَّا رؤية الكيفية التي استُعمِرَتْ فيها مصر، وتمَّ تحويلها إلى "مجتمع منحطٍّ، يشبه الغرب". يرى البنَّا أن التأثير الغربي هو الذي خلق كل المشاكل، لذلك كانت عقيدته تقوم على أن "الإسلام هو الحلّ".

كانت جماعة الإخوان المسلمين مُوجَّهة ضدَّ الغرب وتأثيره في مصر، وكذلك ضدَّ اللِّيبراليِّيْن الذين حكموا البلاد. فاللِّيبراليُّون بالنسبة إلى البنَّا هم العدوُّ، حيث كانوا يجعلون من مصر دولة علمانية حديثة. وعندما أخفق اللِّيبراليُّون في تحقيق الاستقلال المصري، فقدوا مصداقيتهم، وتنامى دعم جماعة الإخوان المسلمين على نحو مذهل. في عام 1948،

كان للجماعة بالفعل ألفا فرع ونصف مليون عضو. فَقَدَ المصريون، تماماً مثل الأوروبيِّينْ، ثقتهم بالدِّيمقراطيَّة اللِّيبراليَّة في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين. ربمَّا تكون الأسباب مختلفة، ولكن عملية القَبْلَنَة كانت نفسها هنا وهناك.

الحركة الفلمنديّة والإخوان المسلمون عبارة عن ردٍّ فعل على الصدمة الجماعية. رأى الفلمنديّون المؤسَّسة البلجيكية الفرنكوفونية كقوَّة احتلال؛ وفي مصر احتلَّ البريطانيون البلاد. ووجد كل منهما أعداء من الداخل. كان الأعداء في فلاندرز هم النخبة الفلمنديّة المؤيِّدة لبلجيكا (الذين غالباً ما يتحدَّثون الفرنسية)، أمَّا في مصر، فقد كان هؤلاء الأعداء هم اللِّيبراليِّينْ.

تمتَّعت الحركة الفلمنديّة بجانب ثقافي مُهمٍّ: أرادت تثقيف الناس لقراءة المزيد من الأدب الفلمنديّ والتَّحدُّث باللغة الهولندية بطريقة صحيحة بدلاً من العديد من اللهجات الفلمنديّة. حتَّى إن هناك حركات طلَّابية حاولت منع الطُّلَّاب الآخرين من التَّحدُّث بلهجاتهم. حتَّى اليوم، نجد علامات الطُّرُق في فلاندرز مُتلفةً، إذا كانت مكتوبة بالفرنسية. وفي مصر، كان الجانب الثَّقافيُّ للإخوان المسلمين هو الدِّين. حاولوا تثقيف الناس حول كيفية أن يصبحوا مسلمين أفضل. أرادوا في الوقت نفسه حظر النفوذ الغربي "المنحطّ". كان أحد أوَّل الإجراءات التي اتَّخذها حسن البنَّا هو الاحتجاج على سفينة عليها صورة سيِّدة عارية. وقد نجح في هذا.

سوف تجد كلٌّ من الحركة الفلمنديّة والإخوان المسلمون هذه المقارنة مهينة. سيقول كلاهما إن حركتهما تختلف اختلافاً جذرياً، ولا يمكنكَ مقارنة الصراع اللُّغويِّ داخل الأُمَّة مع النضال الدِّينيِّ المناهض للاستعمار. يمكن أن يدَّعي كلاهما أن حركته تدور حول التَّحرُّر والحقوق الأساسية. لكنْ، حتَّى لو كان هذا صحيحاً، فهو جزء واحد فقط من القصَّة. هناك جانب إشكالي في كلا الحَرَكَتَيْن: لديهما أعداء. وهذا ما يجعلهما قَبَلِيِّيْن حُكْماً.

والدافع الأساسي لديهما هو معركة عاطفية من أجل الهوية. لا يُعدُّ تفكير كلٍّ منهما متجذِّراً في الحجج المنطقية، بل في التجارب الدّراميَّة، حيث يكون بقاء القبيلة على المحكّ. وهذا ما يجعل منهما جماعات خطرة.

سيكون من السخف إطلاق صفة إرهابي أو إرهابي محتمَل على جميع أعضاء جماعة الإخوان المسلمين. ولكنْ، ليس من قبيل المصادفة أن الأيديولوجية الجهادية لسيِّد قطب وُلِدتْ من أفكار جماعة الإخوان المسلمين. بدأ الزعيم الحالي للقاعدة، أيمن الظواهري، حياته السِّياسيَّة كعضو في جماعة الإخوان المسلمين. يمكن قول الشيء نفسه بالنسبة إلى الحركة الفلمنديّة، حيث الغالبية العظمى من الناس شرفاء ومحترمون للغاية. ولكنْ، ليس من قبيل المصادفة هنا أيضاً، أن يتعاون جزء من الحركة مع ألمانيا النَّازيَّة، وأن الآلاف منهم أصبحوا جزءاً من قوَّات النخبة الألمانية Waffen-SS.

يمكن لكل إيديولوجية قَبَلِيَّة، سواء أكانت قومية أم دينية، أن تنزلق إلى العنف. وبما أن القَبْلَنَة مُعدِية، فإن هذا العنف يمكن أن يؤدِّي إلى الحرب. هذا هو بالضبط ما حدث في أوروبا بعد الحرب العالَميَّة الأولى. دفعت التجارب المؤلمة الناس في أحضان الزعماء القَبَلِيِّيْن. عشرون عاماً من تزايد القبائل وتراجع العَولَمَة أدَّت إلى حرب جديدة أكثر تدميراً.

الفصل التاسع
اضطراب العَولَمَة في الثَّلاثينيَّات

أُصيب العالَم بالانكماش في الثَّلاثينيَّات، وتعطَّلت العَولَمَة بعد أكثر من قرن من النُّمُوِّ السريع. أصبح العالَم في القرن التاسع عشر قريةً عالميةً من خلال توسيع شبكات السكك الحديدية والسفن التي تعمل بالبخار. كان افتتاح قناة السويس في عام 1870 بمثابة طفرة حقيقية في التجارة الدُّوليَّة. كما فتح الاستعمار، على الرغم من جوانبه المظلمة الكثيرة، قارَّات غير معروفة سابقاً في أوروبا، وجعلها جزءاً من التجارة والسياسة الدُّوليَّة. اتّحدت الدويلات الصغيرة في كلٍّ من إيطاليا وألمانيا في دولة واحدة. وضعت الولايات المتَّحدة حَدَّاً لانقساماتها الدَّاخليِّة، ووضعت نفسها على الطريق الصحيح، لتصبح لاعباً مُهمَّاً على نحو متزايد على الساحة العالَميَّة. انتشرت أفكار الثَّورَتَيْن الفرنسية والأمريكية بسرعة في جميع أنحاء العالَم، وأصبحت الدِّيمقراطيَّة شبه الدُّستُوريَّة والدُّستُوريَّة تمثِّل القاعدة لكل بلد يحترم نفسه.

في عام 1914، بدت الحرب العالَميَّة الأولى كمجرَّد حادث مؤقَّت في أعين كثير من الناس، ولم يتوقَّع امتدادها سوى القلَّة القليلة. اعتقد الجميع أنها ستكون حرباً قصيرة جدَّاً، لتعود بعدها الأيَّام السعيدة. ولكنْ، ليس هذا ما حدث: تبيَّن بدلاً من ذلك أن الحرب العظمى كانت أكثر الحروب تدميراً ورعباً في العالَم. أكثر من 17 مليون شخص قُتلوا، وجرح 20 مليوناً. انخرط إجمالاً ما لا يقلُّ عن 70 مليون رجل في القتال بطريقة أو بأخرى. أنهت الحرب أربع إمبراطوريات: الإمبراطورية الألمانية، والإمبراطورية

النّمساويّة المجرية، وروسيا القيصرية والسلطنة العثمانية. أُنشِئَت دول جديدة: النمسا والمجر وتشيكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا وبولندا وفنلندا وإستونيا ولاتفيا وليتوانيا في أوروبا، وتركيا وسوريا والعراق والأردن وفلسطين في الشرق الأوسط.

وكما ظنَّ الناس قبل الحرب أنها ستكون مجرَّد حرب قصيرة، فقد اعتقدوا أيضاً أن الأمور ستعود إلى ما كانت عليه أيضاً. عادت الدول الأوروبية الأخرى إلى "وضعها المعتاد"، باستثناء روسيا، حيث سيطر الشُّيوعيُّون على السلطة. لكن كل التفاؤل الذي ساد فترة ما قبل الحرب قد تلاشى. ملايين من أصحاب الأيدي العاملة عادوا إلى بيوتهم، إمَّا معاقين أو مصابين بصدمات خطيرة، وأصبح يُشار إليهم باسم الجيل الضائع. كان جَدُّ زوجتي أحدَهم، فهو مزارع شابٌّ، عاش في قرية صغيرة في بلجيكا، على 250 كيلومتر من الخطِّ الأمامي للجبهة. جنَّدوه حينها، واضطرَّ للقتال في الخنادق لعدَّة سنوات. عاد إلى وطنه رجلاً مكسوراً عندما انتهت الحرب. لم يستطع أن ينسى الفظائع التي عاشها، ولكنه مثل الكثير من الأشخاص المصابين بصدمات نفسية شديدة، لم يروِ قصصه لأحد. أبقى ميدالياته في الدرج، وترعرع أولاده مع أب متعَب تأكله المرارة، وحاول التعايش مع صدمته من خلال العمل بجِدٍّ قدر استطاعته. وربَّما كان هذا هو الحال بالنسبة إلى العديد من رفاقه الآخرين.

أثَّرت الحرب العالَميَّة الأولى على النَّفسيَّة الجماعية، لأن الصدمات الفردية تحوَّلت إلى صدمة جماعية. هذا ما حدث بالتأكيد مع ألمانيا، والتي عُوقبت بشدَّة من قبَل قوَّات الحلفاء. كان عليها أن تَحُدَّ من تعداد جيشها، وتسمح باحتلال قلبها الصِّناعيِّ، ودفع مبالغ تعويضات ضخمة. إضافة إلى أنه قد توجَّب على البلدان التي تأسَّست حديثاً اختراع هوية وطنية "جماعية". حَفَرتْ الصدمة الجماعية عميقاً في وجدان كلِّ بلد من البلدان التي شاركت في الحرب. تُرك الجيل الضائع في البلدان التي ربحت الحرب غارقاً في

التساؤلات، لماذا ضحَّوا كل هذه التضحية؟ وما الذي تلقَّوه في المقابل؟ أخذوا يطالبون بالحقوق الاجتماعية والسِّياسيَّة والبيئية. انضمَّ الكثيرون منهم إلى صفوف الأحزاب الشُّيوعيَّة والاشتراكية التي كانت تتنامى بسرعة. حاول آخرون التَّغلُّب على صدماتهم عن طريق الحفاظ على العلاقة والارتباط مع رفاق السلاح السابقين. تؤدِّي تفاعلات ما بعد الصدمة المختلفة في معظم البلدان إلى صدام بين اليسار واليمين. سوف يصبح كلا المعسكرَيْن أكثر جَذْرِيَّة من السابق. جعل عجز الأحزاب التَّقليديَّة عن إعادة بلادها على السِّكَّة الصحيحة المركزَ السِّياسيَّ يتفكَّك، وتسبَّبت أزمة هوية ما بعد الحرب في عملية قَبْلَنَة هالة الحجم على نطاق واسع.

كانت إيطاليا أوَّل بلد خَضَعَ لهذه العملية، حيث كان الجنود الإيطاليون يشعرون بالاضطراب الشديد، بعد أن اضطرُّوا للعودة إلى ديارهم بعد انتهاء الحرب. شعر هؤلاء الجنود أن إيطاليا لم تحصل على ما تستحقُّه من الحرب، وأنه تمَّ التقليل من التضحيات التي قدَّموها. لقد أمِلُوا على الأقلِّ في أن تَضُمَّ إيطاليا منطقة إستريا، "الجزء الإيطالي" من كرواتيا. ولكن إيطاليا، وعلى عكس فرنسا وبلجيكا، لم تحصل على أيِّ شيء في مقابل قتالها على الجانب الفائز في الحرب. شعر الكثير من الجنود بالخيانة الحقيقية. ربح هؤلاء الجنود الحرب، ولكنهم خسروا السلام. شكَّل هذا لهم صدمة جماعية من تجاربهم الشَّخصيَّة الصادمة في الحرب. عندما تدفَّقت الجماعات الشُّيوعيَّة والاشتراكية في شوارع مُدُن إيطاليا، قال الجنود السابقون لبعضهم البعض إنهم لم يعانوا كل هذا، ليرَوا بلادهم تُدمَّر على أيدي الجماعات اليسارية التي عارضت الحرب منذُ البداية. لذلك قرَّروا اختيار القتال. أنشأ بينيتو موسوليني في آذار/ مارس 1919 "Fasci di combatimenti" أو المجموعات القتالية. تشير كلمة "fascio" إلى الصورة الرُّومانيَّة لحزمة من القضبان، والتي ترمز إلى قوَّة الناس غير القابلة للكسر عندما يتَّحِدُون. أراد الفاشيون جعل إيطاليا عظيمة مجدَّداً.

فاز الحزب الوطني الفاشي في عام 1921 بـ 37 مقعداً من أصل 535 مقعداً برلمانياً، أي بنسبة 14.4٪. قرَّر موسوليني وفاشيُّوه، على الرغم من هذا التمثيل السِّياسيِّ الضئيل، تنظيم مسيرة في روما في عام 1922 والاستيلاء على السلطة. رفض الملك الإيطالي، فيكتور عمانويل الثالث (1869-1947) التوقيع على أمر عسكري لتفريق الحشود. ولكنه، بدلاً من ذلك، عيَّنَ بينيتوموسوليني رئيساً للوزراء. غيَّر الفاشيون القوانينَ الانتخابية، وفازوا في الانتخابات المشكوك فيها في عام 1924. حظر موسوليني بعد عام واحد جميع الأحزاب الأخرى، وأسَّس نظاماً دكتاتورياً سيستمرُّ حتَّى نهاية النظام الفاشي في عام 1943. بدت المعارضة ضعيفة للغاية، ومنقسمة داخلياً، لتتمكَّن من مَنْع بلدها من الانغلاق على نفسه.

سارت حكاية الفاشية الإيطالية في المسار الكلاسيكي لعملية القَبْلَنَة. جعلت التجارب المؤلمة للحرب العالَميَّة الأولى، وأزمة الهوية الناتجة عنها، الناس ينكصون إلى ماضيهم الإمبراطوري الرُّومانيِّ الأسطوري. لقد وجدوا في موسوليني الزعيم الذي من شأنه أن يحلَّ مشاكلهم، ويهزم أعداءهم المعارضين لعَظَمَتهم الجديدة. هؤلاء الأعداء طبعاً هم اللِّيبراليُّون والاشتراكيون والشُّيوعيُّون وغيرهم من المعارضين للفاشية، والذين تمَّ إسكاتهم أو حتَّى قَتْلهم. كتب جيوفاني جنتيلي، أحد المفكِّرين الأيديولوجيِّيْن الأساسيِّيْن للفاشية الإيطالية، في عام 1928 في مجلَّة "فورين أفيرز"، أن الفاشية "مُعادِية بكل وضوح للفكر [...]، وليست مُعادِية للثقافة بقدر عدائها للثقافة الرديئة، الثقافة التي لا تُعلِّم، والتي لا تصنع الرجال، بل تخلق مجموعة من المتحذلقين عبيد الجماليات، أي بعبارة أخرى مجموعة من الأنانيِّيْن، وأشخاصٍ مختلفين أخلاقياً وسياسياً [...] بالنسبة إلى الفاشية، [...] الدولة عبارة عن خَلْق وتكوين روحانيٍّ كُلِّيٍّ". فضَّل أتباع موسوليني الهوية السَّلبيَّة للفاشية على أيِّ هوية أخرى غير واضحة.

كان نجاح الفاشية الإيطالية مُعدِياً. فقد وجد الكثيرون في الفاشية نموذجاً ينبغي اتِّباعه، نظراً لأن العديد من الدول الأوروبية اضطرَّت إلى التعامل مع نفس النوع من الصدمات وأزمة الهوية نفسها.

في بولندا، البلد الذي تأسَّس حديثاً، قاد المارشال بيلسودسكي (1867-1935) انقلاباً في عام 1926، وأنهى النقاش البرلماني حول دَمْج ستِّ عُملات مختلفة، والعديد من الأقلِّيَّات. وفي نفس العام، قام جيش ليتوانيا بانقلاب عسكري أيضاً، وعلَّق عمل البرلمان، ومنح كل السلطات لرئيس الوزراء، أنتاناس سميتونا (1874-1944). تراوحت اليونان بين الدِّيكتاتوريَّة العسكرية والجمهورية في الفترة بين 1923 و1927. استولى أمير الحرب أحمد زوغو (1895-1961) في ألبانيا على السلطة بانقلاب عسكري في عام 1924، وأعلن نفسه ملكاً. وفي يوغوسلافيا، علَّق الملك ألكساندر (1888-1934) عمل البرلمان والدُّستُور في عام 1928، كما ألغى حُرِّيَّة الصحافة والأحزاب السِّياسيَّة. وفي إسبانيا، أقام بريمو دي ريفيرا (1870-1930) نظاماً دكتاتورياً في عام 1923، وتبعتْها البرتغال في عام 1926.

اجتاحت هذه الموجة من الفاشية والقومية الاستبدادية أوروبا قبل انهيار وول ستريت في عام 1929، والكساد الكبير الذي تلاه. لم يكن الاقتصاد هو الذي دفع الناس إلى القَبْلَنَة، على الرغم من وجود مشاكل اقتصادية، بل كان ردَّ الفعل النَّفسيّ على التجارب المؤلمة والبحث عن الهوية، هو الذي دفع الناس إلى الفاشية. ادَّلهمَّت غيوم تعطيل العَولَمَة قبل عام 1929. تساءل الكثير من الأميركيِّيْن عن سبب اضطرارهم للتضحية بالعديد من الأرواح في سبيل حرب قائمة في أوروبا، وما الذي تلقَّوه في المقابل. تركَّزت أزمة الهوية الأمريكية غالباً على مسألة الدَّوْر الذي ينبغي أن تلعبه الولايات المتَّحدة في العالَم. تميل التجارب المؤلمة إلى دفع الأميركيِّيْن إلى النزعة الانعزالية والحمائية. وهذا هو بالضبط ما حدث

في أوروبا بعد الحرب العالَميَّة الأولى. يُشكِّل انتخاب الرئيس الجمهوري وارن هاردينج في عام 1920 نهاية السياسة التِّجاريَّة الأكثر انفتاحاً مع تخفيض تعريفات الاستيراد التي بدأت في عام 1913. في عام 1921، أصدر الكونغرس الأمريكي قانون الطوارئ الخاصَّ بالتعريفة، والذي رفع ضرائب الاستيراد لحماية المزارعين الأميركيِّيْن وصناعات الحرب. بعد مرور عام، أعقبه قانون تعرفة Fordney-McCumber الذي فرض زيادة في الرسوم الجمركية على البضائع المستوردة مرَّة أخرى. وعد هربرت هوفر (1874-1964) في حملته الرِّئاسيَّة بالمضي قُدُماً في حماية المزارعين الأميركيِّيْن. ولكن أغلب القطاعات الاقتصادية طلبت منه بمجرَّد انتخابه حمايتها. وأدَّى ذلك إلى قانون تعريفة Smoot-Hawley لعام 1930، والذي عزَّز الاقتصاد الأمريكي عن طريق رفع التعريفات الجمركية على 20000 منتج، ممَّا جعل من المستحيل بالنسبة إلى الأوروبيِّيْن تصدير منتجاتهم إلى الولايات المتَّحدة. وكشكل من أشكال الانتقام، أغلقت الحكومات الأوروبية أسواقها أمام المنتجات الأمريكية أيضاً. زادت هذه الحلقة المفرَغة من النزعة الحمائية من كارثة الكساد العظيم، ممَّا تسبَّب في نهاية العَولَمَة في الثَّلاثينيَّات.

كان انهيار وول ستريت في تشرين الأوَّل/ أكتوبر 1929 بمثابة مأساة للولايات المتَّحدة وأوروبا. لقد دفعت الطَّفْرَة الاقتصادية الأمريكية في العشرينيات الكثير من الناس إلى الدخول في استثمارات محفوفة بالمخاطر. وعندما انفجرت هذه الفقاعة، تملَّك الذعر وول ستريت، وحاول الجميع بيع الأسهم. انخفضت الأسعار، وأفلس آلاف المضاربين في سوق الأسهم. خلَّفت الموجات الارتدادية لهذا الانهيار آثاراً كارثية. بين عامَي 1929 و1932، انخفض الإنتاج الصِّناعيُّ بنسبة 25 ٪ في بريطانيا العظمى وفرنسا، وبأكثر من 40 ٪ في الولايات المتَّحدة وألمانيا. انخفضت التجارة الخارجية لهذه القوى الاقتصادية العالَميَّة بمعدَّل 60٪.

ارتفعت البطالة في بريطانيا العظمى بنسبة 129٪، وفي فرنسا بنسبة 214٪، وفي ألمانيا بنسبة 232٪، وفي الولايات المتَّحدة بنسبة 607٪. انهارت البنوك مع اندفاع الناس لسحب مدَّخراتهم، وفَقَدَ جَدِّي ثروته مثل الكثيرين في تلك الفترة.

كان انهيار وول ستريت كارثة بالنسبة إلى الكثيرين، إلَّا أن الاستجابة لهذا الانهيار هي التي تسبَّبت في انهيارٍ اقتصاديٍّ عالميٍّ. حاول مؤتمر اقتصاديٌّ عالميٌّ في لندن، في عام 1933، تشكيل استجابة منسَّقة عالمياً للأزمة. وقد أخفق هذا المؤتمر. ظنَّت الحكومات أنها تستطيع إنقاذ اقتصاداتها الوطنية وحسب، وذلك عن طريق فرض المزيد من الحواجز التِّجاريَّة وزيادة الرسوم الجمركية. اعتباراً من عام 1931، أصدرت فرنسا تعريفة استيراد بنسبة 38٪ وتشيكوسلوفاكيا بنسبة 50٪، وفرضت بريطانيا العظمى، بطلة التجارة الحُرَّة، تعريفة مقدارها 10٪، وأجبرت مواطنيها على "شراء المنتجات البريطانية". تسبَّب انهيار التجارة الدُّوليَّة إلى جانب الانهيار المالي في انهيار اقتصادي. كان لدى ألمانيا بالفعل 1.9 مليون شخص عاطل عن العمل بحلول عام 1930. بدت فرنسا في البداية وكأنها قادرة على إبقاء الأزمة تحت السيطرة، ولكنْ، في عام 1932 بلغ عدد العاطلين عن العمل لديها مليون شخص أيضاً. تملَّك اليأسُ الجميعَ، ولم تتمكَّن المؤسَّسة السِّياسيَّة من مَنْحهم الأمل.

لم تُولَد القومية الاستبدادية والتَّعصُّب الدِّينيُّ من هذه المأساة الاقتصادية، وبقيت على نطاق صغير ومحليٍّ نسبياً. كان الكساد العظيم بمثابة حافز "للنكوص الكبير" نحو القَبْلَنَة. فَقَدَ الناس ثقتهم في النظام اللِّيبراليِّ الدُّوليِّ. كان هذا النظام هو الإطار الذي جعل العَولَمَة تزدهر منذُ الثَّورَتَيْن الفرنسية والأمريكية عام 1789؛ والذي يتضمَّن الإيمان بالدِّيمقراطيَّة وحقوق الإنسان والتعاون الدُّوليِّ والتجارة الدُّوليَّة. يحدث انهيار في الأسواق المالية بسرعة كبيرة عندما يفقد المتداولون الثقة بهذا

السوق، وعندما يحدث هذا، فإنه يؤدِّي إلى تأثير الدومينو المفاجِئ، ممَّا يؤدِّي إلى الانهيار. يفقد الناس الثقة في بنوكهم، ويحاولون سحب مدَّخراتهم، وعندما تنهار البنوك، وتُفلس، تتعطَّل الأعمال. ويخلق هذا بطالة هائلة بسرعة، ويوقِف عملية الاستهلاك. تراقب الحكومات الوطنية، المحرومة من الإيرادات، ميزانياتها وهي تتقلَّص، ممَّا يجعل الاستثمار في المجتمع شبه مستحيل. يبدو الاقتصاد برمَّته فجأة بمثابة منزل ورقيٍّ يتهاوى.

يعمل النظام السِّياسيُّ على نحو مشابه أيضاً، رغم أن هذا النظام يتمُّ بناؤه ولعقود طويلة على قاعدة صلبة للغاية. إذا فَقَدَ الناسُ الثقةَ في المبادئ التي تدعم النظام السِّياسيَّ، يمكن لهذا النظام أن ينهار بسرعة. نجد المثال الأكثر وضوحاً في انهيار الاتِّحاد السُّوفيتيِّ بين عامَي 1989 و1991. لقد انهار النظام السِّياسيُّ الذي بُني على مدار أكثر من سبعة عقود، وتهاوى كمنزل ورقيٍّ. لم يتوقَّع أحد ذلك. ظهرت بعض الإشارات على أن مواطني أوروبا الشُّيوعيَّة لم يكونوا سعداء، ولكن الحركات الكبرى مثل حركة التضامن في بولندا بدت وكأنها تفضِّل الإصلاح على الثورة. كان سقوط جدار برلين بمثابة مفاجأة صادمة. وبعد أقلّ من عامَيْن، لم يعد هناك حلف وارسو، ولم يعد هناك وجود للاتِّحاد السُّوفيتيِّ.

يميل كثير من الناس إلى الاعتقاد بأن الشُّيوعيَّة كانت أيديولوجية شموليَّة، فُرضت على شعب روسيا، ثمَّ توسَّعت بعد ذلك، لتنتشر باتِّجاه وسط وشرق أوروبا ومنطقة شاسعة كبيرة من آسيا. ينسى هؤلاء أن الشُّيوعيَّة أصبحت ديانة جديدة، وأنها كانت تحظى بشعبية كبيرة لأسباب عديدة. حاولت مجلَّة l'Histoire الفرنسية في تشرين الثاني/ نوفمبر 2015، معرفة سبب تحوُّل الكثير من الفرنسيِّيْن إلى شيوعيِّيْن مقتنعين وملتزمين تماماً. وكانت النتيجة مراجعة دقيقة لأسباب تحوُّل الناس إلى الشُّيوعيَّة. يُظهِر المقال أن القَبْلَنَة بعد عام 1918 دفعت الناس إلى الفاشية أو

الشُّيوعيَّة. إذا غيَّرتَ بضع كلمات في الشهادات التي نُشرت، في مجلَّة l'Histoire، سوف تجد قصص الجهاديِّينْ المعاصرين. وإليكم بعض الأمثلة.

"لقد هجَرَ أسرته ورفاهيته وطبقته. كان يرتدي بدلات عسكرية وأحذية "mujik". ترك التدخين والنبيذ اللَّذَيْن كان يحبُّهما. أصبح يُطلَق عليه لقب الخائن، ولكنه كان سعيداً. لقد رأى الإله: لقد تكلَّم كارل ماركس معه". هذا ما كتبه الصّحفيُّ الفرنسي ألبرت لوندريس عام 1920 عن بيير باسكال، وهو مفكِّر كاثوليكي فرنسي اعتنق الشُّيوعيَّة. فوجِئ لوندريس بالكيفية التي تغيَّر بها باسكال، وأضاف أن "باسكال لم يعد رجلاً طبيعياً، لم يعد رجلاً متحضِّراً أو فرنسياً (على الأقلِّ هذا ما يعتقده): بل أصبح شُيوعيَّاً". يمكن أن يكون هذا أيضاً وصفاً معاصراً للمنضمِّين إلى الدولة الإسلامية فقط إذا ما استبدلت بكارل ماركس الله. كتب بيير باسكال نفسه في عام 1919 إلى اللجنة المركزية للحزب الشُّيوعيِّ في روسيا أنه "من خلال التَّأمُّل والتفكير كان أُمميَّاً ومعادياً للرَّأسماليَّة، ومناهضاً للبرلمانيِّيْن".

كان ريموند ليفبفر، وهو صحفي وكاتب فرنسي، يعمل ممرِّضاً في أحد المستشفيات خلال الحرب العالَميَّة الأولى. صُدِمَ بما رآه خلال هذه الحرب، وكتب: "هذه الحرب الغبيَّة تتَّجه بالعالَم إلى الجنون، وتدفع بَلَدَيْن إلى إلحاق الأذى البالغ ببعضهما البعض دون وجود أيِّ نهاية في الأفق لهذا الجنون". وافق على قرار فلاديمير لينين (1870-1924) بانسحاب روسيا من الحرب، وأصبح شُيوعيَّاً. ومن الأمثلة الأخرى مانيس سبيربر، المفكِّر اليهودي الفرنسي. لم تعد الأرض التي وُلِد فيها، غاليسيا (المنطقة القديمة لمدينَتَي لفيف وكراكوف)، والتي كانت آنذاك جزءاً من الإمبراطورية الهنغارية النّمساويَّة، موجودة عندما تمَّ إلحاقها ببولندا. ذهب إلى المنفى في برلين وباريس بعد أن عاش لفترة وجيزة في يوغوسلافيا. لقد آمن سبيربر بثورة بلا أمم، وبدون حدود. تعاطف العديد من المثقّفين اليهود الأوروبيِّيْن

مع المشروع الشُّيوعيِّ، لأنه كان يُمثِّل وعداً ببداية جديدة. ولأنهم عانوا من انعدام المساواة والظلم والإقصاء، كانت هذه الفكرة الشُّيوعيَّة العالَميَّة فكرة جذَّابة بالنسبة إليهم. استغلَّ هتلر لاحقاً هذه "الجاذبية الخاصَّة"، لأنه رأى أن هناك تداخلاً بين الخطر الشُّيوعيِّ و"المسألة" اليهودية: لم يكن اليهود هم الأعداء الدَّاخليِّيْن، والأشخاص الذين لم ينسجموا مع الأُمَّة الألمانية وحسب، بل كانوا "العملاء الأجانب" أيضاً الذين يتمتَّعون بولاء لأيديولوجية أكبر عدوٍّ لألمانيا، وهو روسيا السُّوفيتيَّة.

أمَّا السبب الآخر الجذَّاب وراء الانضمام إلى الشُّيوعيَّة، فكان مناهضة الاستعمار. ذهب طالب فييتنامي يحمل اسم هو تشي منه (1890-1969) في عام 1919 بعد الحرب العالَميَّة الأولى، إلى باريس للدراسة. كانت فييتنام في تلك الفترة جزءاً من الهند الصِّينيَّة الفرنسية. وضع هو تشي منه الكثير من الأمل في مفاوضات فرساي ووعود الاستقلال التي قطعها الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون (1856-1924). وبما أن معاهدة فرساي (1919) لم تغيِّر أيَّ شيء فيما يتعلَّق بالنظام الاستعماري، انضمَّ هو تشي منه إلى الحركة الشُّيوعيَّة. في عام 1930، أُسِّس الحزب الشُّيوعيُّ في الهند الصِّينيَّة، وبدأ الكفاح من أجل الاستقلال. في عام 1945، أعلن هو تشي منه تأسيس جمهورية فيتنام الدِّيمقراطيَّة، والتي أصبح أوَّل رئيس لها. تحوَّل الكفاح ضدَّ الاستعمار في أجزاء كثيرة من العالَم إلى معركة ضدَّ أُسُس النظام الرَّأسماليِّ والدِّيمقراطيِّ. ربَّما من المثير للاهتمام رؤية كيف أن النزعة الإسلاموية لها جذور معادية للاستعمار، وكيف تمَّ استبدال المسلمين في أذهان اليهود، باعتبارهم "أعداء الداخل"، كأشخاص لا يتناسبون مع الدول الغربية، ويرتبطون بالإرهاب، ليتحوَّلوا إلى العدوِّ الأكبر للغرب.

مثَّلت كلٌّ من الشُّيوعيَّة والفاشية بدائل جذَّابة للأشخاص الذين فَقَدُوا إيمانهم بالنظام اللِّيبراليِّ المتعثِّر. ولكن أوَّل تحذير حقيقي مع ذلك لم

يظهر في الغرب. غزَت اليابانُ في عاَم 1931 الصينَ، واحتلَّت منشوريا. ناشدت الصينُ عصبةَ الأمم، المنظَّمة التي كانت قائمة قبل الأمم المتَّحدة. شكَّلت عصبةُ الأمم لجنةً للتحقيق في ما حدث. بعد عام واحد، خَلُصتْ اللجنة إلى أن الاحتلال الياباني كان عملاً غير قانوني، ولكن اليابان لديها مصالح مشروعة في الأراضي المحتلَّة. أدان العالَمُ اليابانَ على الرغم من هذا التقرير الضعيف. غادرت الصين غاضبة عصبة الأمم في عام 1933، وأصبحت تنحو شيئاً فشيئاً باتِّجاه القومية والنزعة العسكرية. لم تكن الصين قادرة على الرَّدِّ، لأنها كانت مشغولة بالتعامل مع حربها الأهلية الدَّاخليَّة. عانى الصِّينيُّون من صدمتهم الجماعية أيضاً عندما انهارت أسرة تشينغ عام 1912، وتنازل آخر إمبراطور عن العرش. كانت هذه نهاية إمبراطورية، استمرَّت لأكثر من ألفَي عام. تولىَّ الجمهوريون القوميون من حزب الكومينتانغ، أو الحزب القومي الصِّينيِّ، السلطة والرئاسة. وعندما تولىَّ تشيانغ كاي شيك قيادة الحزب في عام 1925، نأى بنفسه عن الاتِّحاد السُّوفيتيِّ، وحَوَّل الصين أكثر فأكثر إلى نظام يشبه تلك الدول المؤيِّدة للفاشية في الغرب. سوف تؤدِّي مقاومة الحزب الشُّيوعيِّ الصِّينيِّ إلى سلسلة من الحروب الأهلية التي لن تنتهيَ سوى في عام 1949.

في الولايات المتَّحدة، تحوَّلت النزعة الانعزالية والحمائية بعد الحرب العالَميَّة الأولى إلى تطرُّف على نحو متسارع. استنزفت العواقبُ المؤلمةُ للكساد العظيم المجتمعَ الأمريكي، وأفسحت المجال للشَّعبويَّة القَبَلِيَّة. جذبت بعض الشَّخصيَّات الشَّعبويَّة الجماهير. أصبح سيناتور لويزيانا الدِّيمقراطيُّ هيوي لونغ (1893-1935) على سبيل المثال، والذي كان يقلِّد أسلوب موسوليني في الكلام مشهوراً بمهاجمة أغنياء أمريكا. قال لونغ إن 10 رجال يمتلكون 85٪ من الولايات المتَّحدة، وإنه حان الوقت لتوزيع الثروة. اقترح لونغ تحديد الثروة الفردية بمقدار 50 مليون دولار وحسب، وستحصل كل عائلة أمريكية من خلال هذه الأموال على دخل

مضمون، قدره 2000 دولار في السنة. أصبح لونغ سيِّد الراديو، والضيف الدائم على وسائل الإعلام الجديدة في الثَّلاثينيَّات. لو لم يُقتَل في عام 1935، لكان ربمَّا خاض الانتخابات الرِّئاسيَّة. تبنَّى أحد رفاقه، الكاهن الكاثوليكي الأب تشارلز كوغلين، الخطاب الشَّعبويَّ لنشر الفاشية. لم يُخفِ إعجابه على الإطلاق بموسوليني وهتلر، وكان مُعادِياً صريحاً للسَّاميَّة. كان شعار حملة كوغلين "القليل من الاهتمام بالشؤون الدُّوليَّة، والمزيد من الاهتمام بالازدهار الوطني". قاد كوغلين الحركة ضدَّ الحرب مع ألمانيا النَّازيَّة وضدَّ بيع الأسلحة لبريطانيا. لقد فهم الرئيس فرانكلين روزفلت (1882-1945) خطر هذه الحركة القَبَلِيَّة، لذلك واجهها بالقيادة الرائدة الرشيدة وخطَّة عام 1933 الواضحة: الصفقة الجديدة. ولكنه لم يستطع رغم سماته القيادية من الوقوف في وجه تفضيل البلاد للنزعة الانعزالية. توسَّل وينستون تشرشل لروزفلت لمساعدته في الحرب ضدَّ ألمانيا النَّازيَّة، ولكن الرئيس الأمريكي كان يعلم أنه ليس لديه أيّ دَعْم في أمريكا التي تعاني ذات الاستقطاب المتزايد. كان لا بدَّ من انتظار الهجوم العسكري لليابان على ميناء بيرل هاربور الأمريكي في كانون الأوَّل/ ديسمبر 1941، ليتحوَّل الرأي العامُّ لصالح التَّدخُّل العسكري.

لم تكن القَبْلَنَة ظاهرة غربيَّة حصريَّة، بل كانت ظاهرة مُعدِيَة أشبه بالفيروس الذي انتشر في جميع أرجاء العالَم بسرعة. في أمريكا الجنوبية، اكتسبت القومية القَبَلِيَّة الاستبدادية أرضية كبيرة في قلب القارَّة. وضع الجيش في البرازيل جيتوليو فارغاس (1882-1954) على رأس السلطة، بعد أن خسر الانتخابات الرِّئاسيَّة في وقت سابق من ذلك العام. قام فارغاس وفقاً لنموذج موسوليني، بتأسيس نظام نقابوي، أطلق عليه اسم "استادو نوفو"، أو الدولة الجديدة. بنى فارغاس نظاماً قائماً على عبادة الفرد مدعوماً بآلة دعائية. كان من شأن سياسة فارغاس المتمثِّلة في الجمع بين القومية والتصنيع والمركزية والرفاهية الاجتماعية والشَّعبويَّة،

أن تُلهم قادة أمريكا اللَّاتينيَّة لاحقاً مثل خوان بيرون في الأرجنتين ولازارو كارديناس في المكسيك وفيلاسكو إيبارا في الإكوادور. قد يقول البعض إن الحركة الشَّعبيَّة التي بدأت في الثَّلاثينيَّات في أمريكا اللَّاتينيَّة لم تُغادر القارَّة أصلاً.

في عام 1930، انتحر الشاعر الرُّوسيُّ الشهير فلاديمير ماياكوفسكي (1893-1930). كان ماياكوفسكي واحداً من أكثر المؤيِّدين المتحمِّسين للثورة الرُّوسيَّة، وفنَّاناً بارزاً في حركة المستقبليِّيْن. لقد كان يؤمن حقَّاً بالمبادئ الطَّليعيَّة التي روَّج لها لينين. ولكن ماياكوفسكي أخذ في أواخر العشرينيات ينتقد الحزب الشُّيوعيَّ لإغلاقه المجتمع، وحَدِّه من حُرِّيَّة التعبير. مثَّل موتُهُ النهايةَ الرَّمزيَّةَ للمُثُل التَّقدُّميَّة للثورة الرُّوسيَّة وإحياء القومية الرُّوسيَّة. بدأ جوزيف ستالين (1878-1953) حياته المهنية كقومي جورجي. وقد أصبح شيوعياً بعد أن قرأ كتابات لينين. ترك المسار التَّقدُّمي في ثلاثينيَّات القرن العشرين، وتحوَّل باتِّجاه القَبْلَنَة العالَميَّة. أخذ يروِّج لمفهوم "الشُّيوعيَّة في بلد واحد"، وأعاد سياسة "إضفاء الطابع الرُّوسيِّ" التي كان يستخدمها القيصر. ربَّما جاء استخدامه للقومية كوسيلة لمواجهة السخط الذي انتشر بعد المجاعة الرُّوسيَّة التي جوَّعت 30 مليون شخص في بداية الثَّلاثينيَّات، ولإعداد الناس لحرب قادمة. اتَّبع ستالين عملية القَبْلَنَة النَّموذجيَّة عن طريق تنمية عملية الزعامة، وخَلْق أعداء الثورة الدَّاخليِّيْن والخارجيِّيْن، والتَّخلُّص منهم، والحفر في الماضي الأسطوري. نظَّم ستالين في عام 1937 احتفالاً باذخاً في الذكرى المئوية لوفاة الشاعر الرُّوسيِّ ألكسندر بوشكين. في عام 1938، أطلق المخرج السِّينمائيُّ السُّوفيتيُّ سيرجي أيزنشتاين (1898-1948) فيلم "ألكسندر نيفسكي"، وهو فيلم الدراما التَّاريخيُّ عن محاولة غزو نوفغورود من قبَل فرسان تيوتون (الألمان). كان الأمير ألكسندر نيفسكي هو البطل الذي رفض مساعدة المغول، وهزم فرسان تيوتون. كانت أوجه التشابه في الفيلم بين فرسان تيوتون والجنود الألمان وبين نيفسكي وستالين

واضحة. أمَّا الفيلم التالي الذي أخرجه آيزنشتاين كان حول القيصر إيفان الرهيب، معبود ستالين. واصل ستالين بعد الحرب العالَميَّة الثانية عملية القَبْلَنَة هذه بإعلان أن المثقّفين اليهود عبارة عن "عالميِّيْن بلا جذور"، وشرع في حملة جديدة من الإرهاب.

ولكنْ، مهما كان، فإن "النكوص الكبير" لم يحدث بعمق في أيِّ مكان كما حدث في ألمانيا. وعد هتلر بعودة قومية جديدة للجماهير التي أُصيبت بصدمة جرَّاء "الخيانة" التي حدثت في الحرب العالَميَّة الأولى، و"الإذلال" الذي تعرَّضت له ألمانيا في معاهدة فرساي، والدمار الذي سبَّبه الكساد الكبير. وعد هتلر بجَعْل ألمانيا عظيمة مرَّة أخرى. أراد إنشاء مجتمع ألماني جديد موحَّد. ولا بدَّ من تحقيق هَدَفَيْن في سبيل تحقيق العَظَمَة: أوّلاً وقبل كل شيء، كان على ألمانيا أن تتخلَّص من أولئك الذين تسبَّبوا في هذه الصدمات، والتي أدَّت إلى الحيلولة دون وحدة ألمانيا. كان العدوُّ الخارجيُّ هو الاتِّحادَ السُّوفييتيَّ، والأعداء الدَّاخليُون هم اليهودَ واللِّيبراليِّيْن والشُّيوعيِّيْن. نشرت الميليشيات المسلَّحة للنَّازيِّيْن (Sturmabteilung أوSA)) العنف والفوضى في الشوارع. ألقى هتلر باللَّائمة على الأعداء في هذه الفوضى، ودعا إلى عمليات التطهير. كان هتلر واضحاً جدَّاً في أهدافه. قال للجماهير إنه لا يريد هزيمة هؤلاء الأعداء وحسب، بل تدميرهم أيضاً. ألقى هتلر في عام 1932 خطاباً، قال فيه: "لن نتسامح أبداً. ليس لديَّ سوى هدف واحد فقط، تطهير ألمانيا من الأحزاب (السِّياسيَّة) الثلاثين".(*)

أمَّا الهدف الثاني لهتلر، فهو إنشاء مجتمع وطني قَبَلِيٍّ. قام بأسطرة وحدة "مجتمع الخنادق" للجنود على الجبهة. وفي جميع الأحوال، ذهبت القَبْلَنَة التي استخدمها النَّازيُّون إلى أبعد من ذلك بكثير. لقد

*) إيان كيرشو، "في الجحيم الأوروبي،1914-1949"،2015، لندن، ص 211.

عادوا إلى الماضي الأسطوري الألماني، كانت هذه الفكرة الرُّومانسيَّة قد تشكَّلت بالفعل في القرن التاسع عشر بعد توحيد ألمانيا. قام الملحِّن الألماني ريتشارد فاغنر (1813-1883) بتأليف موسيقاه حول المواضيع الأسطورية لماضٍ عظيم، مثل تانهاوزر وترسيتان وآيزولد. كان من السهل على النَّازيِّيْن استخدام هذه الأساطير كرمز للمجتمع الألماني "الحقيقي". كانت الرَّمزيَّة القَبَلِيَّة في غاية الأهمِّيَّة، حيث رُمز للوحدة والنقاء بالعَلَم بالصليب المعقوف، واللقاءات الجماهيرية المنظَّمة للغاية، والمسيرات في الشوارع، والزِّيِّ الرَّسميِّ الحديث، والصور العائلية للأُمَّهات الشقراوات السعيدات والآباء مع أبنائهم الشُّقر الممتلئين صحَّة. سيكون المستقبل أمامكَ مشرقاً، إذا كنتَ جزءاً من القبيلة.

بدا الحزب النَّازيُّ اعتباراً من عام 1929 وكأن لا شيء قادر على إيقافه، وخاصَّة بعد الانتصارات الانتخابية السبعة. ولكن هذا الحزب، مع ذلك، لم يَفُز بغالبية الأصوات. جاءت ذروة نجاحهم في آب/ أغسطس 1932، عندما فاز الاشتراكيون الوطنيون بنسبة 37.4 ٪ من الأصوات. جعلت هذه الانتخابات الحزب منذُ ذلك الحين الحزب الأكبر في الرايخستاغ الألماني. خسر الحزب النَّازيُّ الانتخابات في تشرين الثاني/ نوفمبر 1932، ولكنه ما يزال يمتلك نسبة كبيرة مع ذلك تكفي لتعطيل تشكيل الحكومة. وافق الرئيس الألماني بول فون هيندبورغ (1847-1934) على جعل أدولف هتلر مستشاراً لحكومة ائتلافية، تضمُّ عدداً أكبر من الوزراء المحافظين. استولى هتلر على السلطة في غضون ستَّة أشهر. كانت هذه هي الخطوة الأولى التي من شأنها أن تؤدِّي إلى أسوأ حلقة في تاريخ البشرية.

كتب المؤرِّخ إيان كيرشو، أحد أبرز الخبراء في العالَم حول الصّهيونيَّة والفاشية، أن:

"الفاشية لم تحظَ بهذا القدر من الجاذبية في تاريخها. كانت رسالة

الفاشية المتعلِّقة ببَثِّ روح وطنية جديدة، والربط القوي بين الخوف والأمل، متنوِّعة بما يكفي، لتتمكَّن من عبور الحدود الاجتماعية. لقد غلَّفتْ رسالتها بذلك النداء الذي يخاطب المصالح المادِّيَّة الخاصَّة للمجموعات الاجتماعية المتباينة تماماً، لترميَها في مستنقع الخطاب العاطفي حول مستقبل الأُمَّة. خاطبت مصالح الأشخاص الذين شعروا بالتهديد من قبَل قوى تحديث التغيير الاجتماعي. عبَّأت النَّازيَّة الأشخاص الذين اعتقدوا أن لديهم شيئاً ما سيخسرونه - المكانة، الملكية، السلطة، التقاليد الثَّقافيَّة - من خلال التهديد المفترَض للأعداء الدَّاخليِّيْن (...)".(*)

لم تَرُقْ الفاشية للجماهير غير المتعلِّمة وحسب، بل للمثقّفين أيضاً. شعرت الفيلسوفة الألمانية الأمريكية حنَّا أرندت، والتي عاشت في ألمانيا في تلك المرحلة، بالرّعب من حماس المثقّفين للمشروع النَّازيِّ. أصبح حبيبها ومعلِّمها، الفيلسوف الألماني مارتن هايدغر (1889-1976)، عضواً ملتزماً تماماً في الحزب النَّازيِّ، كما فعل العديد من الأساتذة الآخرين. لم يكن جَدِّي بالتأكيد المثقّف الوحيد الذي وقع في فخِّ النَّازيَّة، وغَضَّ الطَّرْفَ عن جانبها الوحشي.

لم تَفُز الأحزاب اليمينية المتطرِّفة بأغلبية في الانتخابات في أيِّ بلد من بلدان الاتِّحاد الأوروبي. ولكنها كانت قوية بما يكفي لزعزعة استقرار مجتمعات بأكملها. تمكَّنت هذه الأحزاب بواسطة خطاب الكراهية والعنف في الشارع من إغراق كلِّ بلد من هذه البلدان في استقطاب عميق بين اليسار واليمين. اندلعت اشتباكات عنيفة في فرنسا بين أنصار الجبهة الشَّعبيَّة اليسارية لرئيس الوزراء ليون بلوم (1872-1950) والروابط اليمينية المتطرِّفة. سوف تخلق هذه الروابط الفاشية الدعم الشَّعبيَّ لنظام فيشي في الجزء الجنوبي من فرنسا، والذي تعاون مع ألمانيا النَّازيَّة خلال الحرب العالَميَّة الثانية. في

---

*) المرجع نفسه، ص 230.

إسبانيا، أدَّى الاستقطاب بين اليسار واليمين الفاشي بقيادة الجنرال فرانكو إلى اندلاع الحرب الأهلية الإسبانية بين عامَي 1936 و1939.

مع صعود التَّطرُّف هُمِّشَتْ أحزاب الوسط. اعتمد السِّياسيُّون في الوسط، بسبب عدم قدرتهم على وقف العنف، بعض أشكال الخطاب المتطرِّف ساعين للحفاظ على دعمهم الشَّعبيِّ. لقد أخفق هؤلاء السِّياسيُّون، ورَأوا أحزابهم تتداعى وتنهار. اعتقدَ آخرون أن الحلَّ الوحيد ليمين الوسط هو التَّوصُّل إلى اتِّفاق مع اليمين المتطرِّف. وكان المثال الأكثر بروزاً هو حزب الوسط في ألمانيا. اعتقد زعيمه فرانز فون بابن (1879-1969) أن الطريقة الوحيدة للسيطرة على هتلر هي في جَعْله مستشاراً. أعطى فون بابن هتلر الأغلبية في الرايخستاغ عن طريق الدخول في الحكومة، ووفَّر له معظم الوزراء. حتَّى إنه سمح لهتلر باستخدام سمعته ككاثوليكي للفوز على شعب وكنيسة النمسا فيما يتعلَّق بفكرة ضمِّ النمسا لألمانيا. لن يرحم التاريخ فرانز فون بابن وتواطؤه الذي أدَّى إلى أحد أكثر الأنظمة البربرية المتوحِّشة في التاريخ.

لم تتسبَّب القَبْلَنَة في الثَّلاثينيَّات من القرن الماضي في انهيار العلاقات الاجتماعية بأكملها وحسب، فالنظام العالَمي انهار كذلك. لم تتمكَّن عصبة الأمم من وقف غزو اليابان للصين، وحرب الاحتلال الإيطالية في الحبشة (إثيوبيا اليوم)، وضمِّ ألمانيا للنمسا. أخفق المؤتمر العالَمي لنزع السلاح لعام 1932 إخفاقاً ذريعاً، ويرجع ذلك في المقام الأوَّل إلى حقيقة أن العديد من البلدان ببساطة لا تريد نزع سلاحها. في عام 1933، عقدت القوى الاقتصادية الكبرى المؤتمر الاقتصادي العالَمي في لندن من أجل تنسيق استراتيجيتها في التعامل مع الكساد العظيم. انهار المؤتمر بعد أن أعلن الرئيس الأمريكي فرانكلين روزفلت أنه لا يوافق على المقترحات. في عام 1938، شاركت 32 دولة في مؤتمر إيفيان لمناقشة مشكلة اللَّاجئين اليهود الألمان. لم يتمّ التَّوصُّل لاتِّفاق. وكانت الحُجَّة الرئيسة لكل حكومة

أن "بلدنا يغصُّ باللَّاجئين". لو وافقت كل حكومة على استقبال 30.000 لاجئ، لتمَّ إنقاذ جميع اليهود الألمان.

أدَّت نهاية العَولَمَة وصعود القَبلَنَة في ثلاثينيَّات القرن الماضي إلى أشدِّ الحروب تدميراً في تاريخ العالَم. كانت المشاركة الواسعة للناس في جميع أنحاء القارَّة الأوروبية في الهولوكوست نتيجة مباشرة للخطاب الفاشي القَبَلِيِّ الذي اعتبر اليهود أعداء للمجتمع المثالي. لم يدرك الناس إلَّا بعد خمس سنوات من الحرب أن القَبْلَنَة لم تؤدِّ إلَّا إلى الدمار. سوف يدفع هذا الاكتشاف الأوروبيِّيْن لتأسيس أكثر المشاريع عَولَمَة في التاريخ: الاتِّحاد الأوروبي. مثَّل توحيد أوروبا في الأساس عملية مضادة للقَبْلَنة، حيث يتمُّ تحييد جميع العناصر القَبَلِيَّة خطوة بخطوة. لم يكن مشروعُ الأمم المتَّحدة أقلَّ طموحاً من هذا المشروع. أُنشئت الأمم المتَّحدة عام 1945 للحفاظ على السلام الدُّوليِّ من خلال الحوار والقانون الدُّوليِّ. وقد حاولت الأمم المتَّحدة مع التدهور العالَمي لحقوق الإنسان (1948) وضع معايير عالمية لهذه الحقوق. توسَّعت أهداف الأمم المتَّحدة ووسائلها على نطاق واسع على مَرِّ العقود. قادت الأمم المتَّحدة بالإضافة إلى الاتِّفاقيات الاقتصادية العالَميَّة لمؤتمر بريتون وودز (1944)، عملية تأسيس العَولَمَة الاقتصادية والسِّياسيَّة والاجتماعية. كانت الحرب الباردة بين الغرب والاتِّحاد السُّوفيتيِّ العقبة الوحيدة في طريق إنشاء مجتمع دولي حقيقي. عندما اختفت هذه العقبة في عام 1989، لم يكن أحد يتخيَّل عودة القَبْلَنَة على الإطلاق، ولكنها عادت، وكانت أقرب من توقُّعات الكثيرين.



الفصل العاشر
الحادي عشر من سبتمبر وإحياء القَبْلَنَة

كنتُ جالساً في بهو فندق في العاصمة القطرية الدوحة في آذار/ مارس 2014، إذ أخبرني صديقي أن عمر بن لادن - ابن أسامة بن لادن - وزوجته الأولى، كانا سيلتقيان معي في الساعة الحادية عشرة صباحاً. لطالما كان هذا النوع من اللقاءات معتاداً في العالَم العربي: دون أيِّ تخطيط مُسبَّق، ودون أيِّ هدف مُعيَّن، مجرَّد صديق يقترح عليكَ لقاء صديق آخر. كنتُ قد أجريتُ بعض الأبحاث حول الرجل، ووجدتُ أنه نشأ مع والده في السودان وأفغانستان، وتدرَّب منذُ سنِّ الرابعة عشرة في معسكرات القاعدة. لم يكن الوالد يحبُّ ابنه كثيراً، بل اعتاد أن يضربه بشدَّة، لأنه "كان دائماً مبتسماً". ترك عمر والده في عام 2000، عندما أصبح في السابعة عشرة من عمره، لأنه لم يوافق على العنف الذي كان يُروِّج له الأب.

لم يحضر عمر لهذا الاجتماع، لذلك طلبتُ رَقْم هاتفه من صديقي. لم أكن أريد تفويت محادثة كهذه. اتَّصلتُ به، فأجاب بكلمات ودِّيَّة، وأكَّد أنه سيكون هناك بعد خمس دقائق. فوجئتُ عندما وصل أخيراً بأنه يبدو كوالده، ولكنه كان متواضعاً للغاية. اتَّفقْنا على التَّحدُّث في البهو، على طاولة في ركن بعيد، وطلب قهوة بالحليب. لم يكن الحديث سلساً في البداية. قرَّرتُ أنني لن أسأله عن والده في أوَّل لقاء بيننا، على أمل أن يتبعه لقاء آخر في المستقبل. إذنْ، بماذا سنتحدَّث؟ قال لي خلال الحديث إنه يظنُّ أنني شخص عاقل، وأنني إذا قرأتُ القرآن، فسأنظر إلى المستقبل بعينَيْن مختلفَتَيْن، فسألتُهُ عن السبب، فشرح لي أن جميع

الحقائق والمعارف مكتوبة في القرآن. لقد أعطاني مثالاً غريباً في الحقيقة عن هذا قائلاً إنه قرأ مؤخَّراً في الصحف أن العلماء اكتشفوا انشقاق القمر إلى فلقَتَيْن، وأن هاتَيْن الفلقَتَيْن التحمتا لاحقاً. وقال إن هذا مذكور في القرآن قبل 1400 عام.

لقد حاول إقناعي في الحقيقة أننا إذا اتَّبعنا القرآن حَرْفِيَّاً، فسنُحقِّق مجتمعاً مثالياً، وأن المملكة العربية السُّعوديَّة كانت قريبة من هذا المَثَل الأعلى. أخبرتُهُ أنني لا أُحبُّ حقيقة أن صديقي، رائف بدوي، المدوِّن السُّعوديِّ اللِّيبراليِّ، قد زُجَّ به في السجن، لأنه كان له رأي مختلف. أجاب عمر بن لادن أنه ليس هناك خيار آخر، وأنه ينبغي سجن كل مَنْ يؤذي المجتمع المثالي، إن لم يكن قَتْله. نظرتُ إليه مصدوماً، ولكنه لم يفهم سبب صدمتي. كان هذا واضحاً لا يحتاج إلى نقاش من وجهة نظره. وكانت هذه المحادثة التي استغرقت ساعَتَيْن بلا شكٍّ أكثر المحادثات التي خضتُها في حياتي غرابةً. خلال السنوات الخمس التي قضيتُها في العالَم العربي، لم أسمع أيَّ شخص يُعبِّر عن هذه الآراء على الإطلاق. كان عمر بن لادن رجلاً ودوداً للغاية، وبدا أن غير قادر على قَتْل ذبابة، ربَّما على عكس والده.

كان أسامة بن لادن من الأتباع المخلصين لسيِّد قطب، وإيمانه بأن العالَم العربي فاسد، وأن سبب هذا الفساد هو الغرب والقادة العرب الذين يحميهم الغرب، لمنع العالَم العربي من تحقيق المجتمع المثالي الذي يحلم به. وأن الغرب - الولايات المتَّحدة على وجه الخصوص - لم يسمح بوجود دولة إسلامية حقيقية، بل يسعى الغرب دائماً لإضعاف هذا الاحتمال. وعندما نتخلَّص من تأثير الولايات المتَّحدة وقدرتها على إضعاف هذه الإمكانية، يمكن عندها تأسيس مجتمع إسلاميٍّ مثاليٍّ بالفعل. لذلك لا بدَّ من اتِّحاد جميع الجهاديِّيْن لتحقيق هذا الهدف الطموح.

اعتقَدَ أسامة بن لادن أنه لا يستطيع توحيد هؤلاء الجهاديِّيْن بإعلان الحرب ضدَّ الزعماء العرب، لأن الكثيرين سيُعارضون قَتْل إخوانهم المسلمين. لذلك قرَّر بن لادن، وعلى عكس استراتيجية قطب التي تركِّز على القادة العرب "الفاسدين"، إعلان الحرب على الولايات المتَّحدة مباشرة. لقد كان مقتنعاً بأنه كلَّما هاجمت القاعدةُ الأهدافَ الأمريكية (والأوروبية لاحقاً)، زاد انشغال الغرب بأمنه الدَّاخليِّ، وامتنع عن التَّدخُّل في العالَم العربي. باختصار، كانت استراتيجية بن لادن قائمة على مهاجمة القاعدة للغرب وإرهاقه، وجعله ينشغل بأمنه الدَّاخليِّ، ومنعه من إعاقة خطط بن لادن في إقامة الدولة الإسلامية المثالية. ينبغي أن يكون واضحاً اليوم أن هذه الاستراتيجية هي الاستراتيجية التي يستخدمها تنظيم داعش اليوم.

بعد ظهر يوم 11 أيلول/ سبتمبر 2001، كنتُ أعمل في مكتبي في البرلمان الفلمنديّ في بروكسل. تلقَّيتُ رسالة نصِّيَّة من صديق صحفي، يسألني فيها: "هل شاهدتَ شبكة سي إن إن؟" قلتُ لا. فأجاب: "شَاهِدْها على الفور". لم أفهم ما شاهدتُهُ على التلفاز حينها. كان أحد البرجَيْن التَّوأمَيْن يحترق، لأن طائرة ارتطمت به، كما قالوا. بدا الأمر وكأنه واحد من أكثر الحوادث المأساوية في التاريخ. ولكنني شاهدتُ بعد دقائق قليلة من تشغيل التلفاز، طائرة أخرى تطير باتِّجاه البرج الثاني على الهواء مباشرة. كتبتُ رسالة نصِّيَّة لصديقي: "إنها الحرب"، فأجاب: "نعم، ولكنْ، ضدَّ مَنْ؟" وينبغي أن أعترف أنه لم يكن لديَّ أيُّ إجابة حينها. تواردت بعدها الأخبار عن تحطُّم طائرة في البنتاغون، وكان لا يزال هناك طائرات أخرى. فقدتُ حينها القدرة على التفكير بوضوح، شعرتُ بالارتباك والغضب، والضياع التَّامِّ. شعرتُ بكل تلك المشاعر المختلطة في الوقت نفسه.

من الصعب على غير الأمريكيِّيْن فَهْم الذّعر التَّامِّ الذي شعر به الأميركيون في ذلك اليوم. أخبرني تشارلز ستروزر، الطبيب النَّفسيُّ وأستاذُ

التاريخ الأمريكي، والذي عالج لسنوات الكثير من سُكَّان نيويورك الذين عانوا من صدمة كبيرة بعد 9/11، أن الكثيرين ظنُّوا في ذلك اليوم أنه كان يوم القيامة، وبداية نهاية العالَم، أو نهاية العالَم حَرْفِيَّاً. كان ستروزر قد درس عودة المسيحية قبل عام 2001. وصلت دراساته إلى أن معظم هؤلاء الذين عادوا إلى المسيحية قد تحوَّلوا إلى شكل أكثر تطرُّفاً من المسيحية، في محاولة لعلاج نفسياتهم المتشظِّية. لقد تنبَّأ ستروزر بموجة جديدة من الأصولية كنتيجة للتجربة المؤلمة والصادمة للغاية لهجمات 11 أيلول/ سبتمبر. وهذا ما حدث بالفعل، ليس مع الأفراد وحسب، بل مع جزء كبير من المجتمع الأمريكي. لا بدَّ من القول إن هذه الهجمات لم تُنفَّذ من قبَل روسيا أو الصين، بل على أيدي مجموعة من الهواة. إن أفضل أجهزة المخابرات في العالَم لم تكن قادرة على مَنْعهم، وأفضل جيش في العالَم لم يتمكَّن من إيقافهم. في الحقيقة يصعب التفكير في شيء أكثر صدمة وفزعاً من هذا.

رغم أن الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر لم يكن الهجوم الأوَّل من قبَل تنظيم القاعدة، إلَّا أنه كان بداية حقبة جديدة. كل هجوم جديد أو حتَّى محاولة للهجوم ستُعيد فَتْح جروح ذلك اليوم، وتجعل الناس يشعرون بانعدام الأمان مجدَّداً. أصبح من الواضح أن الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر كان مجرَّد بداية، وأن الهجمات ستؤثِّر على الناس على نطاق عالمي. في 22 كانون الأوَّل/ ديسمبر 2001، حاول أحد مؤيِّدي القاعدة، ريتشارد رايش، تفجير قنبلة كان قد أخفاها في حذائه بينما كان على متن طائرة تابعة لشركة الخطوط الجوِّيَّة الأمريكية من باريس إلى ميامي. في 11 نيسان/ أبريل 2002، أدَّى تفجير كنيس الغريبة اليهودي في تونس إلى مقتل 14 ألمانياً وأربعة تونسيِّيْن ومواطنَيْن فرنسيَّيْن. في 12 تشرين الأوَّل/ أكتوبر 2002، فجَّرت القاعدة منطقة سياحية في بالي. وبعد شهر واحد، تعرَّض فندق مملوك لإسرائيل في مومباسا بكينيا إلى تفجير، ممَّا

أسفر عن مقتل 13 شخصاً. في 12 أيّار/ مايو 2003، تعرَّض مجمع سَكَني سعودي في الرياض لهجوم، ممَّا أسفر عن مقتل 39 شخصاً. في نفس العام فجَّر انتحاريون أنفسهم في الدار البيضاء في المغرب، وفي فندق ماريوت في جاكرتا في إندونيسيا. في 15 تشرين الثاني/ نوفمبر 2003، انفجرت أربع شاحنات مفخَّخة في إسطنبول في تركيا، ممَّا أسفر عن مقتل 57 شخصاً. وقع الهجوم الأكثر دموية منذُ 11 أيلول/ سبتمبر في مدريد في 11 آذار/ مارس 2004، عندما أدَّى انفجار في قطار إلى مقتل 190 شخصاً، والقائمة تطول. قتلتْ مئاتُ الهجمات في العراق وحده بين عامَي 2003 و2011 آلاف الأشخاص.

في 7 تمُّوز/ يوليو 2005، كان بعض الأصدقاء البريطانيِّيْن يقيمون في منزلي في بلجيكا. وصلتْنا الأخبار المقلِقة إلى هواتفنا بينما كنَّا نستيقظ ونشرب أكواب القهوة. كانت ثلاث قنابل قد انفجرت في ساحة مترو أنفاق لندن، وواحدة في حافلة ذات طابقَيْن في ميدان تافيستوك. غرق أصدقائي جميعاً في حالة من الذعر، حيث كان لديهم جميعهم أصدقاء وعائلات في لندن. لم نتمكَّن من الاتِّصال بأيٍّ منهم، وشاهدْنا جميعاً الصور المروِّعة التي ظهرت على التلفاز. قتلت القنابل 52 شخصاً، وجرحت أكثر من 700 شخص. أصبح من الواضح لكلٍّ منَّا كما قالوا إن التعايش مع الهجمات سيصبح الوضع الطَّبيعيَّ الجديد. ولكن هذا الوضع لم يصبح وضعاً طبيعياً على الإطلاق. وكلَّما كان أقرب إلى المنزل زاد تأثيره عليكَ.

كانت لندن قريبة للغاية بالنسبة إليَّ، وكذلك كانت اسطنبول، المدينة التي زرتُها عدَّة مرَّات. وقد كان هجوم القاعدة على فندق تاج محلّ في مومباي في الهند، في عام 2008، قريباً أيضاً، لأنني أقمتُ في هذا الفندق قبل عامَيْن من الهجوم. كان الهجوم الأوَّل لداعش في القاهرة على بُعْد 50 متراً من المكان الذي عشتُ فيه. لم يُقتَل أحد أو يُجرَح، لكنه أظهر أن داعش كان في كل مكان، ويمكنه أن يقترب من شارعي بسهولة. صُدم

العالَم بأسره من اغتيال الصّحفيِّيْن في تشارلي إبدو في عام 2015، وذلك بسبب هدف الهجوم الأيديولوجي الواضح. جعل الهجوم الانتحاري في باريس على قاعة باتاكلان للحفلات الموسيقية والمدرَّجات المجاورة لها الخطر الجهادي أقرب بكثير ممَّا تصوَّر الجميع. في 22 آذار/ مارس 2016، لم تكن هجمات بروكسل قريبة وحسب، بل كانت في قلب المكان الذي قضيتُ فيه الكثير من حياتي. اعتدتُ لمدَّة خمسة عشر عاماً الذهاب إلى محطَّة مترو مالبيك. كان مطار بروكسل الجوِّيُّ مطاري، حيث كنتُ أطير منه مرَّة واحدة على الأقلِّ في الشهر. مثَّل هذا بالنسبة إليَّ التحذير الأخير من أن الهجمات يمكن أن تحدث في أيِّ مكان، وفي أيِّ وقت، وقد تقتل أيَّ شخص كان.

هذه هي وجهة نظري الشَّخصيَّة وحسب. لقد تأثَّر الملايين في الواقع، إن لم يكن المليارات من الناس في جميع أنحاء العالَم - من بروكسل إلى باماكو، ومن أبيدجان إلى مدريد إلى بغداد. يفكِّر الناس في هذه الهجمات عندما يستقلُّون القطار للعمل أو السفر إلى وجهات عطلاتهم. في كل مطار ومحطَّة قطار، يتمُّ تحذيرنا بالإبلاغ عن حقائب، تبدو متروكة هناك. أصبحت المطارات أشبه بقلاع ذات ضوابط وأنظمة أمنية متطوِّرة للغاية. تقوم القوَّات العسكرية بدوريات في العديد من محطَّات القطارات المُهمَّة، بالإضافة إلى الشرطة المحلِّيَّة. من الصعب التَّغلُّب على تأثير التجارب الصادمة لأحداث 11 أيلول/ سبتمبر والهجمات اللَّاحقة على وجودنا أو "وجودنا في العالَم".

كان التأثير على مجتمعاتنا تأثيراً عميقاً. يعرف الناس العقلانيون أن الكثير من عمليات القتل الجماعي، بل أغلبها، في الحقيقة، لم تُنفَّذْ على أيدي المسلمين. ولكنْ، ليس هذا ما يشعرون به. يتَّفق أغلب الناس مع الخطاب القائل بأن "كل الإرهابيِّيْن مسلمون، وبالتالي كل المسلمين إرهابيون محتملون". يشعر الكثير من الناس بالقلق عندما يرون رجلاً بلحية،

يرتدي الزِّيَّ الإسلامي. على الرغم من أن الناس يعرفون أن هذا ليس استنتاجاً عقلانيَّاً، إلَّا أنهم ما زالوا خائفين. لم تأتِ هذه اللَّاعقلانيَّة من الفراغ. فكما هو الحال مع الأفراد الذين يعانون النكوص النَّفسيَّ بعد تجربة مؤلمة، فالمجموعات، أيضاً في الغالب، تعاني الشيء نفسه. والسبب في ذلك هو أن الناس يميلون مباشرة بعد لحظة صدمة إلى دَعْم بعضهم البعض وتجسير الخلافات فيما بينهم. نجد هذا الشعور على نحو نموذجي في الجنازات. ولكن هذا الشعور بالتضامن لا يدوم كثيراً. عندما يتلاشى هذا الشعور، تتَّضح الأزمة الوجودية. وعندما تكون الصدمات بسيطة، غالباً ما تكون الأزمة المتأخِّرة بسيطة. أمَّا مع الصدمات الأكبر، تتفاقم الأزمة الوجودية، ويمكن أن تؤدِّي عندها إلى نكوص نفسي.

كان 11 أيلول/ سبتمبر 2001 بمثابة صدمة كبرى. كما أن الهجمات التي جاءت بعده تسبَّبتْ في زيادة حدَّة الصدمة. دعم الناس بعضهم البعض في البداية، وتَعَالَوا على الخلافات. ولهذا السبب كان عاما 2004 و2005 لا يزالان مُبشِّرَين بالأمل، ولو حتَّى جزئيَّاً. لكن أزمة الهوية كانت تضرب بقوَّة بالفعل: في الانتخابات البلجيكية عام 2004، حصل الحزب اليميني المتطرِّف، فلامس بلوك، على حوالي ربع الأصوات. في عام 2002 في فرنسا، وصل جان ماري لوبان، وهو سياسي عنصري ومُنكِر للمحرقة، إلى الجولة الثانية من الانتخابات الرِّئاسيَّة. هزمه الرئيس جاك شيراك لاحقاً بسهولة، ولكنه صدم الفرنسيِّيْن صدمة كبيرة. في هولندا، قُتِل بيم فورتوين، النجم السِّياسيُّ الشَّعبويُّ الصاعد، في عام 2002. غادر خيرت فيلدرز الحزب اللِّيبراليَّ البارز، حزب VVD، في أيلول/ سبتمبر 2004 وأسَّس حزب PVV، حزب الحُرِّيَّة، الذي يعارض الإسلام صراحة، ويناهِض الهجرة، ويناهض فكرة الاتِّحاد الأوروبي. بعد ذلك بشهرَيْن، اغتيل المخرج الهولندي ثيو فان جوخ على يد مغربي هولندي، حيث كانت هذه الجريمة بمثابة انتقام منه عن فيلمه Submission الذي انتقد فيه، مع

أيان هيرسي علي، وضعَ المرأة في الإسلام. بدا الأمر كما لو أن كلاً من فرنسا وهولندا قد فَقَدَتَا البوصلة. كانت أزمة الهوية هذه هي التي جعلت كلا البلَدَيْن المؤيِّدَيْن لأوروبا يُصوِّتان بـ "لا" في استفتاءاتهما على الدُّستُور الأوروبي في عام 2005.

أمَّا المصدر الثاني للتجارب المؤلمة الصادمة، فقد كان غزو العراق عام 2003. لم تقتنع سوى القليل من الدول بالأدلَّة والحجج التي قدَّمتْها الولايات المتَّحدة. ولكن جميع هذه الدول دعمت واشنطن لأسباب تاريخية. قاومت فرنسا وألمانيا وبلجيكا، ورُفضت فكرة دخول حلف شمال الأطلسي إلى العراق، وشكَّلت كتلة مناهضة لهذه الحرب. توجَّب على الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش تشكيل "تحالف الإرادة" بدلاً من ذلك. في أوروبا، لم تكن حرب العراق الثانية تحظى بشعبية حقيقية، لأنه لا يمكن رؤية سبب حقيقي لها. في العالَم العربي، كان غزو العراق بمثابة كارثة حقيقية. اعتبر العرب هذه الحرب جولة جديدة من متابعة النظام الاستعماري القديم الذي قَمَعَهُم. لم تكن حرب العراق في نظرهم مجرَّد غزو غير قانوني؛ بل كانت عبارة عن احتلال وتدمير مهين أيضاً لأقوى جيش عربي. بالنسبة إلى معظم العرب، كان سبب الغزو الأمريكي هو الحقيقة البسيطة التي تقول إن صدَّام حسين كان ضدَّ الولايات المتَّحدة وإسرائيل. لقد راقبوا باستياء عميق كيف تمَّ حلُّ الجيش العراقي في عام 2003، وكيف أدَّت الانتخابات إلى تولِّي رئيس وزراء شيعي موالٍ لإيران السلطة. شعر المسلمون السُّنَّة أنهم كانوا مجدَّداً ضحايا تحالف دولي ضدَّهم. لقد أدَّى هذا إلى زيادة تطرُّف الجماعات المتطرِّفة بالفعل، وإلى تأسيس القاعدة في العراق؛ التنظيم الذي نفَّذ عشرات الهجمات الإرهابية الفتَّاكة ضدَّ الجنود الأمريكيِّيْن، وضدَّ الشيعة العراقيِّيْن كذلك.

شكَّلت حرب العراق صدعاً جديداً في مصداقية الغرب. كانت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية تنقل المشتبه في صلتهم بالإرهاب في رحلات

جوِّيَّة سرِّيَّة إلى سجن غوانتانامو، ممَّا مثَّل تحايلاً على قوانين الولايات المتَّحدة المتعلِّقة بالاعتقال وإجراءات القضاء والتعذيب، وكان بمثابة ضربة للدفاع الأمريكي عن سيادة القانون. أثارت الصور المسرَّبة للتعذيب والإذلال الذي تعرَّض له السجناء العراقيون في سجن أبو غريب غضباً عالمياً، وقوَّضت أُسُس التَّفوُّق الأخلاقي المعلَن من الغرب. كما أدَّى إخفاق التَّحوُّل الدِّيمقراطيِّ بعد الإطاحة بصدَّام حسين إلى ضرب مصداقية مفهوم تغيير النظام، وتعزيز الدِّيمقراطيَّة بأكمله. وقد كانت الأضرار التي لحقت بسلطة الولايات المتَّحدة في العالَم هائلة للغاية. لقد انهارت ركيزتان من الركائز الثلاث للنموذج الغربي، الدِّيمقراطيَّة وسيادة القانون. بقي الركن الثالث، اقتصاد السوق الحُرِّ، قائماً حتَّى عام 2007.

انفجرت فقاعة الإسكان في الولايات المتَّحدة في عام 2007. تشكَّلت هذه الفقاعة عن طريق البنوك التي تقدِّم قروضاً خاصَّة للأشخاص الذين لم يتمكَّنوا من شراء منازل. كان السبب وراء القروض التي سُمِّيت "قروض الرَّهْن العقاري" هو ارتفاع أسعار المساكن. ومع زيادة الطلب على المنازل، ارتفعت الأسعار. وعندما بدأت أسعار المساكن في الانخفاض، ارتفعت معدَّلات دفعات سداد قروض الرَّهْن العقاري. لم يعد الكثير من الناس قادرين على إعادة سداد القروض العقارية. مع انخفاض الطلب على المنازل، انخفضت الأسعار أيضاً، ممَّا أدَّى إلى ارتفاع معدَّلات دفعات سداد القروض. أدَّت هذه الحلقة المفرَغة إلى انهيار سوق الإسكان، ومعه البنوك التي قدَّمت معظم قروض الرَّهْن العقاري: فاني ماي وفريدي ماك. ولكن قروض الرَّهْن العقاري لم تكن المشكلة الأكبر رغم كل هذا. في السوق المالية، دُمجت قروض الرَّهْن العقاري عالية المخاطر مع القروض العادية، وتمَّ بيعها كاستثمارات آمنة. كان هذا مجرَّد واحد من "الابتكارات" المالية العديدة التي تضمَّنت الدَّين والأصول الأخرى، ليتمَّ بيعها لاحقاً كاستثمارات آمنة. وفي اللحظة التي أصبح من الواضح فيها أن هذه الحزم

المبتكرة تحتوي على عناصر "سامَّة"، اعتُبرت جميع حزم الأصول هذه حزماً سامَّة على الفور. تكمن المشكلة في أن وول ستريت باعت بالفعل هذه الحزم، ونشرتْها في جميع أنحاء العالَم.

في النصف الثاني من عام 2007، كنتُ أشغل منصباً غير معتاد، وهو المتحدِّث باسم الحكومة البلجيكية خلال الأشهر التي كانت فيها بلجيكا بدون حكومة. الحقيقة هي أنه عندما تحاول الأحزاب تشكيل حكومة جديدة بعد الانتخابات، تبقى الحكومة القديمة في مكانها. يمكن لهذه "الحكومة المؤقَّتة" اتِّخاذ القرارات التي تدعمها أغلبية كبيرة في البرلمان وحسب. ولهذا السبب وقَّعْنا على معاهدة لشبونة الأوروبية الهامَّة، التي جاءت بعد الدُّستُور الأوروبي، لأن هذه المعاهدة كانت مدعومة من قبَل البرلمان الجديد. هناك شيء واحد لا يمكن لحكومات تصريف الأعمال القيام به: إنفاق أموال أكثر من العام السابق. خلال هذه الأشهر من عام 2007 بدأت الأزمة المالية تتشكَّل. ولا بدَّ أن أعترف أنه كان من الصعب بالنسبة إلى معظمنا فَهْم ما كان يحدث بالضبط، وإلى أيِّ مدى سيكون حجم التداعيات كبيراً. لم يسمع عن هذه المنتجات الاستثمارية الخاصَّة سوى قلَّة قليلة من الناس، وقلَّة قليلة أيضاً قد عرفت مدى انتشار هذه المنتجات السَّامَّة. في صيف عام 2008، سألتُ صديقاً كان يعمل مديراً تنفيذياً في أحد أكبر البنوك في بلجيكا عن رأيه فيما يجري. اعترفتُ له أيضاً بأننا واجهْنا صعوبات في فَهْم ما يحدث بالضبط. أخبرني أنه هو وزملاؤه ناقشوا هذه المنتجات، ولم يكن لدى أيٍّ من المديرين أيّ فكرة عن ماهيَّتها، أو ما إذا كان البنك يمتلك أيّاً منها. وعندها أدركوا أن لديهم مشكلة كبيرة. لم ينجُ هذا البنك من الإفلاس سوى لأن الحكومة قد أنقذتْهُ.

كانت آثار الأزمة المالية هائلة حقَّاً. قدَّرت البنوك أنه بين أواخر عام 2005 ومنتصف عام 2007، تمَّ بيع ما لا يقلُّ عن 450 مليار دولار من التزامات الديون المضمونة السَّامَّة. فَقَدَت البنوك التي كان لها نصيب

الأسد من هذه الاستثمارات السَّامَّة ثقة عملائها. في 15 أيلول/ سبتمبر 2008، أعلن بنك ليمان براذرز، رابع أكبر بنك استثماري في الولايات المتَّحدة، إفلاسه. كان هذا البنك هو الأوَّل في موجة انهيار البنوك في الولايات المتَّحدة وأوروبا. بين عامَي 2007 و2009، انهار حوالي 50 بنكاً، وأفلسوا، واضطرَّت الحكومات إلى إنقاذها أو استحوذت عليها بنوك أخرى. كانت بعض هذه البنوك صغيرة إلى حَدٍّ ما، في حين كانت البنوك الأخرى من أكبر البنوك في بلدانها: ميريل لينش، وبير ستيرنز، وليانس أند ليسيستر، وفاني ماي وفريدي ماك، وإتش بي أو إس، وبرادفورد وبينغلي، وفورتيس، ورويال بنك أوف سكوتلاند، ويو بي إس وبنك روسكيلد، على سبيل المثال لا الحصر. حسب معهد روزفلت أنه بحلول آذار/ مارس 2009، دمَّرت الأزمة المالية 34.4 تريليون دولار أمريكي من الثروة على مستوى العالَم. فَقَدَتِ الأُسر الأمريكية وحدها ما يقرب من 8 تريليونات دولار في أسواق الأسهم، بالإضافة إلى خسارة قيمتها 6 تريليونات دولار في القيمة السُّوقيَّة لمنازلها.

في نهاية عام 2009، تسبَّبت الأزمة المالية في أزمة الديون السِّياديَّة الأوروبية أو أزمة منطقة اليورو. لقد بدأت هذه الأزمة مع عدم قدرة اليونان على سداد ديونها أو إنقاذ بنوكها. فَقَدَ المُقرِضُون ووكالات الائتمان ثقتهم بالحكومة اليونانية، وفرضوا أسعار فائدة أعلى من أيِّ أسعار وصلت إليها الفائدة من قبل. صعَّب هذا الأمور على اليونان التي لم تتمكَّن من تمويل عجزها وسداد ديونها. عندما أصبح من الواضح أن الحكومة اليونانية كانت تكذب بشأن وضعها المالي لسنوات، فَقَدَت الحكومات الأوروبية الأخرى ثقتها في اليونان. عندما بدأ سياسيون ألمان مُهمُّون في القول إنهم لا يريدون أن يدفعوا لليونان، وإنه سيكون من الأفضل إذا تمَّ طرد اليونان من منطقة اليورو، جهَّزت الأسواق المالية نفسها للمعركة. بدأت الأسواق المالية بالتحقيق في شأن اليونان أوَّلاً، ثمَّ البرتغال، ثمَّ أيرلندا، وبعدها إسبانيا

وإيطاليا. لقد كانت لحظة سيِّئة وخطيرة للغاية. أصبحت إيطاليا في حالة تأهُّب قصوى، وعيَّنت حكومة تكنوقراط بقيادة ماريو مونتي، الأكاديمي والمصرفي، كرئيس للوزراء. إن انعدام الإرادة السِّياسيَّة لإنقاذ الدول المُخفقة جعلت منطقة اليورو تنهار. لم تقم الحكومات الأوروبية سوى باتِّخاذ تدابير لتخفيف الضغط، وبدرجة عالية من التَّردُّد. لم تنتهِ الأزمة سوى في أيلول/ سبتمبر 2012، عندما أعلن ماريو دراجي، رئيس البنك المركزي الأوروبي، عن دعم غير محدود مجَّاني لجميع بلدان منطقة اليورو التي تواجه صعوبات. يمكن أن تبدأ الجروح داخل الاتِّحاد الأوروبي بالشفاء، ولكن بقايا خيبة الأمل العميقة ستظلُّ قائمة. بدا لأول مرَّة أن فكرة التضامن الأوروبي لها حدود حقَّاً.

لم يغضب الناس لأنهم فَقَدُوا مدَّخراتهم وحسب؛ بل دفع الركود الاقتصادي الكثيرين إلى البطالة. نجحت مؤسَّسات مثل صندوق النقد الدُّوليِّ والاحتياطي الفيدرالي والبنك المركزي الأوروبي في تجنُّب الانهيار التَّامِّ، كما حدث في ثلاثينيَّات القرن العشرين، ولكن تلك الأزمة المالية والاقتصادية شكَّلت صدمة حقيقية. فَقَدَ الناسُ ثقتَهم في وول ستريت، وفي المصرفيِّيْن والحكومات، بسبب منحهم الحُرِّيَّة للمقامرة بأموالهم، وملء جيوبهم، والنجاة بأنفسهم رغم ذلك. لقد فَقَدُوا ثقتهم في اقتصاد السوق الحُرِّ أو كما أسماه الكثيرون النظامَ الرَّأسماليَّ النِّيوليبراليَّ. منح هذا الغضب أجنحة للحركات الشَّعبويَّة اليسارية مثل سيريزا في اليونان، وبوديموس في إسبانيا وسينك ستيل في إيطاليا. في المملكة المتَّحدة، انتخب حزب العمل جيريمي كوربين، المعارض الاشتراكي، زعيماً له. وللمرَّة الأولى، أحرز مرشَّح للرئاسة، يُطلق على نفسه صفة الاشتراكي، تقدُّماً في الانتخابات التَّمهيديَّة الأمريكية. استفاد بيرني ساندرز من موجة الغضب الأمريكي المناهض لوول ستريت والشعور العامّ بأن نسبة أغنى الأغنياء الذين يمثِّلون واحداً في المئة، لم يكونوا يلقون أيَّ بال لمعاناة عامَّة الناس.

لقد جعلتْنا الأزمة المالية والاقتصادية ننسى أن صدمة 9/11 لا تزال

قابعة في أذهاننا وكيف كان هذا يغيِّر مجتمعاتنا. من الصعب المبالغة في تقدير الضرر الذي ألحقتْهُ هذه الهجمات بالمجتمع الإسلامي في جميع أنحاء العالَم. لقد أصبح كل مسلم مشبوهاً فجأة. وأصبح كون المرء مسلماً مرادفاً لكونه إرهابياً محتملاً، أو على الأقلِّ مؤيِّداً للإرهاب. لم يؤثِّر هذا على العالَم العربي أو العالَم الإسلامي الأوسع وحسب. قبل 9/11 كان المسلمون يتصارعون بالفعل مع هويتهم. فقد كانت هذه الهوية مكوَّنة من خليط من هوية بلدانهم التي يعيشون فيها، وهوية بلدانهم الأصلية. لم يشعر هؤلاء المسلمون بالقبول في أيٍّ منهما. في الغرب المسيحي (ثقافياً على الأقلِّ)، اعتُبرت الممارسات الإسلامية المتشدِّدة غريبة ومزعجة. كان المسلمون ضحايا للعنصرية الخفيَّة، بل والعلنية أيضاً. لذلك لم يكن لدى المسلمين خيار آخر سوى محاولة أن يكونوا غير مَرئيِّيْن قدر الإمكان.

بعد الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، بدأت المجتمعات الغربية في النظر إلى المسلمين، ليس فقط على أنهم عناصر مُقلِقة وحسب، بل بوصفهم يمثِّلون خطراً محتمَلاً. أدَّى هذا إلى تحوُّل في كثير من المسلمين الغربيِّيْن من مشكلة الهوية إلى أزمة الهوية. لقد سئم العديد من المسلمين في أوروبا والولايات المتَّحدة، والذي لم يعودوا يحتملون النظر إليهم كمشتبه بهم، بالتأكيد على هويتهم الإسلامية. أخذ الرجال يُطلقون لحاهم، وبدأت النساء في ارتداء النقاب كفعل تمرُّد ضدَّ هذا الوصم العامِّ لهم. وكحقيقة واقعة، بدأ العديد من المسلمين الغربيِّيْن عملية القَبْلَنَة الخاصَّة بهم. أصبح الدِّين هو الهوية الوحيدة التي تمثِّلهم. فضَّل المسلمون هوية واضحة رغم كونها سلبية على الهوية الغامضة التي اضطرُّوا إلى التعايش معها لعقود. ولهذا السبب، أداروا ظهورهم للإسلام "المعتدل" وبدؤوا في اتِّباع الاتِّجاه الأكثر صراحة والمتمثِّل في العودة إلى الماضي الأسطوري: السَّلفيَّة. فجأة، رأى الأمريكيون والأوروبيون نساءً يرتدينَ الحجاب الأسود الكامل أو النِّقاب يمشون في شوارع مدينتهم. اعتبر الكثيرون أن هذا قد

مثَّل النَّفيَ النِّهائيَّ للثقافة الغربية. تعزَّزت الحركات والأحزاب المناهضة للإسلام في كل مكان.

في نيسان/ أبريل 2002، وصل جان ماري لوبان إلى الجولة الثانية من الانتخابات الرِّئاسيَّة في فرنسا. في النرويج، بدأ أندرس بريفيك بالتخطيط لهجومه منذُ عام 2002، والذي نفَّذه عام 2011، بعد عشر سنوات من أحداث 11 أيلول/ سبتمبر. قتَل بريفيك في يوم واحد 77 شخصاً، وجرح 319. بلغ بريفيك في كتاباته وتصريحاته الذروة عندما تحدَّث عن "أسلمة" أوروبا، وأعلن أن هجماته الإرهابية كانت عملاً شجاعاً أبيض لإنقاذ الحضارة الأوروبية. وصف نفسه في السجن بأنه نازي. حظي هذا الهجومُ الهَمَجيُّ (وما زال يحظى) بالكثير من اهتمام وسائل الإعلام. سوف يجعلنا كل هذا ننسى الهجمات شبه اليومية على المسلمين في أوروبا. ذكرت الشرطة الألمانية أنه في عام 2015، كان هناك أكثر من 1000 هجوم على منازل اللَّاجئين في ألمانيا وحدها. في نفس العام، كانت هناك محاولتان لإحراق المساجد في الولايات المتَّحدة. في أيلول/ سبتمبر 2015، أُحرق المسجد الأكبر في أوروبا الغربية، مسجد بيت الفتوح في جنوب لندن. لا شكَّ أن العديد من المساجد ستعاني نفس المصير في السنوات القادمة.

في عام 2016، حقَّق الخطاب السِّياسيُّ المناهض للهجرة والإسلام مكاسب مذهلة في الانتخابات في أوروبا والولايات المتَّحدة. في النمسا، قال نوربرت هوفر، أحد المرشَّحين للرئاسة إنه "لا يوجد مكان للإسلام في النمسا". خسر هوفر الانتخابات الرِّئاسيَّة بفارق ضئيل في أيَّار/ مايو 2016. في وقت لاحق، أُلغيَت الانتخابات، ممَّا أعطاه فرصة ثانية للفوز (على الرغم من أنه قد خسر مُجدَّداً). في ألمانيا، عزَّز الحزب المناهض للهجرة، حزب البديل من أجل ألمانيا (AfD، Alternative für Deutschland) مكانته في الخريطة السِّياسيَّة في العديد من الانتخابات. في ولاية المستشارة آنجيلا ميركل، من مكلنبورغ فوربومرن، كسب حزب

البديل أصواتاً بنسبة 20.8 ٪، وأصبح أكبر من حزب ميركل، حزب الاتِّحاد الدِّيمقراطيِّ المسيحي. في حزيران/ يونيو 2016، فاز معسكر الخروج من الاتِّحاد بتصويت خروج بريطانيا من الاتِّحاد الأوروبي، وهي نتيجة تُعزَى على نطاق واسع في جزء كبير منها إلى الخطاب المناهض للهجرة. في الولايات المتَّحدة، قام المرشَّح الرِّئاسيُّ للحزب الجمهوري دونالد ترامب بحملات ضدَّ المسلمين وضدَّ الهجرة، وهَزَمَ، في النهاية، وزيرة الخارجية السابقة هيلاري كلينتون في الانتخابات التَّمهيديَّة.

إن الشعور بانعدام الترحيب، وبالتالي عدم وجود مستقبل في أوروبا (والولايات المتَّحدة) هو بالضبط ما دفع الشباب المسلمين للانضمام إلى الدولة الإسلامية في سوريا. وعلى عكس هجمات 11 أيلول/ سبتمبر التي ارتكبها العرب، فإن الهجمات التي وقعت في باريس وبروكسل في عامَي 2015 و2016 ارتُكِبَتْ من قبَل مواطنين أوروبيِّيْن. لقد انتقموا من المجتمع الذي لم يقبلهِم أبداً، وأغلق عليهم الطريق لتحقيق أحلامهم. شعر هؤلاء الشباب بالرفض والاستبعاد من المجتمع الذي وُلِدوا ونشؤوا فيه. يتمثَّل الهدف وراء هجماتهم في جعل عائلاتهم وأصدقائهم ينظرون إليهم على أنهم أقوى وأكثر تهديداً وخطورة. سوف يصبح هؤلاء على الأرجح ضحايا للتنميط العِرْقِيِّ، والذي سيدفعهم للغوص أكثر في عمليات القَبْلَنَة والتَّطرُّف.

يدفع هذا التراكم للأحداث الصادمة العالَم إلى السقوط في دوَّامة القَبْلَنَة. لقد فَقَدَ الناسُ ثقتهم في الحكومات، وبالأجهزة الأمنية، والأسواق الحُرَّة والنظام المصرفي. يعرف الناس أن الهجمات الإرهابية يمكن أن تضربهم في أيِّ مكان: في المنزل أو في العمل أو في أثناء العطلة. لم يعودوا يشعرون بالارتياح على الإطلاق في مجتمعهم. أصبح الناس غاضبين وخائفين وفاقدين لليقين بشأن المستقبل. ولأوَّل مرَّة منذُ سبعة عقود، اقتنع أولياء الأمور بأن أطفالهم لن يعيشوا حياة أفضل من حياتهم. تسبَّبت

الأحداث المؤلمة واحداً تلو الأخر في انغماس العالَم في أزمة هوية عالمية. أخذ الناس يبحثون بعد أن فَقَدُوا البوصلة عن نقطة للإرساء. بدؤوا ينظرون إلى العالَم من خلال الثُّنائيَّات أكثر فأكثر، الأبيض والأسود، وأخذوا يتطلَّعون إلى القيادات، لمنحهم الإجابات الواضحة، أولئك القادة الموثوقون القادرون على إخراجهم من هذه الأزمة. ملأ الاستقطاب المجتمعات، وأصبح "الآخر" عدوًّاً، سواء أكان من داخل المجتمع أم من خارجه. أخذ الناس يحفرون في ماضيهم الأسطوري العظيمِ للعثور على أدوات وأفكار، تدفعه للمضي قُدُماً، متجاهلين حقيقة أن هذا الماضي سبَّب لهم من المشكلات أكثر ما قدَّم لهم من الحلول. أثَّرت القَبْلَنَة على كل قارَّة من قارَّات العالَم. أخذ البشر في كل مكان يبنون الجدران، ويحفرون الخنادق، رافضين الإصغاء للدرس المُستمَدِّ من التاريخ، والذي يقول إنه كلَّما ازداد عمق خندقكَ، تعثَّرتْ خطواتكَ إلى الأمام.

يُظهِر التاريخ أن كل هذا قد مثَّل علاماتٍ ونُذُرٍ على أن الحرب قادمة. كيف ستبدو هذه الحرب؟ وأين؟ ومتى ستبدأ؟ هذا ما يستحيل التَّنبُّؤ به. أمَّا السؤال الأكثر أهمِّيَّة، فهو ما إذا كان من المستحيل منع حدوث الحرب. بمعنى آخر، هل من الممكن إيقاف عملية القَبْلَنَة؟

الخلاصة
كيف يمكننا تجنُّب الحرب القادمة؟

التجربة الصادمة الكبرى المشتركة في عصرنا هي هجوم القاعدة في الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر. تعمَّقت هذه الصدمة العالَميَّة بعد الهجمات التي وقعت في جربة والدار البيضاء وإسطنبول ومدريد وجاكارتا ولندن ومومباي والعديد من الأماكن الأخرى، ودفعت أجزاءً كبيرةً من المجتمع العالَمي في مأزق أزمة الهوية. زادت الحروب المُخفقة في أفغانستان والعراق من حدَّة الأزمة. عادت القوميَّة الاستبداديَّة والدِّين الاستبدادي عودة قويَّة وسريعة، من خلال عملية القَبْلَنَة الجديدة. عاد الناس مجدَّداً للتَّطلُّع إلى ماضيهم الأسطوري، آملين أن يجعل القائد القوي بلدهم أو دينهم عظيماً مرَّة أخرى. وأصبحت المعركة ضدَّ الأعداء الخارجيِّيْن والدَّاخليِّيْن قائمة على قَدَم وساق مجدَّداً.

ربَّما كان تنظيم داعش، أو الدولة الإسلامية في العراق والشام، المثالَ الأوضح على عملية القَبْلَنَة الحاليَّة. إن التجربة المؤلمة لمقاتلي داعش هذه هي نتيجة مباشرة لأحداث 11 أيلول/ سبتمبر: أي غزو العراق عام 2003 والاحتلال الغربي للبلاد الذي تَلَى هذا الغزو. لقد اعتبروا هذه الحرب حرباً على الإسلام السُّنِّي، وأن الهزيمة والاستسلام ناجمان عن قلَّة الإيمان. عاد هؤلاء إلى الماضي الأسطوري للخلفاء الراشدين الأوائل، لجعل دينهم عظيماً مرَّة أخرى. اعتقد تنظيم داعش، بإعلانه الخلافة الجديدة بقيادة خليفة جديد، أن مهمَّته المقدَّسة هي تطهير الإسلام وتنقيَتِه وتغيير إيمان الأشخاص الذين لا يشاركونهم وجهات نظرهم المتطرِّفة أو قتلهم. الأعداء

الخارجيون هم الغرب وإيران الشِّيعيَّة، بينما يُنظَر إلى جميع المسلمين السُّنَّة "الضَّالِّين" كأعداء داخليِّيْن.

نُغفلُ تنامي الجماعات القومية الاستبدادية عندما نُركِّز اهتمامنا على الجماعات الدِّينيَّة المتطرِّفة. أفاد مركز قانون الفقر الجنوبي، وهو منظَّمة أمريكية للدفاع والمناصرة متخصِّصة في الحقوق المَدَنيَّة، أنه خلال العشرين سنة الماضية، زاد عدد جماعات الكراهية في الولايات المتَّحدة بمعدَّل يتجاوز الضعف. وفي عام 2017 وحده، زاد عدد الجماعات النَّازيَّة الجديدة بنسبة 30 في المائة. يصعب العثور على أرقام دقيقة عن أوروبا وروسيا، ولكن ظهور الجماعات اليمينية المتطرِّفة واضح للعيان. لا يمثِّل هذا الاتِّجاه مجرَّد ظاهرة على هامش مجتمعاتنا، بل يؤثِّر على الاتِّجاه العامِّ والتَّيَّار السائد أيضاً، ويضخُّ مزيداً من الاستقطاب في النقاش اليومي. يُظهِرُ التاريخ أنه عندما يبدأ المزيد من القادة السِّياسيِّيْن في التَّطلُّع إلى الماضي بدلاً من المستقبل، فإن المشكلة تنتظرنا في نهاية النفق.

أمَّا الأمر الأكثر إثارة للقلق من صعود القوميَّة الاستبداديَّة والنزعة الدِّينيَّة الاستبداديَّة هو تزايد انعدام القدرة على التَّنبُّؤ بالمستقبل. زاد تسلُّطُ رجب طيِّب أردوغان، والذي يضع نقطة الارتكاز لنفسه ولتفكيره في الماضي العثماني، ولكنْ، في جميع الأحوال، لا يمكن التَّنبُّؤ فيما سيحدث معه مستقبلاً. يبدو يوماً وكأنه صديق إسرائيل المقرَّب، لتغدو إسرائيل في اليوم التالي عدوَّه اللدود. يتطلَّع أردوغان يوماً للسلام مع الأكراد، ليقاتلهم في اليوم التالي. لا يمكن التَّنبُّؤ أيضاً بتصرُّفات ولي العهد محمَّد بن سلمان، الرجل القويِّ الجديد في المملكة العربية السُّعوديَّة. يتَّخذ بن سلمان قرارات سريعة مفاجِئة، تُدهش العالَم بأسره في إطار جهوده لإنشاء تحالف سُنِّيٍّ واسع ضدَّ إيران: احتجازُ سعد الحريري رئيس الوزراء اللُّبنانيِّ رهينةً، وإجباره على الاستقالة، وفرضُ الحصار على قطر، وشنُّ حربٍ في اليمن على سبيل المثال لا الحصر.

إن هذا المزيج بين القَبْلَنَة وانعدام القدرة على التَّنبُّؤ هو الذي يتَضح بالضبط في الولايات المتَّحدة أيضاً. يستيقظُ العالَم في كل يوم، بما فيه البيت الأبيض، على سؤال ما الذي قد يكون قد أعلنه دونالد ترامب على تويتر. قد يكون أحد هذه القرارات إغلاق الحدود الأمريكية أمام المسلمين، وربَّما يكون في يوم آخر إقالة صديقه ستيف بانون. أعلن ترامب في أيلول/ سبتمبر 2017 الحرب على كوريا الشَّماليَّة، وفي آذار/ مارس 2018 وافق على مقابلة كيم جونغ أون، كما أنه أعلن في الشهر نفسه من عام 2018 حرباً تجارية على صناعة الحديد الصلب. ليس لدينا شكٌّ في أنه بين مرحلة كتابة هذا الكتاب ونشره، ستصدر العديد من القرارات الإضافية الغريبة عن الرئيس الأمريكي.

لقد دفع هذا المزيج بين القَبْلَنَة وتعطيل العَولَمَة وانعدام القدرة على التَّنبُّؤ إلى الحرب في عام 1939. يبدو أن عدم القدرة على التَّنبُّؤ جزء من طبيعة الزعماء القَبَلِيِّيْن الاستبداديِّيْن. يشهد عالم اليوم صعود الزعماء القَبَلِيِّيْن الاستبداديِّيْن، والذين لا يمكن التَّنبُّؤ بتصرُّفاتهم. لهذا علينا مواجهة احتماليّة الحرب، على الرغم من إنكارنا العقلاني لهذا. وبينما تبدو سمة انعدام القدرة على التَّنبُّؤ سمة مميَّزة لقادة اليوم، فإنه لا يمكن التَّنبُّؤ أيضاً بالمكان الذي ستندلع فيه الحرب. وكما لم يتوقَّع أحد أن تندلع الحرب العالَميَّة الأولى في سراييفو، يغدو من المستحيل تحديد ما هي الشرارة التي ستُحدِث الانفجار الجيوسياسي التالي، أو أين سيحدث، أو الجهات الفاعلة التي ستنخرط فيه. قد يحدث الانفجار في إيران أو إسرائيل أو الصين أو اليابان أو روسيا أو أوروبا أو الولايات المتَّحدة أو إيران أو الهند أو الصين أو تركيا أو روسيا أو الولايات المتَّحدة أو كوريا الشَّماليَّة، أو في منطقة، لم نفكِّر فيها مطلقاً من قبل. عنصر المفاجأة واحد من التكتيكات الرئيسة للحرب. لذلك يمكن أن يحدث هذا فجأة في أيِّ مكان كان، وفي أيِّ وقت كان.

أمَّا السؤال الأخير، وربَّما الأهمُّ، هو ما إذا كان بالإمكان تجنُّب الحرب أم لا. إذا كنتَ مؤرِّخاً يؤمن بقوانين الحتميّة التَّاريخيَّة، فلن يكون الجواب بالنفي. فجميع العوامل المطلوبة متحقِّقة، أمَّا الأسئلة الوحيدة المتبقِّية، فسوف ستكون متى وأين. ولكنني أعتقد أن التاريخ أثبت أنه غير حَتميٍّ بطبيعته. لم يتضمَّن التاريخ أيَّ شيء حتمي، لا يمكن المفرُّ منه. لم تؤدِّ أزمة كوبا عام 1962 إلى حرب نووية ضخمة بين الولايات المتَّحدة والاتِّحاد السُّوفيتيِّ، لأن الرئيس الأمريكي جون كينيدي (1917-1963) والزعيم السُّوفيتيَّ نيكيتا خروتشوف (1894-1971) قرَّرا عدم السماح بحدوث ذلك. قرَّر ميخائيل غورباتشوف، وعلى عكس ردِّ فعل موسكو الوحشي على الاحتجاجات في المجر عام 1956 وتشيكوسلوفاكيا في عام 1968، وعلى عكس قَمْع القيادة الصِّينيَّة لاحتجاجات ميدان تيانانمين، عدم نشر الدَّبَّابات في الشوارع عندما بدأ سُكَّان برلين في هدم جدار برلين في عام 1989. في جنوب إفريقيا، قرَّر الرئيس فريدريك ويليم دي كليرك (من مواليد عام 1936) إيقاف نظام الفصل العنصري القَبَلِيِّ، وفتح حوار مع نيلسون مانديلا وحزب المؤتمر الوطني الإفريقي.

ربَّما كان هناك احتمال في اتِّخاذ قرار بعدم خوض الحرب رغم كل الصعاب أمام تحقيق ذلك، أمَّا عكس مجرى عملية القَبْلَنَة، فهو شيء آخر تماماً. ندخل هنا في هذه الحالة في دهاليز وتضاريس السياسة الوعرة. نرى استجابَتَيْن سياسيَّتَين أمام موجة القَبْلَنَة: الاستجابة المحسوبة هي الاستجابة الأكثر شيوعاً. عندما تلاحظ الأحزاب السِّياسيَّة والسِّياسيُّون الصعود السريع في الخطاب القَبَلِيِّ وتصاعد الأحزاب اليمينية المتطرِّفة في صناديق الاقتراع، فإنها تميل إلى تكييف خطابها مع الأحداث من خلال تبنِّي ودمج عناصر قَبَلِيَّة فيه. يأمل السِّياسيُّون من خلال القيام بذلك باختيار الناس "القَبْلَنَة المخفَفة" بدلاً من "القَبْلَنَة الكاملة". تُعدُّ هذه الاستراتيجية استراتيجية ناجعة على الأقلِّ في فترة الانتخابات. ومن الأمثلة

على ذلك الرئيس السابق نيكولا ساركوزي في فرنسا، حيث كانت أفكاره غالباً تشبه أفكار الجبهة الوطنية. أمَّا الأمثِلة الأخرى الأكثر حداثة، حزب الشعب النّمساويّ ÖVP، الحزب الدِّيمقراطيُّ المسيحي التَّقليديُّ في النمسا، والذي كاد ينسخ برنامج خصمه اليميني المتطرِّف، حزب الحُرِّيَّة. وقد تمكَّنوا بعدها من ذلك بنجاح، حيث أصبح حزب الشعب النّمساويّ ÖVP أكبر حزب في البلاد، وهو الذي يقود حكومة النمسا اليوم. وكمثال آخر على الموقف والاستجابة المحسوبة نجد جيرمي كوربين، زعيم حزب العمَّال البريطاني، والذي لم يتَّخذ موقفاً في استفتاء "خروج بريطانيا من الاتِّحاد الأوروبي"، لأنه لم يكن يريد السباحة ضدَّ التَّيَّار. وهكذا عندما صوَّت الشعب البريطاني على مغادرة الاتِّحاد الأوروبي، لم يكن ينظر إليه على أنه على الجانب الخاسر من الاستفتاء.

لقد أثبتتْ هذه المواقف المحسوبة أنها استراتيجية رابحة على المدى القصير على الأقلِّ، ولكنها لا تتمكَّن على الإطلاق من عكس اتِّجاه القَبْلَنَة، بل تُقوِّي هذه المواقف على العكس من ذلك الخطاب القَبَلِيَّ من خلال إضفاء طابعٍ طبيعيٍّ عليه. جعل مثل هذا الموقف في حالة فرنسا الجبهة الوطنية تحظى بشعبية أكبر على المدى الطويل، حيث كسبت ما لا يقلُّ عن 34٪ في الانتخابات الرِّئاسيَّة لعام 2017. الأهمُّ من كل ذلك أن الأحزاب والسِّياسيِّيْن الرَّئيسين يجعلون من هذا الخطاب خطاباً سائداً أيضاً، من خلال تبنِّي عناصر ومكوِّنات الخطاب القَبَلِيِّ في خطابهم. والنتيجة أن هذه الأحزاب والسِّياسيِّيْن أصبحوا يكتسبون احترامهم من خلال كونهم ضدَّ الاندماج الأوروبي، وهو أهمُّ مشروع سلام في التاريخ، أو في أن يكونوا مُعادِين للإسلام، ومناهضين للهجرة.

الموقف الآخر هو موقف الإدانة. ترفض الأحزاب أو السِّياسيُّون الذين يختارون هذا الموقف التَّنكُّر لمبادئهم التَّاريخيَّة المؤيِّدة للعَولَمَة، ويرفضون اعتماد خطاب القَبْلَنَة. وأبرز مثالَيْن على ذلك هما جاستن ترودو في كندا،

وإيمانويل ماكرون في فرنسا. فاز كلا السِّياسيَّيْن في انتخاباتهما بمعارضة القَبْلَنَة بدلاً من التَّكيُّف معها. دافع ترودو عن مجتمع شاملٍ، يفتح أبوابه مرحِّباً بالجميع، بِغَضِّ النظر عن دينهم أو خلفيَّتهم. ذهب في منتصف حملته إلى تناول العشاء مع السَّلفيِّيْن لإظهار أنهم أيضاً جزء من كندا. واجه ترودو من خلال القيام بذلك علناً خطاب القَبْلَنَة مباشرة. مشى ماكرون عكس التَّيَّار أيضاً من خلال اتِّخاذ موقف لصالح تعاون وتكامل أكبر على الصعيد الأوروبي ومناهض لكراهية الإسلام. توقَّع عدد قليل من المحلِّلين وحسب أن يحظى ماكرون بفرصة للفوز، ليس فقط لأنه لم يكن مدعوماً من قبَل حزب تقليدي وحسب، بل بسبب مواقفه أيضاً. وأصبح أخيراً، وسط دهشة الكثيرين، رئيساً لفرنسا.

أودُّ أيضاً أن أضيف أنجيلا ميركل إلى قائمة المقتنعين والملتزمين بالعَولَمَة. وقفت ميركل في خضمٍّ ما يُسمَّى أزمة الهجرة في عام 2015، ضدَّ التَّيَّار، وقالت "ستتمكَّن من تجاوز هذه الأزمة - wirschaffen das". قد يبدو الأمر مفاجِئاً، ولكن هذا التصريح هو الذي صدم داعش أكثر من غيرها. ركَّزت الدعاية الخاصَّة بالدولة الإسلامية بالكامل على القضاء على ما يُسمَّى بـ "المنطقة الرَّماديَّة"، أو البلدان التي لا يُرحَّبُ فيها بالمسلمين. نظراً لأن داعش أراد أن يُشعل شرارة صراع كبير بين الغرب المسيحي والشرق الإسلامي، فقد أرادوا إقناع جميع المسلمين بمغادرة أوروبا المعادية للإسلام والانضمام إلى داعش في الشرق. وبعبارة أخرى، كلَّما زاد مستوى الإسلاموفوبيا في أوروبا، زادت الجدران في وجوه اللَّاجئين، وكلَّما زاد الخطاب المناهض للهجرة، وزادت المكاسب الانتخابية للأحزاب القَبَلِيَّة، كان ذلك أفضل لداعش واستراتيجيتها. دمَّرت عبارة "wirschaffen das" لميركل والملصقات الكبيرة المعروضة في ملاعب كرة القَدَم التي تقول "أهلاً باللَّاجئين" دعاية داعش أكثر من أيِّ شيء آخر.

إن منع الحرب ووقف عملية القَبْلَنَة هي مسألة أفكار أيضاً. كانت

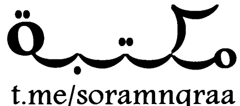
الفاشية والنَّازيَّة والشُّيوعيَّة في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين تمثِّل أفكاراً جديدة. تكون الأفكار الجديدة، أو التي تبدو جديدة، في أوقات الأحداث الصادمة أفكاراً جذَّابة، وخاصَّة إن كانت أفكاراً متطرِّفة. يمثِّل أساس الدولة الإسلامية فكرة جديدة ومتطرِّفة، لذلك اكتسبت قوَّة كبيرة. يبدو إلغاء الاتِّفاقيات الدُّوليَّة مثلما يفعل الرئيس ترامب، أو التَّحدِّي العلني لمعاهدات حقوق الإنسان كما نرى في أوروبا، عبارة عن أفكار جديدة وجريئة ومتطرِّفة وجذَّابة لكثير من الناس. ويبدو المُعَوْلَمُون في الجانب الآخر، مجرَّد مدافعين عن النظام الحالي وحسب، دون طرح أيِّ أفكار جديدة. لا يمكن كسب معركة الأفكار من خلال محاولة الحفاظ على النظام اللِّيبراليِّ العالَميِّ وحسب، وليس في أوقات أزمات الهوية العالَميَّة أيضاً. خسر المدافعون معركة الأفكار في ثلاثينيَّات القرن العشرين، وسيخسرون مرَّة أخرى اليوم، إذا لم يتمكَّنوا من التَّوصُّل إلى أفكار جديدة، وإلى نوع جديد من القِيَم والمُثُل العليا.

القَبْلَنَة ليست مُعدِيةً وحسب، بل هي عبارة عن حلقة مفرَغة. لقد رأينا هذا يحدث في التاريخ مراراً وتكراراً. إذا انطلق أحد البلدان على طريق القَبْلَنَة، فإن الدول المجاورة ستفعل ذلك أيضاً. إذا تعرَّضت إحدى القارَّات للقَبْلَنة، فسوف تحذو القارَّات الأخرى حذوها، إلى أن ينتهي كل ذلك بصراع كبير، ليتساءل الناس في النهاية مدهوشين غير مدرِكين ما الذي حدث من حولهم. يتبنَّى الناس عندها أحاديث من قبيل "لن يتكرَّر هذا أبداً" و"لن تنسى أبداً"، حتَّى ينسوا مجدَّداً ما ينبغي عليهم ألَّا ينسوه أبداً.

لا تتوقَّف مسؤولية منع الحرب وإيقاف هذه الحلقة المفرغة من القَبْلَنَة على الأحزاب السِّياسيَّة والسِّياسيِّيْن وحدهم، بل يتوجَّب على كل مواطن أن يكون له دورٌ حاسمٌ في محاربة هذا الاتِّجاه الحالي، ومحاولة عكس مساره. يمكن للجميع مقاومة اتِّباع الإعلام على نحو أعمى أو مقاومة زعيم

استبدادي أو حركة قَبَلِيَّة. ويمكن للجميع محاربة رُهَاب الإسلام أو مناهضة فكرة أننا نواجه اليوم "صراع الحضارات". يمكن للجميع محاولة الخروج بأفكار جديدة للمستقبل. يحتاج العالَم إلى العودة إلى سكَّة العَولَمَة، لأن هذا هو الطريق الوحيد لتحقيق السلام والازدهار.

شُكْر وتقدير



t.me/soramnqraa

مثَّلت ولادةُ هذا الكتاب مخاضاً طويلاً للغاية، حيث بدأ العمل عليه في المؤتمر السَّنويِّ لمركز حلِّ النزاعات المستعصية (CRIC) في كُلِّيَّة هاريس مانشستر بجامعة أوكسفورد في أيلول/ سبتمبر 2014، ومحاضرات حول ردِّ فعل الناس الفوريِّ على هجوم 11 أيلول/ سبتمبر في نيويورك، وحول سيكولوجية مقاتلي الدولة الإسلامية، وحول نظريات رينيه جيرارد، وحول دول الربيع العربي، وحول المشهد الفكري الحالي لإسرائيل، والمزيد من الموضوعات الأخرى التي أثَّرتْ فيَّ للغاية، وتركت انطباعاً عميقاً عليَّ. أدَّت كل هذه النشاطات إلى تحفيز عملية التفكير التي دفعت باتِّجاه فكرة القَبْلَنَة. لا يسعني إلَّا تقديم جزيل الشُّكْر لجون لورد ألدرديس، مدير مركز حلِّ النزاعات المستعصية لدعوتي لحضور المؤتمر، ثمَّ تكريمي لاحقاً بزمالة باحث زائر في المركز، ومنحي الفرصة لتقديم الفكرة خلال المؤتمر السَّنويِّ للمركز عام 2015.

هناك بالطبع فرقٌ بين امتلاككَ فكرة معيَّنة وكتابتِها في كتاب. ساعدَني أمير أحمد نصر في بَلوَرَة مفهوم الكتاب. تحلَّى الأصدقاء حازم أمين ورشا كامل ومنى الطحاوي وتامر فؤاد وياسر الزَّيَّات ومحمَّد سلطان، بالصبر الكافي للاستماع إليَّ لساعات طويلة، أتأمَّل وأشرح أفكاري، خلال فترة عملية الكتابة في القاهرة. كان لكلٍّ منهم دورٌ مُهمٌّ في استيعاب وتعريف مفهوم القَبْلَنَة اليوم في العالَم العربي بدقَّة. وتمكَّنتُ بفضل رامي يعقوب من نقل عملي حول السياسة في الشرق الأوسط من القاهرة إلى بروكسل، ومن قلب

العالَم العربي إلى قلب أوروبا. وقد ناقشتُ بسعادة بالغة، بمجرَّد وصولي إلى بروكسل، كل مفهوم من المفاهيم الواردة في كتابي خلال العديد من وجبات الغداء مع ستيفان نيتنز.

وقد تمتَّعَ بعض الأشخاص بالشجاعة الكافية لمراجعة المخطوطة، وذلك على الرغم من جدول أعمالهم المزدحم، ثمَّ إبداء ملاحظات مُهمَّة: محمَّد سامح، وميلان شروير، وباتريك ستاوثايسن، وماهر حمُّود. كما أشكر بكلّ التواضع والمحبَّة التعليقات والملاحظات التي كتبها كلٌّ من جاي فيرهوفشتات وجون ألدرديس وجوناثان هولسلاج على الغلاف الخلفي للكتاب. وأشكر شُكْراً جزيلاً خاصَّاً كلاً من برام ديلين وبينار إلمان اللَّذَيْن أغنياني بتعليقاتهما خلال عملية الكتابة، بعد الانتهاء من كل فصل، وكل منها من منظور مختلف. لقد جعلت كلماتهما الكتاب أكثر ثراءً ودقَّة بكل تأكيد.

أشعر بامتنان شديد لكلٍّ من لنينكرويلانتسوديزيهومبروككس، من مؤسَّسة الناشرين الأكاديميِّيْن والعلميِّيْن، فبدونهما لم يكن لمخطوطة كتاب "القَبْلَنَة: لماذا الحرب على الأبواب؟" أن تتحوَّل إلى كتاب أبداً. أقدِّر تفانيهما العميق في تدقيق جميع التفاصيل في هذا الكتاب، والتَّأكُّد من توضيح مفهوم القَبْلَنَة على أكمل وجه. يبقى أن أقول أخيراً إن جميع الأخطاء أو العيوب المتبقِّية في الكتاب مسؤوليتي الشَّخصيَّة.

لا يمكنني أن أختتم هذا الشُّكْر والتقدير دون تقديم كلّ العرفان والشُّكْر الجزيل لزوجتي رينيلدي وابنتَيَّ شارلوت ولويز. لقد تحمَّلوا جميعهم، وبكل صبر ومحبَّة، ساعات التفكير والقراءة اللَّيليَّة والكتابة اليومية. لم يتبعوني إلى القاهرة وحسب لإنجاز العمل، بل رافقوني في مغامرات أخرى أيضاً. لقد احتضنوا هذا المشروع بالكامل، وتبنَّوه. أريد القول إن زوجي وابنتَيَّ عبارة عن أشخاص عالميِّيْن ومُعَوْلَمين بالفطرة، وربَّما على نحو يتجاوز ما كنتُ عليه في حياتي بمراحل.

ببليوغرافيا قصيرة جدّاً

اخترتُ على الرغم من الموضوع المعقَّد للكتاب إبقاءه خفيفاً قدر الإمكان، من خلال عدم استخدام الكثير من المراجع، وعدم إدراج الكثير من الحواشي. ولكنني أودُّ اقتراح الكُتُب التالية للراغبين في الغوص في بعض القراءات الإضافية.

لطالما فُتنتُ بعلم النفس في السنوات التي سبقت النزاعات، أكثر من النزاعات بحَدِّ ذاتها. غالباً ما يكون فَهْم سيكولوجيا أدب عصر ما أكثر تبصُّراً وعمقاً من الأعمال التَّاريخيَّة. وربَّما كان كتاب ستيفان زفايغ، عالم الأمس (لينكولن - لندن 1964) أحد مداخلي المفضَّلة للتَّعرُّف على التفكير السائد في فترة ما قبل الحرب. كَتَبَ زفايغ هذا الكتاب في بداية الأربعينيات في منفاه في البرازيل. يُصوِّر الكتابُ عالَم أوروبا قبل الحرب العالَميَّة الأولى والحرب العالَميَّة الثانية أيضاً. وكما يوحي العنوان، فهو كتاب مليء بالحنين. من المحزن أن زفايغ انتحر بعد أن أنهى الكتاب، لأنه كان مقتنعاً بأن كل شيء كان يمثِّله ويؤمن به قد انهار إلى الأبد. يمكننا أن نجد حكاية رائعة بالقَدْر نفسه في كتاب سيباستيان هافنر الذي عنونه "حياة هتلر: مذكّرات" (نيويورك، 2000). يصف هافنر بأسلوبه التَّحليليِّ النَّموذجيِّ، كيف سيطرت النَّازيَّة على المجتمع في ثلاثينيَّات القرن الماضي، وكيف تعامل الناس بسهولة مع مجتمع تعرَّض لعمليَّة القَبْلَنَة. يكاد المرء ينسى أن ألمانيا والنمسا ربَّما كانتا أكثر المجتمعات

تطوُّراً من الناحية الفكرية في العالَم. لذلك ينبغي أن تكون حقيقة أن هذَيْن البَلَدَيْن كانا ينزلقان بسرعة نحو الفاشية درساً لا يُنسَى على الإطلاق. وإذا رغبتَ برؤيةٍ أكثر علميَّة حول الحقبة بين الحربَيْن العالَميَّتَيْن، فكتاب إيان كيرشو بعنوان "في الجحيم الأوروبي: 1914-1949" (لندن، 2016)، واحد من أفضل المراجعات المتوفِّرة في هذا الشأن.

ولن أكون مؤرِّخاً إن لم أُوْصِكَ بقراءة بعض المصادر الأَوَّليَّة. أعتقد أنه من المُهمِّ قراءة كتاب أدولف هتلر، "كفاحي" لفَهْم جاذبية الفاشية. يجذب هذا الكتاب منذُ البداية القارئ باتِّجاه فكرة دور الضَّحيَّة. يُلقي هتلر باللوم على إخفاقاته وإخفاقات ألمانيا على مجموعة مستهدَفة بسهولة: اليهود. وبسبب الهولوكوست، لا يجرؤ سوى القليلين اليوم على إلقاء كل اللوم في إخفاقاتهم على اليهود مرَّة أخرى. ولكنكَ إذا قرأتَ كتاب "كفاحي"، واستبدلتَ باليهود مجموعة أخرى، سترى بوضوح لماذا تبدو عملية الانغماس في دور الضَّحيَّة والقَبْلَنَة ناجعة مجدَّداً. أمَّا الكتابُ الآخرُ الهامُّ للغاية، فهو كتاب "معالم في الطريق" لسيِّد قطب، والذي صدر بالإنجليزية في نيويورك عام 2006. كُتِب هذا الكتاب في أحد السجون المصريَّة في أثناء انتظار المؤلِّف لتنفيذ حكم الإعدام بحقِّه على يَدَي نظام عبد الناصر. وعلى الرغم من موضوع الكتاب المتعلِّق بالإسلام، ولكن الكتاب يمنحكَ "شعوراً" أشبه بكتاب "كفاحي" لهتلر. استُخدم كتاب قطب هذا من قبَل جميع الجماعات الجهادية منذُ السَّبعينيَّات. كان هذا الكتاب، ولا يزال، مصدر الإلهام الأساسي لأسامة بن لادن وأيمن الظواهري، ويُشارُ إليه، ويُقتبَس منه في العديد من مصادر داعش.

لا تزال ظاهرة المقاتلين الأجانب حقلاً يحتاج إلى مزيد من الاستكشاف. لا يوجد حتَّى اليوم سوى القليل من الكتابات عن المقاتلين الأوروبيِّيْن

الذين انضمُّوا إلى وحدات النخبة المسلَّحة فافن إس إس لمحاربة الاتِّحاد السُّوفيتيِّ. ولمعرفة المزيد حول الأشخاص الذين انضمُّوا إلى المعركة ضدَّ فرانكو في إسبانيا في ثلاثينيَّات القرن العشرين، لدينا لحسن الحظِّ، رواية جورج أورويل "الحنين إلى كاتالونيا" (لندن، 1938). يصف أورويل كيف ولماذا شارك في هذه المعركة، كما يتحدَّث أيضاً عن التفاصيل الصغيرة حول المعارك اليومية، والفوضى التَّنظيميَّة، وتفتُّت المعارضة. أعادتْني قراءة هذا الكتاب إلى سوريا، حيث كان الجيشُ السُّوريُّ الحُرُّ ومجموعات أخرى أيضاً في وضع مشابه. ولفَهْم نفسيَّة المقاتلين الأجانب اليوم والإرهابيِّيْن يُعدُّ كتاب سوت أتران "الحديث مع العدوِّ" (لندن - نيويورك، 2010) من أفضل المداخل المفيدة في هذا الشأن. لم يكن أتران عالِم أنثروبولوجيا يعمل من مكتبه. لقد سافر لمقابلة الإرهابيِّيْن وعائلاتهم والتَّحدُّث معهم في جميع أنحاء العالَم. يعطيكَ هذا الكتاب نظرة نادرة حول طريقة تفكير هؤلاء الناس وما يؤمنون به.

عندما كنتُ كاتب خطابات رئيس الوزراء البلجيكي، اقترح عليَّ أن أقرأ كتاب "سيكولوجيا الجماهير" (باريس، 1895) لجوستاف لوبون. كَتَبَ لوبون هذا الكتاب الصغير في عام 1895، وأصبح له تأثير وشهرة كبيران فيما بعد. الدِّيكتاتور الإيطالي بينيتو موسوليني مجرَّد مثال عن الأشخاص الذين أحبُّوا هذا الكتاب. قال لوبون في الكتاب الصادر بالإنجليزية بعنوان "الجماهير: دراسة حول العقل الشَّعبيِّ" (نيويورك، 1977) إنه حتَّى الأفراد المتوازنين يتحوَّلون إلى برابرة متوحِّشين عندما يصبحون جزءاً من حشد كبير من الناس، منوَّمين بتأثير زعيم كاريزمي، وبمجرَّد أن يصبح الأفراد جزءاً من الحشود، يتراجعون إلى الخلف عدَّة درجات على سُلَّم الحضارة. يتبع الأشخاص المحتشدون غرائزهم، ويصبحون متهوِّرين وعنيفين ومتسرِّعين، ولا يُظهِرون أيَّ تعاطف مع الغرباء. يمكن للمرء اليوم، وبعد أكثر من 100

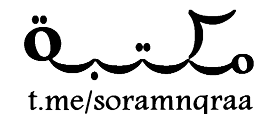
عام، أن يجادل بأنه يمكن للناس أن يصبحوا جزءاً من الحشود الافتراضية، وأن يتصرَّفوا وفقاً للقواعد التي تحدَّث عنها لوبون على الإنترنت. يقتبس سيغموند فرويد الكثير من كتابات لوبون في كتابه "علم نفس الجماهير وتحليل الأنا" (نيويورك، 1990) والذي كتبه في عام 1921. يضيف فرويد بالطبع إطاره المفضَّل من الإيروس والغريزة الجنسية كدوافع أساسية للأفراد في الحشود. لكن الأهمَّ من هذا الكتاب هو حقيقة أن فرويد استخدم مفهوم النكوص بدلاً من مفهوم لوبون حول التراجع عدَّة درجات على سُلَّم الحضارة. يشرح فرويد مفهوم النكوص كآلية دفاع للفرد في رحلته من الواقع المؤلم، حيث ينكص الفرد، ويتراجع عدَّة مراحل من التَّطوُّر. بمعنى آخر، عندما يصبح الفرد جزءاً من الحشد يغدو البالغون مراهقين أو أطفالاً مجدَّداً. كتب فرويد كتابه في عام 1921، في الزمن الذي خرجت فيه الجماهير إلى الشوارع للاحتجاج أو المطالبة بالكثير من الأشياء. وكان أيضاً الزمن الذي وُلدت فيه الفاشية في إيطاليا. لذلك كَتَبَ فرويد عن الجماهير والحشود الحقيقية، وليس عن المجتمعات الأكبر. كان من المفيد أن يقدِّم بنيديكت أندرسون تقديم مفهوم (الجماعات المتخيَّلة) في كتابه الذي أنجزه عام 1983، والذي يحمل نفس العنوان: "الجماعات المتخيَّلة: تأمُّلات حول أصل القومية وانتشارها" (نيويورك، 1983). يرى أندرسون أن المشاعر القومية صيغت من خلال انتشار الموادِّ المطبوعة باللغة العامِّيَّة بدلاً من اللغة اللَّاتينيَّة. كان هناك في معظم البلدان، (ولا يزال) العديد من اللغات أو اللهجات المختلفة، والتي كانت عائقاً أمام خَلْق مشاعر قومية. وبفضل الطباعة، نشرت النخبة لغة مشتركة واحدة وأفكاراً حول الهوية المشتركة، ممَّا شكَّل جماعات متخيَّلة. يجدر بنا على الدوام الأخذ بعين الاعتبار أن القومية، مثلها مثل أيِّ فكرة حول هوية أيِّ مجموعة كبرى، عبارة عن فكرة متخيَّلة.

يُظهِر لنا التاريخ أن عمليات القَبْلَنَة لا يمكن عكس مسارها سوى في لحظات التطهير. ويبدو أن المجتمعات تمرُّ، ولسوء الحظِّ، بعملية التطهير من خلال الحرب وحسب. لم يكنِ هناك إمكانية لبناء الاتِّحاد الأوروبي إلَّا على أنقاض الحرب العالَميَّة الثانية. يمكن للمرء أن يأمل فقط ألَّا يكون الحال هكذا هذه المرَّة. لذلك لا بدَّ للقادة السِّياسيِّيْن والمثقّفين العامِّين والأفراد العاديِّيْن أيضاً قراءة الكُتُب التي تنشر الروح المناهضة للقَبْلَنَة. لا يزال الكتابُ الأهمُّ حتَّى اليوم في هذا المجال بالنسبة إليَّ هو كتابَ كارل بوبر "المجتمع المفتوح وأعداؤه" (1945)، ولا سيَّما الجزء الأوَّل منه بعنوان "أحاجي أفلاطون" (لندن، 1945). يُوضِّح بوبر ببراعة كيف أن فكرة أفلاطون عن مجتمع مثالي، تماماً مثل أيِّ فكرة حول مجتمع مثالي، لا يمكنِ إلَّا أن تؤدِّي إلى الشُّموليَّة ونهاية الحُرِّيَّة. ينادي بوبر بدلاً من ذلك بقيام مجتمع منفتح، يتبنَّى فكرة التسامح كواحدة من أهمِّ مُثُله العليا.

إن أيَّ شكل من أشكال التَّعصُّب، كما يرى بوبر، سوف يؤدِّي إلى مجتمعٍ مغلَقٍ وقَبَلِيٍّ. ولهذا السبب ينبغي ألَّا نتسامح مع التَّعصُّب. الكتابُ الأساسيُّ الثاني المضادُّ للقَبْلَنَة هو كتاب أمارتيا سين: "الهوية والعنف: وهم القدر" (لندن، 2006)، الذي يشير فيه إلى أن السلوك القَبَلِيَّ هو نتيجة للتفكير بالهوية الفردية. إذا نظرنا إلى الناس (أو في أنفسنا) من خلال عدسة هوية واحدة وحسب، بوصفهم مسلمين مثلاً أو رُوساً، فإننا نُنكر أن كل الناس يتمتَّعون بهويات متعدِّدة. يمكن لكل فرد أن يكون مسلماً وروسياً، ولكنْ، يمكنه أن يكون أيضاً مشجِّعاً لكرة القَدَم ومُحبَّاً للأدب ومُحبَّاً للطعام الياباني. إذا نظرنا إلى الأشخاص الموجودين من حولنا كما هم، فقد نتشارك معهم بسهولة واحدة أو أكثر من هوياتهم. لا شكَّ أن هذا هو أفضل علاج ضدَّ أيِّ شكل من أشكال القَبْلَنَة.

في الختام، أودُّ أن أضيف بعض الكُتُب التي تُبيِّنُ لنا أن جزءاً كبيراً من الطريقة التي ننظر بها إلى العالَم عبارة عن طريقة منحازة، وأن التاريخ الذي تعلَّمناه لم يكن، في الحقيقة، سوى مجرَّد دعاية. كتاب "الاستشراق" (لندن، 1978) لإدوارد سعيد من أوائل الكُتُب وأكثرها انتشاراً في هذا المجال. عندما نُشر هذا الكتاب في عام 1978، صَدَمَ الكثيرين في عالَم الفكر الغربيِّ، حيث أظهر مدى عنصرية وجوهرانية وفوقية وجهات النظر الغربية حول الشرق. بعد عقد من الزمن، في عام 1987، نشر مارتن بيرنال كتابه: "أثينة السوداء: الجذور الأفروآسيوية للحضارة الكلاسيكية" (نيويورك، 1987) والذي أوضح فيه كيف أن مناهج التاريخ الأوروبي في القرن التاسع عشر قد حذفت التأثيرات المصرية، والفينيقية، من الحضارة اليونانية، لجعلها "نقيَّة" وأكثر أوروبيَّة. كان السبب وراء هذا التشويه التَّاريخيِّ هو دفع القوميَّة القَبَلِيَّة أكثر فأكثر. لهذا الهدف اخترع العلماء مفاهيم اللغة الهندو - أوروبية والثقافة الآريَّة، وهو الفعل الذي يُطلق عليه برنال عبارة (التَّصرُّف غير العلمي). من الواضح أن كلاً من برنال وسعيد تعرَّضا لانتقادات شديدة، بسبب كُتُبهما، لأنهما يسيران في المقدّمة ضدَّ كل شيء قد تعلَّمناه. هناك المزيد من الكُتُب المثيرة للاهتمام، والتي تلي هذَيْن الكتابَيْن، والتي تُبيِّنُ لنا كيف كان التاريخ العالَمي على الدوام، وكيف كان الناس والسلع والأفكار يسافرون دائماً عبر الطُّرُق السريعة لطُرُق الحرير. يمكن للمرء أن يحظى بنظرة عامَّة جيِّدة حول هذا في كتاب "طريق الحرير: تاريخ جديد للعالَم" (لندن - نيويورك، 2015) بقلم بيتر فرانكوبان. ويوضِّح فرانكوبان كيف أن أوروبا لم تكن مركز العالَم، بل الشرق الأوسط ولآلاف السنين. ممَّا يمنحُنا بعبارة أخرى نظرة على التاريخ من منظور مختلف. يستكشف جون م. هوبسون في كتابه الذي يحمل القدر نفسه من الطموح والجِدَّة "الأصول الشَّرقيَّة للحضارة الغربية (كامبريدج،

2004)، مفازات الحضارة الإسلامية والصِّينيَّة التي كانت قائمة لعدَّة قرون، وكيف أنها أدَّت إلى عصر النهضة الغربية والاستكشافات الغربية و"اكتشاف" العالَم والتصنيع الغربي. كما يجدر بنا أيضاً قراءة كتاب على نفس القدر من الأهمِّيَّة، وهو كتاب "النهضة: واحدة أم أكثر؟" (كامبريدج، 2010) بقلم جاك جودي. كتب جودي عن النهضة في الصين والهند والعالَم الإسلامي وأوروبا، وكيف كان تأثيرها على بعضها البعض. من المثير للاهتمام أن نقرأ كيف أن بعض الأفكار قديمة حقّاً، وكيف كان يتمُّ تكييفها في كل منطقة وفقاً لظروفها. كتب جون فري في عام 2011 كتاب "نور من الشرق: علوم الحضارة الإسلامية وتشكيل العالَم الغربي" (لندن - نيويورك، 2011). يوضِّح عنوان هذا الكتاب محتواه، حيث يخبرنا أن الكُتُب التي تغطِّي أكثر من حضارة نادرة وحديثة نوعاً ما. إن معظم العمل الأكاديمي متخصِّص للغاية، لذلك يُعدُّ غير قادر على تخطِّي العديد من الحدود. ولكن التفاهم المتزايد بين الثقافات ربَّما يمثِّل العلاج الأهمَّ ضدَّ عمليَّة القَبْلَنَة. لا يمكنني سوى التَّحلِّي بأمل أن تظهر المزيد من الكُتُب من هذا النوع قريباً، وأن تُستخدَم كأساس لتعليم التاريخ في جميع أنحاء العالَم.



مركز دراسات ثقافات المتوسط MISC

Mediterranean Intercultural Studies Center

تشكل منطقة البحر الأبيض المتوسط ميداناً كبيراً صُنع فيه تاريخ العالم، ولازالت حتى الآن منطقة سريعة التغير وكبيرة التأثير. ويمكن فعلا اعتبار هذه المنطقة مركزا في قضايا (بين الثقافات) فهي قد تكون المنطقة الأكثر تنوعا في العالم وعلى جميع الأصعدة وخاصة العرقية منها، والتي تفرض تنوعا هائلا ثقافيا واجتماعيا ودينيا.. إلخ.

يهدف المركز إلى تعميق البحث (النظري والتطبيقي) البين ثقافي في منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط، لدراسة قدرة المنطقة في الوصول إلى الأمن والسلم الدولي، ودراسة السبل التي قد تسهم في ذلك.

وعليه سيقوم المركز بعمل بحوث ودرسات تتناول ثقافات منطقة البحر الأبيض المتوسط وفي جميع المجالات، الإنثربولوجية والاجتماعبة، دراسة الأقليات العرقية والدينية، والدراسات الجنسانية، والنماذج الثقافية، ودراسة الأسس والكفاءات وامكانيات التواصل والاتصال والتكيف الثقافية، ودراسة جوانب سوء الفهم الثقافي.

للمزيد: www.misccenter.com

يعتمد تحليلي أساساً على تجربتي الشَّخصيَّة في الصراعات والحروب. شاهدتُ بأُمِّ عينَيّ خلال السنوات الخمس التي عشتُها كمسؤول برلماني أوروبي في القاهرة بعد ثورة 2011، كيف يمكن للمجتمعات أن تتغيَّر بسرعة كبيرة، وعلى نحو يتناقض مع جميع الإحصاءات. عرفتُ في ميدان التحرير أن التفاؤل والاتِّحاد يمكن أن يتحوَّلا إلى كراهية واستقطاب بين عشية وضحاها. شهدتُ في طرابلس انهيار المجتمع اللِّيبيِّ وانحداره نحو الحرب الأهلية. تمكَّنتُ من أن أشمَّ رائحة صعود تنظيم القاعدة والدولة الإسلامية على أنقاض المُدُن البائسة التي يقتلها اليأس، بعد دخولي بواسطة المهرِّبين إلى شمال سوريا في عام 2013.



قبل أن أقضي رَدْحَاً من الزمن في الشرق الأوسط، ومن خلال عملي كمستشار لرئيس الوزراء البلجيكي، وبعد ذلك كسكرتير لرئيس كتلة اللِّيبراليِّيْن والدِّيمقراطيِّيْن في البرلمان الأوروبي، شهدتُ ما يقارب انهيار الاتِّحاد الأوروبي خلال الأزمة المالية والاقتصادية التي بدأت في عام 2007.

للتاريخ دائماً منعطفاته الغريبة والمفاجِئة، ولا حاجة للحفر عميقاً في ثنايا الماضي، لتدرك ذلك.



ISBN 979-12-80738-08-0

